مكارم الأخلاق

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية
المتوفى ٧٢٨هـ

تحقيق وإعداد

عبد الله بدران

محمد عمر الحاجي

دار الخير

بسم الله الرحمن الرحيم

مكارم الأخلاق

حقوق الطبع محفوظة لدار الخير

الطّبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

بيروت - قريطم - جنوب ستيار الدرك - بناء الشامي
هاتف : ٨١٠٥٧١ - ٨٦٥٦٩٧ - ص.ب : ٥٦٣٠/١١٣
فاكس : ٨٦٥٦٩٧ - تلكس : ٢١٦٣٢

دمشق - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف: ٢٢٤٥٨٢٢ - ٧٥١٩١٥ - ص.ب : ١٣٤٩٢
تلكس : سامتل سي : ٤١١٣٧٢

تـوطئـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فلقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة الخاتمة الخالدة لكل الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأزمانهم، وجعل فيه تلك الخصائص الفريدة المدهشة كالشمولية، والوسطية، والواقعية، والصلاحية لكل زمان ومكان.

فكان - بفضل حفظ الله له - هادياً للناس، ومرشداً لهم، ودالاً على طريق السعادة والخير والبشر والهناء في الدار الدنيا قبل الدار الآخرة.

ومعلوم أن الإسلام قد شمل بتعاليمه جميع جوانب الحياة، فنظم علاقة الفرد مع ربه عز وجل، وعلاقة الفرد مع الفرد الآخر من أبناء جنسه، وعلاقة الفرد مع نفسه، ولم يترك فضيلة من الفضائل إلا ودعا إليها، وحث على التمسك بها، ولم يدع رذيلة من الرذائل إلا نبّه من أخطارها، وأمر بالإبتعاد عنها. حتىٰ غدت حياة الإنسان منظمة وفق قانون إلٓهي محكم دقيق، إن سار مطبقاً تعاليمه نجح وفاز، وإن نأىٰ عنه خاب وخسر.

وتعد الأخلاق الفاضلة من أهم الأُسس التي اعتمدها الإسلام... في بناء الفرد وإصلاح المجتمع. إذ إن سلامة المجتمع، وقوة بنيانه، وسموّ مكانته، وعزة أبنائه مرهونة بتمسكه بفضائل الأخلاق، كما أن انهياره، وشيوع الانحلال والرذيلة والفساد فيه مقرون بنبذه الأخلاق الحميدة، والابتعاد عنها.

ولقد اهتمت الشرائع والأديان بوقاية أبنائها من الأمراض الأخلاقية التي تفتك بالمجتمع فتكاً ذريعاً، وسعت بتعاليمها ومبادئها إلى تنبيه الأفراد من أخطار الأخلاق

الفاسدة والدعوة إلى الابتعاد عنها، حتىٰ يظل شبان الأمة قوياً متماسكاً، ينهض للواجب بقوة ومضاء، ويثبت للكوارث بجلد وإباء، ويعيش في الحياة موفور الكرامة، منيع الحمىٰ، نبيل الغاية، كريم الخلق والسمعة، يأوي إلى ظل ظليل من أمن شامل، وسعادة تغمر الناس جميعاً، حتىٰ لكأنهم في طمأنينتهم وسمو أرواحهم كملائكة السماء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويبين لنا التاريخ أن كل أمة نهضت نهضة جبارة، وكلّ حضارة ازدهرت وتطورت، كان بفضل أبنائها الذين ملكوا نفوساً قوية، وعزيمة ماضية، وهمماً جبّارة، وأخلاقاً حميدة، وسيرة فاضلة، وتماسكاً فيما بينهم، وترابطاً بين عائلاتهم.

وهؤلاء ابتعدت نفوسهم عن سفاسف الأمور، ومحقرات الأعمال، ورذائل الأفعال، ولم يقعوا فريسة للأغلال والفساد، أو أسرى الملذات والشهوات، أو مطية للجهل والتخلف.

بل انطلقوا بقيمهم ومبادئهم حتىٰ بنوا حضاراتهم وأمجادهم ونهضاتهم.

ونجد هذا في الإسلام واضحاً بيناً لكل دارس موضوعي، ولكل باحث حيادي، فلقد سعىٰ الإسلام إلى تأمين التكامل بين البناءين الجسدي والروحي، ولم يدع أحد الجانبين يطغىٰ على الجانب الآخر.

ودعا الإسلام إلى التمسك بالأخلاق الحميدة والدعوة إليها، ونبذ الرذائل والابتعاد عنها.

فهـا هوذا البيان الإلٓهي يحدثنا عن رسول الله ﷺ ويصفه:

﴿وإنك لعلىٰ خلق عظيم﴾. [القلم: ٤].

ويحدثنا في موضع آخر عن بعض أخلاق رسول الله ﷺ:

﴿خذ العوف وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾. [الأعراف: ١٩٩].

وفي صحيح مسلم أن سعد بن هشام سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت:

﴿كان خُلُقه القرآنَ﴾..

فقال: لقد هممت أن أقومَ ولا أسأل شيئاً.

وها هو أنس بن مالك رضي الله عنه ـ خادم رسول الله ﷺ ـ يقول: كان رسولَ الله ﷺ أحسن الناسِ خُلُقاً.

وقال:

ما مسستُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قطُّ أطيبَ من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قطُّ؛ أفٍّ، ولا قال لشيءٍ فعلتُه: لم فَعلتَهُ؟ ولا لشيءٍ لم أفعلْهُ: ألا فعلت كذا؟!.

ويشجع النبي ﷺ المؤمنين إلى التزام الأخلاق الحسنة والإبتعاد عن الفاحش منها.

روى الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«ما مِنْ شيءٍ أثقل في ميزان المؤمنِ يوم القيامةِ من حُسن الخلق، وإنّ الله تعالى ليبغضُ الفاحش البذيء».

وبيّن أن أكثر ما يُدخِل الناس الجنة هو حسنُ الخلق، وتقوىٰ الله.

ففي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يُدخِلُ الناسَ الجنّة؟ فقال: «تقوىٰ الله، وحَسنُ الخلق»).

وسُئِلَ عن أكثر ما يُدخل الناس النار؟ فقال: «الفمُ، والفَرْجُ».

وأوضح أن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً.

ففي الترمذي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ:

«إنّ أكملَ المؤمنين إيماناً أحسنُهم أخلاقاً، وخيارُكُم خيارُكم لنسائهم».

وجعل رسول الله ﷺ أقرب الناس إليه مجلساً يوم القيامة أصحاب الأخلاق الحميدة، وأبعدهم منه أصحاب الأخلاق الذميمة.

ففي الترمذي عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«إنّ مِنْ أحبكُم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يومَ القيامةِ أحاسِنُكم أخلاقاً، وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي يومَ القيامة الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون».

قالوا: يا رسول الله، قد علِمنا الثرثارون والمتشدِّقون، فما المتفيهقون؟؟

قال: «الاجتهاد: .

والمشكلة التي نراها في العالم الإسلامي ـ بوضوح وبيان ـ أن هناك بعداً كبيراً عن الالتزام بالأخلاق التي نادىٰ بها الإسلام، وحث عليها في الكتاب والسنّة.

ونرىٰ أنَّ الإسلام في وادٍ، والمسلمين في وادٍ، فالمسلم أصبح مسلماً بالإسم والهوية والجنسية فحسب، أما عند التطبيق والإلتزام والمعاملة والسلوك فليس هناك من تعاليم الإسلام شيء، وليس لتوجيهاته دور، ولا لتعاليمه مكانة، ولا لمبادئه احترام.

وهكذا نرىٰ البعد عن هدي الإسلام يزداد يوماً بعد يوم، والتقصير في تطبيقه يكبر يوماً بعد يوم، وهذا ما يفسّر لنا الواقع المؤلم الذي أُصيب به المسلمون، والنكبات التي يلاقونها كل يوم، والهزائم العسكرية والنفسية التي تلاحقُهم في كل مكان، والتخلف عن ركب التطور التقني والصناعي والزراعي الذي سبقتنا إليه الأمم الأخرىٰ.

ولقد آن للمسلمين أن يعودوا إلى دينهم عوداً حميداً، وحان وقت رجوعهم إلى إسلامهم الحنيف، وجاء الوقت المناسب كي يقفوا وقفة الباحث العارف الخبير، ليكتشفوا أن سلفهم الصالح كان عزّه بالإسلام، وكانت قوته نابعة من الإسلام، وأن ازدهاره كان سببه الإسلام، وأن الخَلفَ ليس له عزٌّ ولا قوة ولا ازدهار إلا بتمسكه بالإسلام الحقيقي الذي دعا إليه كتاب الله عز وجل. وحثت عليه سنة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام.

وهذا الكتاب تذكير بالأخلاق الفاضلة الحميدة التي يجب على المسلم أن يتمسك بها، حتى يكون مطبقاً لدين الله، ملتزماً بشرعه، ليفوز ـ إن شاء الله ـ بجنته ونعيمه.

نسأل الله عز وجل أن يعيد المسلمين إلى دينهم وقرآنهم وسنة نبيهم رداً جميلاً، إنه سميع قريب مجيب، وهو ولي التوفيق.

المحققان

مقدمة التحقيق

الحمد لله نحمده، ونستعينه ونسترشده، ونستهديه ونستغفره، ونثني عليه الخير كله، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

وبعد:

فهذا الكتاب جهد متواضع قمنا بجمعه من كتب عدة لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية.

وتناولنا فيه ما كتبه الإمام عن الأخلاق الحميدة، وفضلها، ومكانتها، وتأثيرها، وضرورة الإلتزام والتمسك بها.

وتبين لنا من دراسة الكتاب أن «ابن تيمية» ـ رحمه الله ـ أحد فرسان الوعظ والإرشاد، وأحد السباقين في ميدان التربية والسلوك والتزكية، فهو عالم مبتحر في خفايا النفس وشؤونها، ومراميها وخباياها، وأمراضها وعللها.

وهو طبيب معالج يضع الدواء المناسب للداء المناسب، ويصف البلسم الشافي للمرض العضال، ويحذر من الأمراض قبل الوقوع بها، وينبه إلى ضرورة الوقاية وأخذ الحيطة والحذر قبل التردي في مهاوي الهلكة والفساد.

يعرضُ «ابن تيمية» هذه الأمور بأسلوب جميـل، مستعيناً بالبراهين الدامغة، والحجج القوية، والأدلة المقنعة، ويعتمد أسلوبه على ما يلي:

١ ـ الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة، والإكثار منها، مع شرح بعضها، أو ذكر سبب نزول بعضها الآخر عند الحاجة إلى ذلك.

٢ ـ الاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة الواردة في الموضوع الذي يتحدث عنه،

مع الإشارة إلى تخريجها إن كانت في الصحيحين، وإلى تخريج بعضها إن كانت واردة في السنن والمسانيد، ولا يكتفي الإمام بذكر الحديث بل يشرح المبهم منه ويعلق عليه بفوائد رائعة.

٣ ـ الإستشهاد بأقوال أئمة السلف الصالح، وذكرها في مواضعها، لزيادة وضوح الفكرة وجلائها.

٤ ـ التعليق على أفكار الموضوع، والتركيز على ما ترمي إليه الفكرة، مع المناقشة، والشرح، والبيان، والتوضيح حتىٰ يصبح الموضوع واضحاً جلياً للقارىء، لا لبس فيه ولا غموض.

٥ ـ كان الإمام ـ رحمه الله ـ سيفاً مسلطاً على أهل البدع والضلال، ونرىٰ كيف يرد في هذا الكتاب على آرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم. وكان لا يترك فرصة تنال منهم، وتبين زيف دعواهم إلا ناقشها وبين القول الفصل فيها.

أما الكتب التي أخذنا منها هذا الكتاب فهي:

١ ـ مجموع فتاوىٰ الإمام «ابن تيمية» التي قام بجمعها وتبويبها الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم النجدي وابنه محمد.

٢ ـ كتاب «الاستقامة» للإمام «ابن تيمية».

٣ ـ رسالة في الغيبة. للإمام «ابن تيمية».

وقد ذكرت المصادر في أماكنها، أما المواضيع التي لم يذكر في هامشها المصدر فهي من كتاب الفتاوى. وكان عملنا في الكتاب:

١ ـ جمع الموضوع الواحد من المصادر المذكورة، وضم فقراته إلى بعضها، ليصبح موضوعاً متكاملاً متناسقاً.

٢ ـ وضع عناوين الموضوعات.

٣ ـ وضع عناوين لفقرات الموضوع الواحد.

٤ ـ تخريج الآيات القرآنية الكريمة.

٥ ـ تخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

٦ ـ شرح الكلمات الغامضة والمبهمة.

٧ ـ وضع ترجمة مختصرة للإمام «ابن تيمية».

وختاماً: نسأل الله عز وجل أن يجعل العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين. والله ولي التوفيق.

المحققان

الإمام ابن تيمية

١ ـ بيئته وعصره:

في أواخر القرن السابع للهجرة بزغ نجم «ابن تيمية» ـ رحمه الله ـ في وقتٍ امتاز بكثرة الأحداث، وتعددها وتواليها، فالدولة الإسلامية قد انحلت إلى دويلات، كل منها يتربص بالأخرى لينقض عليها، وأصبح الملك ـ كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ ملكاً عضوضاً، واضطربت الأمور...

وأغار الصليبيون على عقر الإسلام لكنّ الله أذن بالنصر للأمة المحمدية، وما إن هدأت الأمور حتىٰ أتىٰ التتار، وزاد نشاط الفرقة من الباطن، وفي الأندلس أيضاً انقسمت الدولة إلى دول صغيرة وبلغ الأمر أن كل مدينة أصبح لها قائد، جيش، وجند... والعدو يقتنصها واحدةً تلو الأخرىٰ... وهكذا حتى انقض أخيراً على ما تبقىٰ منها وابتلعها وحدث ما حدث...

في هذا الخضم المتلاطم ولد الإمام «ابن تيمية» ـ رحمه الله ـ وعاش بقلب مؤمنٍ متوثب، فهل تأثر بما يدور حوله؟ أم هل كان مؤثراً بما حوله؟ هل استسلم لكل هذه الفتن والآراء والأعداء؟؟

٢ ـ اسمه ونسبه ونشأته:

هو أحمد تقي الدين أبو العباس بن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن الشيخ أبي البركات...

ولد في العاشر من ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة النبوية.

وكان مولده في «حران»، وبقي فيها حتى بلغ السابعة من العمر، حيث أغار التتار

عليها ففر أهلها إلىٰ (دمشق) وفي الطريق عانوا المصاعب والمخاطر، كل هذا طبع في نفس ـ الإمام ـ الكره الشديد للتتار، مما جعله عندما كبُر في مقدمة المجاهدين ضد التتار.

وما إن استقر بهم المقام في «دمشق» حتىٰ ذاعت شهرة والده بالعلم والورع، فتولىٰ مشيخة «دار الحديث السكرية» وأصبح مدرساً في «الجامع الأموي»، وكان الإمام وقتها يتربىٰ بين العلماء أقران والده وخاصةً أنه لوحظ عنه الذكاء المتوقد وسرعة الحفظ والبديهة والجرأة...

في هذه البيئة العلمية حفظ «ابن تيمية» القرآن وهو صغير السن، ثم اتجه إلى حفظ الحديث واللغة، وتعرف الأحكام الفقهية وحفظ ما شاء الله له أن يحفظ وقد تميز منذ صغره بثلاث مزايا.

١ ـ الذاكرة الحادة، والعقل المستيقظ، والفكر المستقيم، والنبوغ المبكر.

٢ ـ الجدّ والاجتهاد، والانصراف إلى المجدي من العلوم والدراسات.

٣ ـ تفتّح قلبه ونفسه لكل ما يدور حوله رغم انكبابه علىٰ العلم والحفظ والاستذكار.

سمع الإمام «ابن تيمية» «مسند أحمد»، و «صحيح البخاري» و «مسلم» و «الترمذي» وسنن «ابن داود» و «النسائي» و «ابن ماجة» و «الدارقطني» وكلٌ منها سمعه مرات عديدة، وأول ما حفظ من الحديث:

«الجمع بين الصحيحين» «للإمام الحميدي»، وكذلك درس الرياضيات وعلوم العربية وأخبار القدماء، وبرع في النحو براعة واضحة حتىٰ إنه خالف آراء «سيبويه» في بعض المسائل!!

كذلك تبحّر الإمام في علوم تفسير كتاب الله عز وجل، وراجع الموسوعات التي كُتبت في ذلك، وممّا زاد من ثقافته وتحصيله للعلم.

إنَّ «دمشق» يومئذٍ كانت عُشَّ العلماء، خاصة بعد أن هرب العلماء من الأندلس إلىٰ المشرق العربي، وبعد أن هرب العلماء من «بغداد» على أثر سقوط الخلافة الإسلامية.

وظهرت مدارس مختصة بعلوم الحديث تدرس أمثال: «النووي»، و «ابن دقيق العيد»، و «الزملكاني» وغيرهم. كما ظهرت مدارس في الفقه كمدرسة الحنابلة، ومدرسة الشافعية وغيرها.

وظهر وقتئذٍ مذهب «أبي الحسن الأشعري» في العقائد وانتشر ولم يخالفهم إلا الحنابلة حينذاك.

وكان الإمام أحد خريجي المدارس الحنبلية هذه، واتجه بعد ذلك إلىٰ الاهتمام بمعرفة آراء الصحابة، خصوصاً فقه الذين امتازوا بالعلم والخبرة والتجربة «كعمر بن الخطاب»، و «علي بن أبي طالب»، و «ابن عباس»، وحرص أيضاً علىٰ معرفة فتاوى التابعين الممتازين «كسعيد بن المسيب»، و «النخعي» و «القاسم بن محمد»، وهكذا قال عنه أحد معاصريه: [لقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله].

٣ ـ من تلقىٰ عليهم العلم:

كان لوالده اليد البيضاء في تلقي علومه، حيث كان عالماً جليلاً معروفاً بباعه الطويل في علوم الحديث، حتىٰ توفي والده وهو في الحادية والعشرين من عمره، فتنقل من هذا إلىٰ ذاك ـ بعقل حرٍ وقلب واعٍ ـ يسمع من هذا وينتقي، ويسمع من الآخر وينتقي، حتىٰ قال صاحب كتاب «العقود الدرية» ما نصه: [شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتين، وسمع كتب الحديث المعتمدة مرات ومرات].

ولم يترك الإمام مناظرةً ـ يومها ـ أو حفلاً جامعاً، أو مجالس للعلماء معروفة إلا سارع إلى حضوره والادلاء برأيه. . . حتىٰ إذا اشتد ساعده، ووثق من علمه، اتجه إلى شيءٍ آخر، اتجه إلىٰ علماء ومشايخ بعيدي الإقامة، وقديمي العهد به، ومختلفي التفكير والآراء، لكن كيف يلتقي بهم؟

انكبّ علىٰ مطالعة كتبهم، فبدأ بجمع شتات تفسيراتهم للقرآن الكريم، وأكثر ما عني هنا بما فسره السلف، وكان رحمه الله يقول: [ربما طالعت علىٰ الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله تعالىٰ الفهم، وأقول يا معلم إبراهيم علمني، وأقول يا معلم ابراهيم فهمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأدعو الله أن يلهمني الصواب].

وجاء في «مجموعة الفتاوي»: أن ما جمعه من التفسير الوارد عن السلف أكثر من ثلاثين مجلداً كتب بعضها وبعضها لم يكتب، كذلك قرأ بالفقه الحنبلي كتاب «المغني: لابن قدامة ت ٦٣٠ هـ»، وهذا الكتاب الذي يهتم كثيراً بآراء فقهاء الصحابة، وآراء فقهاء

التابعين أثر به تأثيراً كبيراً، واتجه به إلىٰ الخط السلفي.

لكن مع ذلك فقد قرأ كتب «الطحاوي»، و «الخصاف» و «الحصيري»، و «السرخسي»، في المذهب الحنفي، و «الأم»، و «المهذب»، و «المجموع» و «مختصر المزني»، و «الوجيز للغزالي»، في المذهب الشافعي.

وقرأ كتب «ابن رشد الكبير»، و «ابن رشد الحفيد» وغيرها في المذهب المالكي.

وتأثر كثيراً وخاصة ـ بطبع الحدة ـ من «ابن حزم» حيث قرأ كتبه خاصة: «المحلىٰ» و «الإحكام في أصول الأحكام».

قال عنه صاحب «الكواكب الدرية»: [كان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقلّ أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها أقوال المذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها واحتج لها من الكتاب والسنة].

كذلك علوم العربية لم يترك مجالاً فيها إلا وتبحر به، حتى إنه خالف شيخ النحاة وقتها وهو «أبو حيان النحوي» حتىٰ صرّح يوماً قائلاً: [ما رأت عيناي مثل ابن تيمية].

ونظراً لضرورات العصر فقد درس كتب «الغزالي» (فلسفة وعلم كلام) ودرس آراء الفرق المختلفة، كالجهمية في إرادة العبد ومشيئة الرب، ويقارن مع آراء «الأشعري»، وآراء المعتزلة، من هنا ندرك السر إذا قرأنا له في كتاب «عرش الرحمٰن» كلاماً عجيباً وهو يتكلم عن الأفلاك مثلاً.

كذلك قرأ رسائل إخوان الصفا، ولا عجب إذا قلنا إنه قرأ كتب النصارىٰ، وإلاّ فمن أين له أن يؤلف كتاباً سماه [الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح]؟.

وهذا ما جعل العالم الجليل «محمد أبو زهرة» يقول: [نستطيع القول إنّ ـ ابن تيمية ـ قرأ كتب العلوم الإسلامية كلها، وكتب الفلاسفة المعروفة في عصره، وقرأ ما وصله من كتب الأديان السابقة].

٤ ـ تلامذتـه:

لم يعرف في عصره شيخ كثر تلامذته ومريدوه كما كثر تلاميذ ـ «ابن تيمية» ـ خاصة عند تنقله بين الشام ومصر، وبين الإسكندرية والقاهرة، مع تفرغه التام للعلم، ومع عكوفه الدائم علىٰ الفحص والخطابة والمناظرات أدىٰ ذلك إلى ازدياد عدد تلاميذه.

لكن يلاحظ أن تلاميذه نوعان: لأن دروسه نوعان.

١ ـ دروس عامة: يلقيها في المسجد الجامع خاصة الأموي في دمشق يوم الجمعة، تميزت بالإرشاد وحقيقة الإتباع، وتجنب الابتداع، والعودة بالناس إلى الجيل الأول من الصحابة والتابعين دون بـدع مصطنعةٍ، وكان درسه هذا بعيداً عن علم الكلام والمنطق، سهلاً، محبباً للعامة.

٢ ـ دروس خاصة علىٰ من سيكونون ورثة علمه وعلىٰ القائمين علىٰ تركته الفكرية الهائلة، تميزت هذه الدروس بالمناقشات والأدلة العقلية والنقلية، والترجيح، والرد علىٰ الفرق الضالة، وبيان كل الأخطاء والعثرات، وكان يلقي هذه الدروس في مدارس الشام وفي مصر أحياناً، وكان أكثر التلاميذ من الحنابلة وبعض الشافعية، لكن عددهم لا يحصىٰ، خاصة لأن الإمام طال به الزمان في التدريس والإرشاد، فقد ألقى دروسه نحواً من ستة وأربعين عاماً دائباً لا يمل ولا يكل، وعُرف عنه في الدروس اللسان العربي المبين، والفصاحة، وسرعة البديهة، وقوة الحجة، والجرأة لنصرة فكرته، مما زاد من عدد تلاميذه، بل أصبح الكثير منهم مريدين له، متحمسين معجبين، فكثر التحدث باسمه في المجالس العلمية حتى قال حجة العصر في الحديث والعلوم وقتئذٍ الإمام «ابن دقيق العيد»:

[رأيت رجلاً ـ ابن تيمية ـ جمع العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد].

وانتقل نشاطه ـ إضافة إلىٰ الدروس إلى الإجابة عن كل ما يخطر علىٰ بال الناس، فصار مقصداً فيسأل فيجيب بالكتاب، فيذيع ويشتهر بين الناس، ويتناقله الناسخون، وكان من ذلك سؤال أهل «حماة» عن آية ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ فأجابهم «بالرسالة الحموية» المعروفة، ولا يكاد المرء أن يحيط بتلامذته، لكن لا بدّ من الإشارة إلىٰ أبرزهم.

١ ـ الإمام ابن قيم الجوزية: الذي لازمه ملازمة التلميذ لشيخه، فحمل من علومه، ودافع عنه، وذكر كثيراً في كتبه عن علوم شيخه مثل «زاد المعاد» و «أعلام الموقعين»، لكنّه كان هادئاً مطمئناً أكثر من شيخه، منصرفاً للعبادة والزهد، وورعاً إلىٰ حد عجيب، ويظهر لنا ذلك واضحاً في كتبه القيمة مثل: «مدارج السالكين» و «الكلم الطيب» و «حادي الأرواح» و «إغاثة اللهفان»، و «مفتاح دار السعادة» وغيرهم.

٢ ـ الحافظ ابن كثير: صاحب «التفسير العظيم»، وصاحب «البداية والنهاية» في التاريخ... وغيرها...

ولا بدّ من الإشارة إلىٰ أن تلامذته المقربيّن نالهم العذاب والإضطهاد والسجن، خاصة عندما تم القبض على الإمام وأودع السجن، ثم خرجوا معه إلا أقرب الناس إليه وأكثرهم التصاقاً به وهو تلميذه الأول ابن القيم فقد بقي بعدهم مدة.

٥ ـ آراؤه وفقهه ومنهجه:

١ ـ منهجه العام: نستطيع اختصاره بما يلي:

ـ **لا يثق بالعقل مطلقاً:** لذا خالف الفلاسفة واعتقاداتهم وخاصة معلمهم أرسطو.

ـ **لا يتبع الرجال على أسمائهم:** ونقل أن «أبا حنيفة» قال: [هذا رأي، فمن جاء برأي خير منه قبلته].

ـ ونقل عن الإمام «مالك»: [إنما أنا بشر أصيب وأخطىء، فاعرضوا قولي علىٰ الكتاب والسنة].

ـ ونقل عن «الشافعي»: [إذا صح الحديث، فاضربوا بقولي عرض الحائط].

ـ ونقل عن «أحمد»: [لا تقلد دينك الرجال، فإنه لا يسلم أن يغلطوا].

ـ **أصل الشريعة القرآن الكريم:** والرسول عليه الصلاة والسلام قد فسره كله، والصحابة تلقوا منه ثم التابعون، وما عدا ذلك فلا.

ـ **لم يكن متعصباً في تفكيره،** لذا تقيد بالكتاب والسنة وما روي عن الصحابة، ثم خالف، وأخذ من أي مكان حتىٰ من مخالفيه أحياناً.

٢ ـ منهجه في التفسير: أولاً تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بالتابعين، وأنكر أن يُفسر القرآن بالرأي، وقد خالفه بعض العلماء في ذلك «كالغزالي».

٣ ـ منهجه في العقيدة: درس الفلسفة لا ليطلب الحقائق من ورائها، بل ليبين بطلانها وخاصة ما يعارض الدين فيها، فهو آمن بما جاء به المصطفى صلوات الله عليه أولاً، ثم أراد أن ينفي عنه خبث الفلسفة، فدرس ذلك الخبث ليعرف حقيقته، ثم ليبين بطلانه بعد معرفته.

ومن هنا نعلم سرّ تهجمه على الفلاسفة لأنهم جعلوا الحاكم محكوماً، أي جعلوا النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكومة بمقدمات فلسفية واهية، ويؤكد ـ الإمام ـ علىٰ أن الطريق الصحيح في العقيدة هو اتباع القرآن الكريم لما فيه من أدلة وحجج تثبت وحدانية الخالق، وصفاته، واليوم الآخر، والمعاد، وهو ليس للإخبار فقط، بل فيه الدليل علىٰ صحة الخبر، فهو في نفسه يحمل دليل صدقه.

ومما تميز به هو إطنابه في الحديث عن العقائد، خاصة ما يتعلق بالوحدانية، وهنا يبرز ردّه المفحم علىٰ الطوائف وما يسميهم هو أهل الزيغ: كالمعتزلة، والاتحادية، والفلاسفة، والباطنية، والأشاعرة).

كذلك تكلم بالتأويل والمتشابه، ورد على العلماء ورُدّ عليه، وجرت مناظرات طويلة في ذلك.

كذلك ناصر رأي إمامه «ابن حنبل» في [أن القرآن غير مخلوق] وأن من يقول غير ذلك مبتدع.

كذلك حمل بعنف على الجبرية، والقدرية، والأشاعرة، والمعتزلة في مسألة: أفعال العباد ومشيئة الله عز وجل، واهتم كثيراً بمحاولة إرجاع الناس إلى صفاء العقيدة، لذا حارب التقرب بالأولياء، ومنع الاستغاثة بغير الله، ولم يستسغ التقرب بالموتىٰ من الأنبياء والصالحين، ولكن الأمر الذي أثار ضجة شديدة هو قوله [الزيارة إلى قبر رجل صالح بعينه، أو نبي بعينه لا يجوز] وهذا أحد أسباب زجّه في السجن، وأحد أسباب الزوبعات التي أثارها الحاسدون عليه خاصة موضوع [زيارة النبي عليه الصلاة والسلام]، ومن الذين طالهم نقده الصوفيون وخاصة «ابن عربي»، و «ابن الفارض»، و «ابن عطاء الله السكندري»، وألفّ في ذلك رسالة سماها «رسالة مذهب الاتحاديين» و «الرسالة التدمرية».

٤ ـ **منهجه في الفقه**: عرف بنزعته الحنبلية وتفضيله إياه على بقية المذاهب الأربعة، ويتقيد في استنباطه بأصوله، ولكن مع ذلك يخالفه أحياناً ويمكن القول إن هناك أموراً ثلاثة جعلته فقيهاً مجتهداً وهي:

ـ أنه يقدر الأئمة الأربعة من ناحية منازلهم الفقهية أبلغ التقدير.

ـ أنه يوصي الفقيه المحقق ألا يلتزم مذهباً معيناً إذا وجد الحق في غيره.

ـ أنه يترك المذاهب كلها إذا وجد حديثاً يخالفها.

٦ ـ موقعه من الإجتهاد

يكاد علماء المذاهب الأربعة يجمعون على أن مراتب الاجتهاد خمسة وهي:

ـ المجتهد المستقل: الذي لا ينتمي إلى مذهب، ولا يتقيد بأصول خاصة لإمام آخر ويخالف غيره.

ـ المجتهد المنتسب: المجتهد في الفروع والأصول، لكنه يلتزم مذهباً ما، فيلتقي معه في الإستنباطات...

ـ المجتهد المقيد: ضمن ما يحرره، ويحكم به ويتحدث عن فروعه إمام المذهب، ولا يتجاوز أصول إمامه واستنباطه.

ـ المجتهد الحافظ: حافظ لمذهب إمامه، عارف بأدلته، يقلّ عن الذي قبله أنه قاصر في أدوات الاجتهاد.

ـ المجتهد الذي لا يقرر أدلة مذهبه، ولا يتجاوز المنقول عنها عن إمامه...

فأين يوضع الإمام ابن تيمية من هذه المراتب؟؟

أُثير جدل وما زال عن ذلك بين متعصب له وناقد له و... ووسطية الأمر ما يقوله الإمام «محمد أبو زهرة»: [إنه أعلىٰ من المراتب الثلاثة الأخيرة لأنه أكبر منها، ذلك لأنه متبحّر بالسنة، وتفسير القرآن الكريم، وعلوم السلف، كل ذلك يجعله بلا ريب في مرتبة أعلىٰ من هذه الثلاثة، بل هو يوضع مع العالمين بالأصول ذوي الاستقلال في الجملة).

وعرف عنه المخالفات للأئمة في الفقه، مثل الطلاق في حالة الحيض قال [إنه لا يقع] مؤيداً بذلك رأي الشيعة. وأيّد أن الطلاق الثلاث (بلفظ الثلاث) في مجلس واحد يقع طلقة واحدة.

وقال: بأن الحلف بالطلاق لا يقع من خلال الطلاق ويجب فيه الكفارة فقط.

وقال: بأن الزكاة لا تعطى لفاسق، وأنها تعطىٰ للأصول والفروع إن لم يكن له كسب يكفيه ويكفيهم.

وإلى غير ذلك مما تضمنته فتاويه...

٧ ـ الإمام العالم والفارس:

حينما أحاط التتار بجموعهم بأسوار «دمشق» سنة (٧٠٢) خاف الناس، واستعدت الجيوش للقاء، فتحالف العلماء والقضاة علىٰ أن عليها يلاقوا العدو، وكان دوره ـ رحمه الله ـ أن يثبت القلوب، ويعدهم بالنصر المؤزر ﴿ومن بغي عليه لينصرنه الله﴾ ثم يحلف يميناً بالله قائلاً: [إنكم لتنصروه] فيقول له بعض الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: أقولها تحقيقاً لا تعليقاً.

ثم يحمس الناس (هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا علىٰ علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق منهما بالأمر، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة) ثم يقول للناس: [إذا رأيتموني في ذلك الجانب وعلىٰ رأسي مصحف فاقتلوني].

ثم خرج في الصف الأول معلناً الجهاد، ووصل الجموع إلى مكان خارج دمشق (يقال به شقحب) وكان في شهر رمضان، وثبت الإمام ثبات الشجاع الذي لا يهاب إلا الله، وأفتىٰ للجند بالإفطار ليقووا علىٰ القتال، وروىٰ لهم قول المصطفىٰ ﷺ يوم الفتح: «إنكم ملاقو العدو، والفطر أقوىٰ لكم»، ثم يدور بين الجند ويأكل أمامهم ليتشجعوا به.

ودام الأمر كذلك أياماً حتىٰ انحسر الأمر أي انهزمت فلول التتار، فلاحقهم «ابن تيمية» والجنود. وهكذا حقق الله النصر علىٰ يد هؤلاء الواثقين بنصر الله تعالىٰ. . .

وهذه هي حالة العالم المؤمن، لا يقعد في بيته وينعزل عن الناس، لا ينظر إلى المشاكل من برج عاجي أبداً، إنما مثال المؤمن العالم المقتدي بالصحابة والنبي محمد عليه الصلاة والسلام. أن يعيش الحدث بكل حيثياته، أن يتفاعل مع ما يدور حوله، أن ينزل إلىٰ الساحة حتىٰ لو كان الأمر سيصل به إلىٰ أن يضحي بماله، أو أحد أولاده، أو بيته، أو حتىٰ نفسه، هذه الجرأة المجتمعة: بين السيف، والقلم، واللسان، جمعها الله في رجل واحد هو الإمام «ابن تيمية» رحمه الله تعالى ورضي عنه.

مصنفاته:

ـ في التفسير: قيل إنه لو جمع تفسيره لبلغ ثلاثين مجلداً، وله رسالة قيمة في منهاج التفسير.

ـ في العقائد: كثيرة جداً منها:

١ ـ كتاب الإيمان.

٢ ـ كتاب الاستقامة.

٣ ـ اقتضاء الصراط المستقيم.

٤ ـ كتاب الفرقان.

٥ ـ رسائله: الحموية، التدمرية، الواسطية، البغدادية، الكيلانية، البعلبكية، الأزهرية، والإكليل، ورسالة مراتب الإرادة، والقضاء والقدر، وبيان الهدىٰ من الضلال، ومعتقدات أهل الضلال، ومعارج الوصول، والسؤال عن العرش، الفرقة الناجية.

ـ في مناهج الاستدلال:

١ ـ كتاب نقض المنطق.

٢ ـ الرد علىٰ المنطق.

٣ ـ تنبيه الرجل العاقل علىٰ تمويه الجدل الباطل.

وله كتب أخرى متفرقة المواضيع منها:

١ ـ منهاج السنة.

٢ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

ـ في الفقه: له رسائل ضخمة في ذلك منها:

١ ـ رسالة القياس.

٢ ـ نكاح المحلل.

٣ ـ كتاب العقود.

٤ ـ رسالة الحسبة.

وله اجتهادات وفتاوى متناثرة.

وقد جُمعت بعض فتاويه فيما يسمىٰ: الفتاوى الكبرىٰ.

٩ ـ وفاتـه:

توفي ـ رحمه الله سنة سبعمائة وثمان وعشرون الموافق للعام (١٣٢٨ م)، وكانت

وفاته في سجن القلعة (قلعة دمشق)، وضجت دمشق عندما سمعت بنبأ وفاته، وشيعوه إلىٰ مكان دفنه الواقع في حي الحلبوني (مكان الجامعة السورية)، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً حيث خرج علماء دمشق وأهلها أفواجاً أفواجاً في جنازة لم تشهد دمشق قبلها جنازة بمثل عددها.

رحم الله الإمام رحمةً واسعة، وأجزل مثوبته...[1].

* * *

(١) أخذت الترجمة هذه من المراجع التالية:
١ ـ ابن تيمية: حياته، عصره: للإمام محمد أبو زهرة.
٢ ـ ابن تيمية بطل الإصلاح الديني: محمود إسلامبولي.
٣ ـ ابن تيمية: عبد العزيز المراغي.
٤ ـ قاموس الأعلام: خير الدين الزركلي.
٥ ـ مقدمة كتاب الفتاوىٰ الكبرىٰ...

الإخلاص والنية

تعريف النية:

لفظ «النيـة» في كلام العرب من جنس لفظ القصد والإرادة ونحو ذلك.

يقول العرب: نواك الله بخير، أي أرادك بخير، ويقولون: نوى منوية وهو المكان الذي ينويه يسمونه نوى، كما يقولون: قبض بمعنى مقبوض.

والنية يعبر بها عن نوع من إرادة، ويعبر بها عن نفس المراد كقول العرب: هذه نيتي، يعني هذه البقعة التي نويت إتيانها.

ويقولون: نية قريبة أو بعيدة أي: البقعة التي نوى قصدها، لكن من الناس من يقول: إنها أَخَص من الإرادة، فإن إرادة الإنسان تتعلق بعمله وعمل غيره، والنيةُ لا تكون إلا لعمله فإنك تقول: أردت من فلان كذا، ولا تقول: نويت من فلان كذا.

وقد تنـازع الناس في قوله ﷺ:
«إنما الأعمالُ بالنيّات»[1].

هل فيه إضمار أو تخصيص، أو هو على ظاهره وعمومه، فذهب طائفة من المتأخرين إلى الأول قالوا:

لأن المراد بالنيات الأعمال الشرعية التي تجب أو تستحب، والأعمال كلها لا تشترط في صحتها هذه النيات، فإن قضاء الحقوق الواجبة في الغصوب، والعواري[2]،

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والترمذي وابن ماجة.
(٢) العواري: جمع عارية: وهي شرعاً تمليك بغير عِوَض.

والودائع، والديون، تبرّأ ذمة الدافع، وإن لم يكن له في ذلك نية شرعية، بل تبرأ ذمته منها من غير فعل منه، كما لو تسلم المستحق عين ماله، أو أطارت الريح الثوب المودع أو المغصوب فأوقعته في يد صاحبه، ونحو ذلك.

ثم قال بعض هؤلاء:

تقديره إنما ثواب الأعمال المترتبة عليها بالنيات، أو إنها تُقبل بالنيات.

وقال بعضهم:

تقديره إنما الأعمال الشرعية، أو إنما صحتها، أو إنما أجزاؤها ونحو ذلك.

وقال الجمهور:

بل الحديث على ظاهره وعمومه، فإنه لم يرد بالنيات فيه الأعمال الصالحة وحدها بل أراد النية المحمودة والمذمومة، والعمل المحمود والمذموم، ولهذا قال في تمامه:

«فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله...» إلخ[1].

وقد روي أن سبب هذا الحديث:

أن رجلاً قد هاجر من مكة إلى المدينة لأجل امرأة كان يحبها تدعى مهاجر «أم قيس» فلهذا ذكر فيه أو امرأة يتزوجها، فخص المرأة بالذكر لاقتضاء الحديث ذلك. والله تعالى أعلم.

والسبب الذي خرج عليه اللفظ العام لا يجوز إخراجه منه باتفاق الناس، والهجرة في الظاهر هي: سفر من مكان إلى مكان. والسفر جنس تحته أنواع مختلفة تختلف باختلاف نية صاحبه، فقد يكون سفراً واجباً كحج أو جهاد متعين، وقد يكون محرماً كسفر العادي لقطع الطريق، والباغي على جماعة المسلمين، والعبد الآبق، والمرأة الناشز.

ولهذا تكلم الفقهاء في الفرق بين العاصي بسفره، والعاصي في سفره فقالوا:

إذا سافر سفراً مباحاً كالحج والعمرة والجهاد جاز له فيه القصر والفطر باتفاق الأئمة الأربعة، وإن عصىٰ في ذلك السفر. وأما إذا كان عاصياً بسفره كقطع الطريق وغير

---

(١) سبق تخريجه.

ذلك، فهل يجوز له الترخص برخص السفر كالفطر والقصر؟؟ ففيه نزاع: فذهب «مالك» و «الشافعي» و «أحمد» أنه لا يجوز له القصر والفطر، ومذهب «أبي حنيفة» يجوز له ذلك. وإذا كان ﷺ قد ذكر هذا السفر علم أن مقصوده ذكر جنس الأعمال مطلقاً لا نفس العمل الذي هو قربة بنفسه كالصلاة والصيام، ومقصوده ذكر جنس النية وحينئذ يتبين أن قوله:

«إنما الأعمال بالنيات»[1].

مما خصه الله به من جوامع الكلم
كما قال:
«بعثت بجوامعِ الكَلِمِ»[2].

وهذا الحديث من أجمع الكلم الجوامع التي بُعث بها، فإن كل عمل يعمله عامل من خير وشر هو بحسب ما نواه، فإنّ قصد بعمله مقصوداً حسناً كان له ذلك المقصود الحسن، وإن قصد به مقصوداً سيئاً كان له ما نواه.

ولفظ النية يجري في كلام العلماء على نوعين: فتارة يريدون بها تمييز عمل من عمل، وعبادة من عبادة، وتارة يريدون بها تمييز معبود من معبود، ومعمول له من معمول له.

فالأول كلامهم في النية: هل هي شرط في طهارة الأحداث؟ وهل تشترط التعيين والتبييت في الصيام؟؟ وإذا نوى بطهارته ما يستحب لها هل تجزيه عن الو. . أو أنها لا بد في الصلاة من نية التعيين؟ ونحو ذلك.

والثاني: كالتمييز بين إخلاص العمل لله وبين أهل الرياء والسمعة، كما سألوا النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياءً فأيّ ذلك في سبيل الله.

فقال:

«من قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العليا فهو في سبيل الله»[3].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري والنسائي.

(٣) رواه أحمد والبيهقي.

وهذا الحديث يدخل فيه سائر الأعمال، وهذه النية تميز بين من يريد الله بعمله والدار الآخرة، وبين من يريد الدنيا: مالاً، وجاهاً، ومدحاً، وثناءً، وتعظيماً، وغير ذلك. والحديث دل على هذه النية بالقصد وإن كان قد يقال: إن عمومه يتناول النوعين، فإن فرّق بين من يريد الله ورسوله، وبين من يريد دنيا أو امرأة، ففرّق بين معمول له ومعمول له، ولم يفرق بين عمل وعمل.

تعريف الإخلاص وما ورد فيه:

وقد ذكر سبحانه الإخلاص، قال تعالىٰ:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾[3].

وغير ذلك من الآيات.

وإخلاص الدين هو أصل دين الإسلام، ولذلك ذم الرياء في مثل قوله تعالىٰ:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[5].

وقال تعالىٰ:

﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾[6].

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.
(٢) سورة الزمر، الآيتان (٢ ـ ٣).
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٤.
(٤) سورة الماعون، الآيات ٤ ـ ٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

وقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾[1].

حدُّ الإخلاص كقول بعضهم: المخلصُ هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عز وجل، ولا يجب أن يطّلع الناسُ على مثاقيل الذَّرِّ[2] من عمله. وأمثال ذلك من كلامهم الحسن. لكن كلامهم يتضمن الإخلاص في سائر الأعمال، وهذا لا يقع في سائر الناس، بل لا يقع من أكثرهم، بل غالب المسلمين يخلصون لله في كثير من أعمالهم كإخلاصهم في الأعمال المشتركة بينهم، مثل صوم شهر رمضان. فغالب المسلمين يصومونه لله، وكذلك من داوم على الصلوات فإنه لا يصلي إلا لله عز وجل بخلاف من لم يحافظ، فإنما يصلي حياءً أو رياءً، أو لعلة دنيوية، ولهذا

قال ﷺ فيما رواه «الترمذي»:

«إذا رأيتُم الرجلَ يعتادُ المساجدَ فاشهدوا له بالإيمان»[3].

فإن الله تعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[4].

ومن لم يصل إلا بوضوء واغتسال فإنه لا يفعل ذلك إلا لله، ولهذا قال ﷺ:

فيما رواه «أحمد» و«ابن ماجة» من حديث «ثوبان» رضي الله عنه أنه قال:

«استقيمُوا ولَنْ تحصُوا، واعلموا أنّ خيرَ أعمالِكُم الصلاةَ، ولا يحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمن»[5].

فإن الوضوء سر بين العبد وبين الله عز وجل، وقد ينتقض وضوؤه ولا يدري به أحد، فإذا حافظ عليه لم يحافظ عليه إلا لله سبحانه، ومن كان كذلك لا يكون إلا مؤمناً،

(١) سورة النساء، الآية: ٣٨.

(٢) الذرّ في الأصل: صغار النمل. ويطلق على الأشياء الصغيرة جداً.

(٣) رواه الترمذي وأحمد والدارمي وابن ماجة وابن خزيمة والحاكم وابن حبان.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٨.

(٥) رواه أحمد وابن ماجة والحاكم والبيهقي والطبراني.

والإخلاص في النفع المتعدي أقل منه في العبادات البدنية ولهذا قال في الحديث المتفق على صحته.

«سبعةٌ يظلُّهم اللَّهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ...»[1] الحديث.

النية محلها القلب:

والنية محلها القلب باتفاق العلماء، فإن نوى بقلبه ولم يتكلم بلسانه أجزأته النية باتفاقهم، وقد خرّج بعض أصحاب «الشافعي» وجهاً من كلام «الشافعي»، فإن «الشافعي» إنما ذكر الفرق بين الصلاة والإحرام بأن الصلاة في أولها كلام، فظن بعض الغالطين أنه أراد التكلم بالنية وإنما أراد التكبير، والنية تتبع العلم، فمن علم ما يريد فعله فلا بد أن ينويه ضرورة،، كمن قدم بين يديه طعاماً ليأكله، فإذا علم أنه يريد الأكل فلا بد أن ينويه، وكذلك الركوب وغيره. بل لو كلف العباد أن يعملوا عملاً بغير نية كلفوا ما لا يطيقون، فإن كل أحد إن يعمل عملاً مشروعاً أو غير مشروع فعلمه سابق إلى قلبه، وذلك هو النية. وإذا علم الإنسان إنه يريد الطهارة والصلاة والصوم فلا بد أن ينويه إذا علمه ضرورة، وإنما يتصور عدم النية إذا لم يعلم ما يريد أن يعلَّمَ غيرَهُ الوضوء ولم يرد أن يتوضأ لنفسه، أو من لا يعْلَم أن غداً من رمضان فيصبح غير ناوٍ للصوم، وأما المسلم الذي يعلم أن غداً من رمضان وهو يريد صوم رمضان، فهذا لا بد أن ينويه ضرورة ولا يحتاج أن يتكلم به، وأكثر ما يقع عدم التبييت والتعيين في رمضان عند الاشتباه، مثل من لا يعلم أن غداً من رمضان أم لا،، فينوي صوم رمضان مطلقاً، أو يقصد تطوعاً، ثم يتبين أنه من رمضان ولو تكلم بلسانه بشيء، وفي قلبه بشيء، وفي قلبه خلافه كانت العبرة بما في قلبه، لا بما لفظ به، ولو اعتقد بقاء الوقت فنوى الصلاة أداءاً ثم تبين خروج الوقت، أو اعتقد خروجه، فنواها قضاءاً ثم تبين له بقاؤه أجزأته بالاتفاق.

ومن عرف هذا تبين له أن النية مع العلم في غاية اليسر لا تحتاج إلى وسوسة، وآصار[2]، وأغلال، ولهذا قال بعض العلماء: [الوسوسةُ إنما تحصل للعبد من جهْلٍ بالشرع، أو خَبَل في العقل].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات.
(٢) الأصار: العهود والأثقال.

أقوال العلماء في التلفظ بالنية:

وقد تنازع الناس هل يستحب التلفظ بالنية؟ فقالت طائفة من أصحاب «أبي حنيفة» و «الشافعي» و «أحمد» [يستحبُّ لتكون أبلغ].

وقالت طائفة من أصحاب «مالك» و «أحمد» [لا يستحبُّ لذلك، بل التلفظ بها بدعة] فإنه ﷺ وأصحابه والتابعين لم يُنقل عن واحد منهم أن تكلم بلفظ النية، لا في صلاة، ولا في طهارة، ولا صيام. قالوا: لأنها تحصل مع العلم بالفعل ضروبة، فالتكلم بها هَوَسٌ، وعبث، وهذيان. والنية تكون في قلب الإنسان ويعتقد أنها ليست في قلبه، فيريد تحصيلها بلسانه، وتحصيلُ الحاصل محال، فلذلك يقع كثير من الناس في أنواع من الوسواس. واتفق العلماء على أنه لا يسوغ الجهر بالنية لا لإمام، ولا لمأموم، ولا لمنفرد، ولا يستحب تكريرها، وإنما النزاع بينهم في التكلم بها سراً هل يكره أو يستحب؟

طعم العبودية والإخلاص لله:

أعظم أسباب عبودية القلب لغير الله إعراضه عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ، ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفاً من مكروه.

قال تعالى في حق يوسف عليه السلام:

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(1).

فالله يصرفُ عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرفه عن الفحشاء بإخلاصه.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج.

قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾(2).

---

(1) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(2) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله تعالى، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه.

فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع.

المشايخ الصالحون رضي الله عنهم يذكرون شيئاً من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله، بحيث لا يكونُ العبدُ ملتفتاً إلى غير الله، ولا ناظراً إلى ما سواه، لا حباً له، ولا خوفاً منه، ولا رجاءً له، بل يكون القلب فارغاً من المخلوقات، خالياً منها، لا ينظر إليها إلا بنور الله، فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي، فيحب منها ما يحبه الله، ويبغض منها ما يبغضه الله، ويوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف الله، ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها ولا يرجوها في الله، فهذا هو القلب السليم، الحنيف، الموحد، المسلم، المؤمن، العارف، المحقق، الموحد بمعرفة الأنبياء والمرسلين، وبحقيقتهم وتوحيدهم. وكلما حقق العبد الإخلاص في قول: [لا إله إلا الله] خرج من قلبه تألّه ما يهواه، وتُصرف عنه المعاصي والذنوب.

كما قال تعالىٰ:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

فعلّل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلَصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2].

وقال الشيطان:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[3].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«من قالَ لا إلهَ إلا اللّهُ مخلصاً من قلبِهِ حرَّمَهُ اللّهُ على النار»[4].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الصف، الآية: ٨٢ و ٨٣.

(٤) رواه أحمد والدارقطني والطبراني وأبو نعيم بلفظ قريب.

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين [لا إلـه إلا الله] لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأموراً في كل صلاة أن يقول:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(١).

والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله. إما خوفاً منه، وإما رجاء له، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك. وفي الحديث.

عن النبي ﷺ أنه قال:

«يقولُ الشيطان أهلكتُ الناسَ بالذنوبِ، وأهلكوني بلا إلَهَ إلا الله والاستغفارُ، فلما رأيتُ ذلكَ بثثْتُ فيهم الأهواءَ يذنبونَ ولا يستغفرون، لأنهم يحسَبُون أنّهم يُحسنونَ صُنعاً»(٢).

فصاحب الهوىٰ الذي اتبع الهوى بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار، وأما من حقّق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يُرفع عنه الشرُّ فلهذا قال «ذو النون»:

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٣).

الرياء يبطل الأعمال:

لقد ذكر الله سبحانه ما يبطل الصدقة من المنّ والأذى ومن الرياء، ومثّله بالتراب على الصفوانِ إذا أصابه المطر ولهذا

قال تعالىٰ:

﴿ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ﴾(٤).

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٢) رواه أبو يعلىٰ بلفظ قريب.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

لأن الإيمان بأحدهما لا ينفع هنا، بخلاف قوله في سورة النساء:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[1].

إلى قوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾[2].

فإنه في معرض الذم، فذكر غايته وذكر ما يقابله، وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم.

معنى التثبيت:

والتثبيت: هو التثبت.

كقوله تعالىٰ:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾[3].

وكقوله تعالىٰ:

﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾[4].

وهذا ـ والله أعلم ـ من باب قدّم وتقدّم.

كقوله تعالىٰ:

﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[5].

فتبتل بمعنى ثبت، لأن التثبت هو القوة والمكنة، وهذه الزلزلة والرجفة، فإن الصدَّقة من جنس القتال، فالجبان يرجُف والشجاع يثبت.

كقول النبي ﷺ:

«وأما الخيلاءُ التي يحبها اللَّهُ، فاختيالُ الرجل بنفسِهِ عند الحربِ، واختيالُهُ بنفسِهِ عند الصَّدقة»[6].

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٦.

(٤) سورة المزمل، الآية: ٨.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ١.

(٦) رواه أبو داود والنسائي وأحمد وابن حبان.

لأنه مقام ثبات وقوة، فالخيلاء تناسبه، وإنما الذي لا يحبه الله المختال الفخور البخيل الآمر بالبخل، فأما المختال مع العطاء أو القتال فيحبه.

وقد ذكر الله سبحانه في «البقرة» و «النساء» الأقسام الأربعة في العطاء:

- إما أن لا يعطي فهو البخيل المذموم في (النساء».

- وإما أن يعطي مع الكراهة والمنّ والأذى، وهو المذموم في (البقرة).

- أو يعطي مع الرياء فهو المذموم في (السورتين).

- والرابع: ابتغاء رضوان الله، وتثبيتاً من أنفسهم، ومثله الصلاة والهجرة والجهاد.

التقــوى

التقوى في القرآن:

يقول الله تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾(1).

ويقول تعالىٰ:

﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾(2).

ويقول تعالىٰ:

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(3).

ويقول تعالىٰ:

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾(4).

يقول تعالىٰ:

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(5).

(1) سورة الحديد، الآية: ٢٨.
(2) سورة الأعراف، الآية: ١٥٤.
(3) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.
(4) سورة فصلت، الآية: ٤٤.
(5) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

ويقول تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[1].

ويقول تعالىٰ:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

ويقول تعالىٰ:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

ويقول تعالىٰ:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ ﴾[4].

ويقول الله تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾[5].

ويقول تعالىٰ:

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[6]،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٢.
(٣) سورة القصص، الاية: ١٤.
(٤) سورة محمد، الآية: (١ ـ ٢).
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.
(٦) سورة النور، الآية: ٥٤.

التقوى تجلب الرزق:

يقول تعالىٰ:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

هنا بيّن فيها أنّ المتقي يدفع الله عنه المضرة بما يجعله له من المخرج، ويجلب له من المنفعة بما ييسره له من الرزق، والرزق اسم لكل ما يتغذىٰ به الإنسان، وذلك يعمّ رزق الدنيا ورزق الآخرة، وقد قال بعضهم:

[وما افتقر تقيٌّ قطُّ، قالوا: ولم؟ قال: الآية السابقة].

أما ما يقوله بعضهم: قد نرى من يتقي وهو محروم، ومن هو بخلاف ذلك وهو مرزوق!!!

فجوابه: أنّ الآية اقتضت أن المتقي يُرزق من حيث لا يحتسب، ولم تدل على أن غير المتقي لا يرزق، بل لا بد لكل مخلوق من الرزق. كما قال تعالىٰ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[2].

حتى إن ما يتناوله العبد من الحرام هو داخل في هذا الرزق، فالكفار يرزقون بأسباب محرمة ويرزقون حسنا، وقد لا يرزقون إلا بتكلف، واهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة ولا يكون خبيثاً.

والتقي لا يُحرم ما يحتاج من الرزق، وإنما يُحمى فضول الدنيا رحمة به وإحساناً إليه، فإن توسيع الرزق قد يكون مضرة على صاحبه، وتقديره يكون رحمة لصاحبه.

قال تعالىٰ:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا﴾[3].

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢.

(٢) سورة هود، الآية: ٦.

(٣) سورة الفجر، الآية: ١٤ ـ ١٥.

أي: ليس الأمر كذلك، فليس كل من وسع عليه رزقه يكون مكرماً، ولا كل من قُدر عليه رزقه يكون مهاناً، بل قد يوسع عليه رزقه إملاء واستدراجاً. وقد يُقدر عليه رزقه حمايةً وصيانة له، وضيقُ الرزق على عبد من أهل الدين قد يكون لما لَهُ من ذنوبٍ وخطايا كما قال بعض السلف:

[إن العبدَ ليُحرم الرزقَ بالذنبِ يصيبُه].

وفي الحديث عن النبي ﷺ:

«من أكثرَ من الاستغفارَ جعلَ اللَّهُ لَهُ من كلِّ همٍّ فرجاً، ومن كل ضيقٍ مخرجاً، ورزقَهُ من حيثُ لا يحتسبُ»(١).

كذلك أخبر اللَّهُ في كتابه أنّه يبتلي عبادَهُ بالحسنات والسيئات، فالحسنات هي النعَمُ، والسيئاتُ هي المصائبُ ليكون العبدُ صابراً شكوراً.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«والذي نفسي بيدِهِ، لا يقضي اللَّهُ للمؤمن قضاءً إلا كانَ خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إنْ أصابتْهُ سرَّاءُ شكَرَ، فكان خيراً لَهُ وإنْ أصابتْهُ ضرَّاء فصبرَ فكانَ خيراً له»(٢).

وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات، والاستغفار سبب للرزق والنعمة، وأن المعاصي سبب للمصائب والشدة فقال:

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾(٣).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾(٤).

وقد روى «أبو ذر» عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) رواه أحمد والحاكم، ورواه أبو داود وابن ماجة بلفظ قريب.
(٢) رواه مسلم وأحمد والطبراني وأبو نعيم.
(٣) سورة الجن، الآية: ١٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

«لو أخذَ الناسُ كلّهم بهذه الآية: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ ... ﴾[1] لكفتْهُمْ»[2].

وقال بعض السلف عن مخرجاً: [من كل ما ضاقَ على الناس].

وهذه الآية مطابقة لقوله:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[3].

الجامعة لعلوم الكتب الإلهية كلها. وذلك أن التقوى هي العبادة المأمور بها، فإن تقوى الله وعبادته وطاعته أسماء متقاربة متكافئة متلازمة، والتوكل عليه هو الاستعانة به، فمن يتقِ الله مثال: ﴿إياك نعبد﴾ ومن يتوكل على الله مثال ﴿إياك نستعين﴾.

كما قال تعالىٰ:

﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[4].

وقال تعالىٰ:

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾[5].

التقوى تنير الدروب:

وقالوا في قوله تعالىٰ:

﴿ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[6].

أي نوراً يفرق به بين الحق والباطل. كما قالوا بصيراً... والآية تعمّ المخرج من الضيق الظاهر والضيق الباطن.

كما في قوله تعالىٰ:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢.
(٢) رواه أحمد والحاكم وابن مردويه والبيهقي.
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٤) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٥) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

﴿ حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[1].

وتعم ذوق الأجساد، وذوق القلوب بين العلم والإيمان، كما قيل مثل ذلك في قوله تعالىٰ:

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[2].

وكما قال تعالىٰ:

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[3].

وهو القرآن والإيمان.

منافع التقوى:

يقول تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾[4].

وقال تعالىٰ:

﴿ إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[5].

فسروه بالنصر والنجاة.

كقوله تعالىٰ:

﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾[6].

وقد قيل يفرق به بين الحق والباطل ومثله.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

قوله تعالىٰ:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1].

وعد المتقين بالمخارج من الضيق وبرزق المنافع.

ومن هذا الباب.

قوله تعالىٰ:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[2].

وقوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾[3].

إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقد شاع على لسان العامة أن قوله:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[4].

من الباب الأول: حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله، وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة لأنه لم يربط الفعل الثاني بالفعل الأول ربط الجزاء بالشرط، فلم يقل: واتقَوا الله ويعلمكم، ولا قال: فيعلّمكم، وإنما أتىٰ بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، وقد يُقال العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال: زرني وأزورك، وسلّم علينا ونسلم عليك...

فكل من تعليم الرب، وتقوى العبد، يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه، فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك، ومتى اتقاه زاده من العلم وهلم جرا.

روى البخاري في صحيحه عن «ابن عباس»[5] قال:

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٥) رواه البخاري.

[كان أهل اليمن يحجّونَ ولا يتزوّدونَ يقولون: نحنُ المتوكلون! فإذا قدموا سألوا الناس!].

فقال الله تعالىٰ:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾(1).

فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى مهد يكون محتاجاً، كان مطيعاً لله في هذين الأمرين.

من ليس بمكلف من الأطفال والمجانين قد رَفع عنهم القلم، فلا يُعاقبون، وليس لهم من الإيمان بالله وتقواه ظاهراً وباطناً ما يكونون به أولياءَ الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين، لكي يدخلوا في الإسلام تبعاً لآبائهم.

كما قال تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾(2).

وأخبر سيدنا محمد ﷺ عن الله أن أولياء الله هم المتقون المؤمنون.

أولياء الله هم المتقون:

قال تعالىٰ:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾(3).

وقال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(4).

(1) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(2) سورة الطور، الآية: ٢١.
(3) سورة يونس، الآية: ٦٣.
(4) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

والتقوى: أن يعمل الرجل بطاعة الله على نور من الله، يرجو رحمة الله، وأن يترك معصية الله على نور من الله، يخاف عذاب الله، ولا يتقرب وليُّ الله إلا بأداء فرائضه، ثم بأداء نوافله.

قال تعالى في الحديث القدسي:

«وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»[(١)].

كما جاء في الحديث الصحيح الإلٓهي الذي رواه «البخاري».

وفي صحيح «البخاري» عن «ابن مسعود»[(٢)].

[إنَّ أحداً لا يزال بخيرٍ ما اتقىٰ الله، وإذا شَكَّ في تفسيرِ شيءٍ سألَ رجلاً فشفاه، وأوشك أن لا يجده والذي لا إله إلا هو].

والتقوى: هي الاحتماء عما يضر بفعل ما ينفع، فان الإحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع، وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضاً استعمالاً لضارٍّ، فلا يكون صاحبه من المتقين.

وأما ترك استعمال النافع والضارّ ـ وهذا لا يكون ـ فإن العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان متغذياً بما معه من المواد التي تصبِّرهُ حتى يهلك، ولهذا كانت العاقبة للتقوى وللمتقين، لأنهم المحتمون عما يضرهم، فعاقبتهم الإسلام والكرامة، وإن وجدوا ألماً في ابتداء متناول الدواء والاحتماء كفيل الأعمال الصالحة والمكروهة:

قال تعالىٰ:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ ﴾[(٣)].

لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء:

ـ أمر يمتثله.

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلىٰ وأبو نعيم في الطب والطبراني والبيهقي في الزهد.
(٢) رواه البخاري.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

٢ ـ نهي يجتنبه.

٣ ـ قَدَرٌ يرضى به.

فأقل حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي له أن يُلزم بها قلبَهُ، ويحدِّث بها نفسه، ويأخذ بها الجوارح في كل أحواله.

الصبر والتقوىٰ:

وهذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل واحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهي مطابقة.

لقوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(٢).

فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور.

والصبر يتضمن الصبر على المقدور.

فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله.

لأنه في الوقت الذي يؤمر فيه المسلم بفعل شيء من الفرائض كالصلوات الخمس والحج ونحو ذلك... يحتاج إلى فعل ذلك المأمور.

وفي الوقت الذي تحدث فيه أسباب المعصية يحتاج إلى الامتناع والكراهة والإمساك عن ذلك، وهذا فعلٌ لما أمر الله به في هذا الوقت.

وإن لم تخطر له المعصية ببالٍ فهذا لم يفعل شيئاً يؤجَرُ عليه، ولكن عدم ذنبه مستلزماً لسلامتِهِ من عقوبة الذنب، والعدم المحض المستمر الذي لا يؤمر به، وإنما يؤمر بأمر يقدرُ عليه العبدُ، وذلك لا يكون إلا حادثاً سواءً كان إحداث إيجاد أمر، أو إعدام أمر.

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

لكن هذه الثلاثة وإن دخلت في امتثال الأمر عند الإطلاق، فعند التفصيل والاقتران إما أن تختص بالذكر، وإما أن يقال يراد بهذا ما لا يراد بهذا كما في

قوله تعالىٰ:

﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ ﴾(1).

وقوله تعالىٰ:

﴿ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾(2).

فإن هذا داخل في العبادة إذا أطلق اسم العبادة، وعند الاقتران إما أن يقال ذكره عموماً وخصوصاً، وإما أن يقال ذكره خصوصاً يعني عدم دخوله في العام. ومثل هذا.

قوله تعالىٰ:

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾(3).

وقوله عز وجل:

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾(4).

وقد يقال: لفظ التبتل لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة.

وبالجملة: فرق بين ما يؤمر به الإنسان ابتداء، وبين ما يؤمر به عند حاجته إلى جلبه المنفعة ودفع المضرة، أو عند حب الشيء وبغضه، وكلام الشيخ «الجيلاني» يدور على أن يفعل المأمور ويترك المحظور، ويخلو فيما سواهما عن إرادة، لئلا يكون له مراد غير فَعل ما أمر الله به، وما لم يؤمر به العبد بل فعله الرب عز وجل بلا واسطة العبد، أو فعله بالعبد بلا هوى من العبد، فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به.

---

(1) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(2) سورة طه، الآية: ١٤.
(3) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(4) سورة المزمل، الآية: ٨.

ما هي الحقيقة الشرعية؟

إن ما فعله الله عز وجل يجب علينا التسليم به فيما يفعله وهذه هي الحقيقة في كلام الشيخ الجيلاني وأمثاله وتفصيل الحقيقة الشرعية في هذا المقام نوعان:

أحدهما: أن يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب سبحانه، إما بحب له وإعانة عليه، وإما ببغض له ودفع له.

ثانيهما: أن لا يكون العبد مأموراً بواحد منهما.

فالأول:

مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره، فهو مأمور بحبه وإعانته عليه، كإعانة المجاهدين في سبيل الله وإعانة سائر الفاعلين للحسنات، وبمحبة ذلك وبالرضا به.

وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير:

إما بنصر مظلوم، وإما بتعزية مصاب، وإما بإغناء فقير ونحو ذلك.

وأما ما هو مأمور ببغضه ودفعه مثل:

ما إذا أظهر الكفر والفسوق والعصيان، فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه وإنكاره بحسب الإمكان.

كما قال ﷺ في الحديث الصحيح:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١].

وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما، فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التي لم يتبين له أنه يستعان بها على طاعة ولا معصية، وهذه لا يؤمر بحبها، ولا ببغضها، وكذلك مباحات نفسه المحضة التي لم يقصد الاستعانة بها على طاعة ولا معصية.

---

(١) رواه مسلم وأحمد والنسائي وأبو داود والترمذي وابن ماجة.

والثاني:

سلوك المقربين السابقين، وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان، وترك المكروه والمحرم.

كما قال النبي ﷺ:

«إذا نهيتكُمْ عن شيءٍ فاجتنبوهُ، وإذا أمرتكُمْ بأمْرٍ فأتوا منه ما استطعتُم»(١).

وكلام الشيوخ الكبار كالشيخ «عبد القادر» وغيره يشير إلى هذا السلوك ولهذا يأمرون بما هو مستحب غير واجب، وينهون عما هو مكروه غير محرم، فإنهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة، وبالعامة مسلك العامة، وطريق الخاصة طريق المقربين، أن لا يفعل العبدُ إلا ما أُمر به، ولا يريد إلا ما أمر الله ورسوله بإرادته، وهو ما يحبه الله ويرضاه، ويريد إرادة دينية شرعية، وإلا فالحوادث كلها مردة لها خلقاً وتكويناً.

والرسل صلوات الله عليهم وسلامه بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويل الفطرة وتغييرها.

وقد قال النبي ﷺ:

«كُلُّ مولودٍ يُولدُ علىٰ الفطرةِ، فأبواهُ يهوِّدانِهِ، وينصِّرانِهِ، ويمجِّسانِهِ»(٢).

قال تعالىٰ:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

وفي الحديث الصحيح:

يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي، ورواه أبو يعلىٰ والطبراني والبيهقي في السنن بلفظ قريب.

يهودانه: يجعلانه يهودياً.

ينصرانه: يجعلانه نصرانياً.

يمجسانه: يجعلانه مجوسياً.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

«إنِّي خلقتُ عبادي حنفاءَ، فاجتالَتْهُمُ الشياطينُ، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهُمْ أن يُشرِكوا بي ما لم أُنزلْ به سُلطاناً»[1].

والحنيفية:

هي الاستقامة بإخلاص الدين لله، وذلك يتضمن حبه تعالى، والذل له، لا يُشرك به شيءٌ، لا في الحب، ولا في الذل، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل، وذلك لا يستحقه إلا الله وحده، وكذلك الخشية والتقوى لله وحده، والتوكل على الله وحده.

والرسول يُطاع ولا يعصىٰ، فالحلال ما أحله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه.

قال تعالىٰ:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[3].

وهذه حقيقة دين الإسلام، والرسل بُعثوا بذلك.

قال تعالىٰ:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[4].

وقال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[5].

---

(١) رواه مسلم والطبراني.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٩.
(٤) سورة الشورىٰ، الآية: ١٣.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٥٢.

الناس أربعة أصناف:

فلا بد على كل واحد أن يعتصم بأن يكون مريداً محباً لما أمر الله بإرادته ومحبته، كارهاً مبغضاً لما أمره الله بكراهته وبغضه. والناس في هذا أربعة أنواع:

١ ـ اكملهم الذين يحبون ما أحبه الله ورسوله، ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله، فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته، ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكراهته، وليس عندهم حب ولا بغض لغير ذلك.

وذلك مثل حديث الترمذي:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[(١)].

ثم قرأ قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[(٢)].

وقال «عمرُ بن الخطاب»:

[اقتربوا من أفواهِ المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة].

٢ ـ عكس ذلك: وهو أنهم يتبعون هواهم لا أمرَ الله، فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمرون إلا بما يحبونه بهواهم، ولا يتركون وينهون إلا عن ما يكرهونه بهواهم، وهؤلاء شر الخلق.

قال تعالىٰ:

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[(٣)].

قال «الحسن»:

[هو المنافقُ لا يهوى شيئاً إلا ركبَهُ].

---

(١) رواه الترمذي والطبراني.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٧٥.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

وقال تعالىٰ:

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾(1).

وقال «عمر بن عبد العزيز»:

[لا تكنْ ممن يتبع الحقَّ إذا وافق هواهُ، ويخالفه إذا خالفَ هواه، ألا ترى أن «أبا طالب» نصر النبي ﷺ لأجل القرابة، لا لأجل الله، فلم يُقتبل منه، وأن «أبا بكر الصديق» رضي الله عنه أعانه بنفسه وماله لله].

فقال تعالى فيه:

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾(2).

٣ ـ القسم الثالث:

الذي يريد تارة إرادة يحبها الله، وتارة إرادة يبغضها الله، وهؤلاء أكثر المسلمين، فإنهم يطيعون الله تارة، ويريدون ما أحبه. ويعصونه تارة، ويريدون ما يهوونه وإن كان يكرهه.

٤ ـ القسم الرابع:

أن يخلو عن الإرادتين فلا يريد الله ولا هـواه، وهذا يقع لكثير من الناس في بعض الأشياء، ويقع لكثير من الزهاد والنساك في كثير من الأمور.

(١) سورة القصص، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الليل، الآيات ١٧ ـ ٢١.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(*)

تعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هو الذي أنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله، وهو من الدين. ورسالة الله إما إخبار وإما إنشاء.

فالإخبار عن نفسه عز وجل وعن خلقه: مثل التوحيد والقصص الذي يندرج فيه الوعد، والوعيد. والإنشاء: الأمر، والنهي، والإباحة.

وهذا كما ذكر في الحديث أن:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾(1).

«تعدل ثُلُث القرآن...».

لتضمنها الثلث الذي هو التوحيد.

لأن القرآن الكريم توحيد، وأمر، وقصص.

وقوله سبحانه في صفة نبينا ﷺ:

﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾(2).

(*) أخذ هذا الموضوع من كتاب الإستقامة لابن تيمية: ٢/١٩٨.

(١) سورة الإخلاص، الآية: ١. والحديث رواه أحمد والنسائي وابن ماجة والبخاري ومالك وأبو داود وابن الضريس والطبراني.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

هو لبيان كمال رسالته: فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف، ونهى عن كل منكر، وأحلّ كل طيب، وحرم كل خبيث. ولهذا روي عنه ﷺ أنه قال:

«إنما بُعثتُ لأتممَ مَكارمَ الأخلاقِ»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه:

«إنما مَثلي ومَثلُ الأنبياءِ كمثلِ رجلٍ بنى داراً فأتمها، وأكملها إلا موضع لبنةٍ، فكانَ الناس يطيفون بها، ويعجبون من حُسْنِها، ويقولون: لولا موضعُ اللبنةِ، فأنا تلكَ اللَبنةُ»(٢).

فبه أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر، وإحلال كل طيب، وتحريم كل خبيث.

مهمة الأنبياء كلهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وأما من كان قبله من الرسل فقد كان يُحرم على أممهم بعض الطيبات.

كما قال الله تعالىٰ:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾(٣).

وربما لم يحرم عليهم جميعَ الخبائث كما قال الله تعالىٰ:

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾(٤).

وتحريم الخبائث يندرج في معنى النهي عن المنكر، كما أن إحلال الطيبات يندرج في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن تحريم الطيبات هو مما نهى الله عنه.

وكذلك الأمر بجميع المعروف، والنهي عن كل منكر، مما لم يتم إلا للرسول الذي تممّ اللّهُ به مكارم الأخلاق المندرجة في المعرفة.

---

(١) رواه أحمد والبيهقي والحاكم والبخاري في الأدب.
(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٣.

وقد قال الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1].

فقد أكمل الله لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً.

وكذلك وصف الله الأمة بما وصف به نبيها، حيث قال:

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[3].

ولهذا قال «أبو هريرة» رضي الله عنه:

[كنتم خير الناسِ للناس، تأتونَ لهمْ في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة][4].

دور الأمة الإسلامية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فبيّن الله سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس، فهُم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم؛ لأنهم كمّلوا أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقدر، حيث أمروا بكل معروف، ونهوا عن كل منكر لكل أحد، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وهذا كمال النفع للخلق.

وسائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف، ولا نهوا أحداً عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك، بل منهُمْ من لم يُجاهدوا، والذين جاهدوا كبني إسرائيل، فغاية جهادهم كان لدفع عدوهم مِنْ أرضهم، كما يقاتل الصائل[5] الظالمَ. لا لدعوة المجاهدين إلىٰ الهدى والخير، ولا لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما قال موسى لقومه:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٤) أخرج هذا الأثر البخاري وابن كثير.

(٥) الصائل: الذي يثب ويسطو مع القدرة والقهر.

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾[1].

إلى قوله:

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[2].

وكما قال تعالىٰ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾[3].

فعللوا القتال بأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، ومع هذا فكانوا ناكلين عما أمروا به من ذلك، ولهذا لم تحلّ الغنائم لهم.

ولم يكونوا يطؤون بملِك اليمين، ومعلوم أن أعظم الأمم المؤمنين قبلنا هم بنو إسرائيل، كما جاء في الحديث المتفق على صحته في الصحيحين عن «ابن عباس» رضي الله عنهما، قال: خرج علينا النبي ﷺ فقال:

«عُرِضت عليّ البارحةَ الأنبياءُ بأممهم، فجعلَ يمرُّ النبيُّ وَمَعَهُ الرجلُ، والنبيُّ معه الرجلانِ، والنبيُّ مَعَهُ الرَّهَطُ، والنبيُّ ليسَ معه أحدٌ، ورأيت سواداً كثيراً سد الأفقَ.

وفي رواية: فإذا الطرقُ ممتلئة بالرجالِ فرجوتُ أن تكونَ أُمَّتي.

فقلت: هذه أمتي؟؟ فقيل: هذا موسىٰ في بني إسرائيل، ولكنه انظر هكذا وهكذا.

فرأيت سواداً كثيراً قد سَدَّ الأُفُقَ، فقيل: هؤلاءِ أُمَّتكَ، ومع هؤلاءِ سبعون ألفاً يدخلونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ».

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

فتفرّق الناس ولم يتبين لهم، فتذاكر أصحابُ النبي ﷺ: فقالوا: أما نحن فوُلدنا في الشرك، ولكنّا آمنا بالله ورسولِه، ولكن هؤلاء أبناؤنا، فبلغ النبي ﷺ فقال:

«هم الذين لا يكتوونَ، ولا يسترقُونَ، ولا يتطيَّرونَ، وعلى ربهم يتوكلون».

فقام «عكاشة بن محصن»، فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: نعم، فقام آخر، فقال: أمنهم أنا؟ قال: سبقك بها عكاشة»[1].

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة. لأن الله تعالى قد أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر، فلو اتفقوا عن إباحة محرم، أو إسقاط واجب، أو تحريم حلال، أو إخبار عن الله أو خلقه بباطل، لكانوا متّصفين بالأمر بمنكر، والنهي عن معروف.

والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح، بل الآية تقتضي أن ما لم تأمر به الأمة فليس من المعروف، وما لم تنهَ عنه فليس من المنكر.

وإذا كانت آمرةً بكلِّ معروفٍ، ناهيةً عن كل منكر، فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر، أو تنهى كلها عن معروف؟!

على من يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟؟:

والله سبحانه وتعالىٰ كما أخبر أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقد أوجب ذلك على الكفاية بقوله:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

وإذا أخبر بوقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها، لم يكن من شرط ذلك أن يصل أمر الآمرِ ونهي الناهي منها إلى كل مكلَّف في العالم، إذ ليس هذا من شرط

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد.
يكتوون: يستعملون الكي للشفاء.
يسترقون: يستعملون الرقىٰ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

تبليغ الرسالة، فكيف يشترط فيما هو من توابعها؟؟ بل الشرط أن يتمكنَ المكلَّفون من وصول ذلك إليهم، ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم، مع قيام فاعِلِهِ بما يجبُ عليه، كان التفريطُ منهم لامنه.

وكذلك وجوبُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يجب على كل أحد بعينه، بل هو على الكفاية، كما دلّ عليه القرآن. ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضاً كذلك، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثمَ كلُّ قادر بحسب قدرته، إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته، كما قال النبي ﷺ:

«من رأىْ منكُمْ منكراً فليغيِّرهُ بيدِهِ، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِهِ، فإنْ لم يستطعْ فبقلبه، وذلكَ أضعفُ الإيمان»[١].

وإذا كان كذلك، فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد، وهو من أعظم المعروف الذي أمرنا به، ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله، ويجب على أولي الأمر ـ وهم علماء كل طائفةٍ وأمراؤها ومشايخها ـ أن يقوموا على عاتقهم، ويأمروهم بالمعروفد وينهوهم عن المنكر، فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله: مثل شرائع الإسلام؛ وهي الصلوات الخمس في مواقيتها، وكذلك الصدقات المشروعة، والصوم المشروع، وحج البيت الحرام، ومثل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، ومثل الإحسان: وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ومثل ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة، ومثل إخلاص الدين لله، والتوكل على الله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، والرجاء والرحمة لله، والخشية من عذابه، والصبر لحكم الله، والتسليم لأمر الله و. . . ومثل صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانات إلى أهلها، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والتعاون على البر والتقوى، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والصاحب، والزوجة، والمملوك، والعدل في المقال والفعال، ثم الندبُ[٢] إلى مكارم الأخلاق، مثل أن تصل من قطعكَ، وتعطيَ من حرمك، وتعفوَ عمّن ظلمك، ومن الأمر بالمعروف كذلك الأمر بالائتلافِ والاجتماع، والنهي عن الاختلاف والفرقة وغير ذلك.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد.

(٢) الندبُ: الدعوة.

بعض المنكرات التي نهى الله ورسوله عنها:

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله:

فأعظمه الشرك بالله، وهو أن يدعو مع الله إلهاً آخر، كالشمس، والقمر، والكوكب، أو كملك من الملائكة، أو نبي من الأنبياء، أو رجل من الصالحين، أو أحد من الجن، أو تماثيل هؤلاء، أو قبورهم، أو غير ذلك مما يُدعى من دون الله تعالىٰ، أو يُستغاث به، أو يُسجد له، فكل هذا أو أشباهه من الشرك الذي حرمه الله: كقتل النفس بغير الحقِّ، وأكل أموال الناس بالباطل: بالغصب أو بالربا أو الميسر، والبيوع والمعاملات التي نهى عنها رسول الله ﷺ وكذلك قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وتطفيف المكيال والميزان، والإثم والبغي، وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ وغير ذلك.

طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والرفق سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ولهذا قيل: [ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر].

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات، فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بُعثت الرسلُ، وأُنزلت الكتبُ، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صالح.

وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم الفساد والمفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم يكن مما أمر الله به.

وإن كان ترك واجب وفعل محرم، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله، وليس عليه هداهم، نهذا معنى قوله تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾(١).

والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضالّ، وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد.

فأما القلب فيجب بكل حال: إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قال النبي ﷺ:

«وذلك أضعفُ (أو أدنىٰ) الإيمانِ».

وقال:

«ليسَ وراءَ ذلكَ مِنَ الإيمانِ حبةَ خَرْدَلٍ»[1].

التحذير من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قيل «لابن مسعود» رضي الله عنه: مَنْ ميت الأحياء؟؟

فقال: [الذي لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً].

وهذا هو المفتون الموصوف (بأن قلبه كالكوز مُجّخياً)[2] في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في الصحيحين:

«تُعرض الفتنةُ على القلوب عَرْض الحصير...»[3] الحديث.

وهنا يغلط فريقان من الناس:

١ ـ فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلاً لهذه الآية، كما قال «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه في خطبته:

[أيها الناسُ إنكم تقرأون هذه الآية:

﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾][4].

وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعتُ النبي ﷺ يقول:

«إن الناسَ إذا رأوا المنكرَ فلمْ يغيّروه أوشكَ أن يعمّهم اللَّهُ بعقاب منه»][5].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الكوز: إناء من فخار له عروة. ومجخياً: مائلاً نحو الإستقامة والإعتدال.

(٣) رواه مسلم وأحمد. وتتمته «عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء».

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

(٥) رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد.

٢ ـ فريق يريد أن يأمر وينهىٰ، إما بلسانه أو بيده مطلقاً من غير فقه، ولا حكم، ولا خبر، ولا نظر في ما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر عليه، كما في حديث «أبي ثعلبة الخشني».

سألت عنها ـ الآية ـ رسول الله ﷺ قال:

«بل ائتمروا بالمعروفِ، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شحّاً مُطاعاً، وهوىً متّبعاً، ودنيا مُؤثِرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، ورأيت أمراً لا يُدان لك به فعليك بنفسك، ودعْ عنك أمرَ العوام، فإن من ورائك أيامَ الصبرِ، والصبرُ فيهنّ مثلُ قبض على الجمر، للعامل فيهنّ كأجر خمسين رجلاً يعملون مثلَ عمله»[(١)].

فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع في ذلك لله ورسوله وهو معتدٍ في حدوده، كما نصّب كثير من أهل الأهواء والبدع نفسه للأمر والنهي، كالخوارج، والمعتزلة، والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد وغير ذلك، فكان فسادهُ أعظم من صلاحه، ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال في لك:

«أدّوا إليهم حُقوقَهم، وسلوا اللَّهَ حقوقَكُمْ»[(٢)].

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة: لزوم الجماعة، وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة، وأما أهل الأهواء كالمعتزلة فيرون القتال للأئمة من أحوال دينهم.

وكل ذلك يدخل في القاعدة: [فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد].

وإذا تعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي ـ وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة ـ فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد.

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقلّ أن تُعْوِزَ النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام.

متى يُترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟:

وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما بل إما أن يفعلوهما جميعاً أو يتركوهما جميعاً لم يَجُز أن يُؤمروا بالمعروف ولا أن ينهوا عن المنكر.

بل يُنظر، فإن كان المعروف أكثر أُمِرَ به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم يُنه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذٍ من باب الصدّ عن سبيل الله والسعي في زوال فعل الحسنات.

وإن كان المنكر أغلب نُهي عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر، وسعياً في معصية الله ورسوله.

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما، ولم يُنهَ عنهما، فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي، حيث كان المنكر والمعروف متلازمين، وذلك في الأمور المعينة الواقعة.

وأما من جهة النوع، فيؤمر بالمعروف مطلقاً، ويُنهىٰ عن المنكر مطلقاً، وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة:

يؤمر بمعروفها ويُنهى عن منكرها، ويُحمد محمودها، ويذم مذمومها، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه، أو حصول منكر فوقه. ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه، أو فوات معروف أرجح منه.

وإذا اشتبه الأمر استثبت المؤمن حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونيّة، وإذا تركها كان عاصياً.

فترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نُهي عنه من الأمر معصية. هذا باب واسع ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن هذا الباب إقرار النبي ﷺ «لعبد الله بن أُبيّ» وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من الأعوان.

فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكبر من ذلك بغضب قومه وحميّتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمداً يقتل أصحابه، لهذا لما خطب الناس في «قصة الإفك» بما خاطبهم به واعتذر منه، وقال له «سعد بن معاذ» قوله الذي أحسن فيه، حمي له «سعد بن عبادة» مع حسن إيمانه، وصدقه، وتعصبه كل منهم لقبيلته حتى كادت تكون فتنة.

وجوب الإخلاص عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وأصل هذا أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه للمنكر، وإرادته لهذا، وكراهته لهذا موافقاً لحب الله وبغضه، وإرادته وكراهته الشرعيتين، وأن يكون فعله للمحبوب ودفعه للمكروه بحسب قوته وقدرته، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وقد قال:

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾(١).

فإما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان. وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته. ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامّـة، وفعل العبد معها بحسب قدرته، فإنه يُعطى ثواب الفاعل الكامل.

وإن من الناس من يكون حبُّه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبته نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله، وبغض الله ورسوله، وهذا من نوع الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه كما قال الله تعالىٰ:

﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾(٢).

فإن أصل الهوىٰ هو محبة النفس ويتبع ذلك بغضها.

والهوىٰ نفسه ـ وهو الحب والبغض الذي في النفس ـ لا يُلام العبد عليه، فإن ذلك لا يملكه وإنما يُلام على اتباعه كما قال تعالىٰ:

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٠.

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(١).

وكما في قوله تعالىٰ:

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾(٢).

وقال النبي ﷺ:

«ثلاثٌ منجياتٌ: خشيةُ اللّهِ في السرِّ والعلانية، والقصدُ في الفقرِ والغنىٰ، وكلمةُ الحقِّ في الغضب والرضا.

وثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌّ مطاعٌ، وهوىٰ متبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسه»(٣).

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغض، ووجود إرادة وغير ذلك، فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله، فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلٰهه هواه. واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات، فإن الأول حالُ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين كما قال تعالىٰ:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤).

وقال الله تعالىٰ:

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ ﴾(٥).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴾(٦).

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٠.
(٣) رواه الطبراني في الأوسط.
(٤) سورة القصص، الآية: ٤٩.
(٥) سورة الروم، الآية: ٢٩.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.

وقال تعالىٰ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾(1).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(2).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾(3).

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعباد يُجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدىٰ الله الذي بعث به رسول الله ﷺ. لذلك

قال تعالىٰ:

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(4).

فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه، ومقدار حبه وبغضه، هل هو موافق لأمر الله ورسوله، وهو هدي الله الذي أنزل على رسوله ﷺ بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض لا يكون متقدماً فيه بين يدي الله ورسوله؟؟

فإنه قد قال تعالىٰ:

﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾(5).

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه من التقدم بين يدي الله ورسوله.

---

(1) سورة المائدة، الآية: ٧٧.
(2) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.
(3) سورة المائدة، الآية: ٤٩.
(4) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.
(5) سورة الحجرات، الآية: ١.

ومجرد الحب والبغض هو هوى، لكن المحرم من اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله، ولهذا قال الله لنبيه داود:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾(١).

الصواب والإخلاص يثمر القبول:

فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله، وهو هواه الذي بعث به رسوله وهو السبيل إليه، وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها وقد قال تعالىٰ:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾(٢).

وهو كما قال «الفضيلُ» رحمه الله:

[أخلصه وأصوبه، فإنّ العملَ إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً وصواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنّة].

فالعمل الصالح لا بد أن يراد به وجه الله تعالى، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه. وحدَّه كما في الحديث الصحيح قوله ﷺ:

«يقول الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشِّرْكِ، مَنْ عمل عملاً أشركَ فيه غيري، فأنا منه بريءٌ وهوكلُّهُ للذي أشركَ»(٣).

وهذا هو التوحيد الذي هو أصل الإسلام، وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله وله خلق الخلق وهو حقه على عباده:

أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ولا بد مع ذلك أن يكون العمل صالحاً، وهو ما أمر الله ورسوله، وهو الطاعة، فكل طاعة عمل صالح، وكل عمل صالح طاعة، وهو العمل المشروع المسنون.

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الملك، الآية: ٢.
(٣) رواه ابن ماجة وأحمد.

إذ المشروع المسنون هو المأمور به أمر إيجاب أو استحباب، وهو العمل الصالح، وهو الحسن، وهو البرّ، وهو الخير، وضدُّه المعصية، والعمل الفاسد، والسيئة، والفجور، والشر، والظلم، والبغي.

والعمل لا بد فيه من شيئين: النية والحركة، كما قال النبي ﷺ: **أصدَقُ الأسماءِ حارِثٌ وهمّامٌ**»[1].

فكل أحد حارث وهمام، له عمل ونية، لكن النية المحمودة التي يتقبلها الله ويثيب عليها: هي أن يراد الله وحده بذلك العمل. والعمل المحمود هو الصالح، وهو المأمور به. ولهذا كان «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه يقول في دعائه:

[اللهمّ اجعلْ عملي كلَّهُ صالحاً، واجعلْهُ لوجهك خالصاً، ولا تجعلْ لأحد فيه شيئاً].

وإذا كان هذا حدَّ كل عمل صالح، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون كذلك، هذا في حق الآمر الناهي بنفسه.

شروط القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ولا يكون عمله صالحاً إن لم يعلم وفقه، كما قال: «عمر بن عبد العزيز».

[من عبدَ الله بغيرِ علمٍ كان ما يفسد أكثرَ مما يصلح].

وكما في حديث «معاذ بن جبل» رضي الله عنه:

[العلمُ إمامُ العمل، والعملُ تابعُهُ].

وهذا ظاهر، فإن القصد والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلاً وضلالاً واتباعاً للهوى، وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام.

ولا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولا بد من العلم بحال المأمور وحال المنهي، ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي على الصراط المستقيم، وهو أقرب

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي.
شرح الحديث: الحارث: الكاسب، والاحتراث: الاكتساب.
وإنما كان همام أصدق: همام: فعال الأسماء لأن الإنسان ككاسب وهمام بالطبع، ولا يكاد يخلو من كسب وهم.

الطرق إلى حصول المقصود. ولا بد من الرفق في ذلك كما قال النبي ﷺ:

«ما كان الرفقُ في شيءٍ إلا زانَهُ، ولا كانَ العنفُ في شيءٍ إلاّ شَانَهُ»[1].

وفي قوله:

«إنّ اللَّهَ رفيقٌ يحبُّ الرفق في الأمرِ كلِّهِ»[2].

وفي قوله:

«إنّ اللَّهَ رفيقٌ يحبُّ الرفقَ، ويُعطي عليه ما لا يعطي على العُنفِ»[3].

ولا بد أن يكون حليماً صبوراً على الأذى، فلا بد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، كما قال لقمان لابنه:

﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[4].

ولهذا أمر الله الرسل، وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر، كقوله لخاتم الأنبياء عليهم السلام مقروناً بالتبليغ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾[5].

ومنها قوله تعالىٰ:

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[6].

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾[7].

---

(١) رواه أبو داود وأحمد.
(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد.
(٣) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة والدارمي وأحمد.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٧.
(٥) سورة المدثر، الآيات: ١ ـ ٧.
(٦) سورة الطور، الآية: ٤٨.
(٧) سورة المزمل، الآية: ١٠.

وقوله تعالىٰ:

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1].

وقوله تعالىٰ:

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾[2].

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

ولا بد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر.

العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعدهُ.

وإن كان كل من الثلاثة لا بد أن يكون مستصحباً في هذه الأحوال، وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ـ ورووه مرفوعاً ـ ذكر القاضي «أبو يعلى» في (المعتمد):

[لا يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر إلا من كانَ فقيهاً في ما يأمرُ به، فقيهاً في ما ينهي عنه، رفيقاً فقيهاً يأمر به، رفيقاً في ما ينهي عنه، حليماً في ما يأمر به، حليماً في ما ينهىٰ عنه].

وليُعلم أن من اشترط هذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يوجب صعوبته على كثير من النفوس، فيظن بذلك يسقط عنه فيدعه، وذلك قد يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل، فإن ترك الواجب معصية، وفعل ما نهىٰ عنه في الأمر معصية، فالمنتقل من معصية إلى معصية كالمستجير من الرمضاء[4] بالنار.

والمنتقل من دين باطل إلى دينْ باطل قد يكون الثاني شراً من الأول، وقد يكون دونه، وقد يكونان سواء.

فهكذا تجد المقصر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمعتدي فيه قد يكون ذنب هذا أعظم، وقد يكون ذنب ذاك أعظم، وقد يكونان سواء.

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(2) سورة القلم، الآية: ٤٨.
(3) سورة هود، الآية: ١١٥.
(4) الرمضاء: شدة الحر، أو الأرض الشديدة الحرارة.

أقسام الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والناس هنا ثلاثة أقسام:

١ ـ قوم لا يقومون إلا في إهداء نفوسهم، فلا يرضون إلا بما يُعطونه، ولا يغضبون إلا لما يحرمونه، فإذا أعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال أو الحرام زال غضبه، وحصل رضاه، وصار الأمر الذي كان عنده منكراً ينهى عنه، ويعاقب عليه، ويذم صاحبه، ويغضب عليه، مرضياً عنه، وصار فاعلاً له وشريكاً فيه، ومعـاوناً عليه، ومعادياً لمن ينهى عنه وينكر عليه.

وهذا غالب في بني آدم، يرى الإنسان ويسمع من ذلك ما لا يحصيه إلا الله، وسببه أن الإنسان كان ظلوماً جهولاً.

فلذلك لا يعدل، بل ربما كان ظالماً في الحالين. يرى قوماً ينكرون على المتوليّ ظلمه لرعيته واعتداءه عليهم، فيرضى أولئك المنكرون ببعض الشيء من منصب أو مال، فينقلبوا أعواناً، وأحسن حالهم يسكتوا عن الإنكار عليه. وكذلك تراهم ينكرون على من يشرب الخمر، ويزني، ويسمع الملاهي حتى يدخلوا معهم في ذلك أو يرضوه ببعض ذلك، فتراه حينئذٍ قد صار عوناً لهم. وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التي كانوا عليها، وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره.

٢ ـ وقوم يقومون ديانة صحيحة: يكونون في ذلك مخلصين لله؟ مصلحين فيما عملوه، ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أوذوا. فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله.

٣ ـ وقد يجتمع فيهم هذا وهذا، وهم غالب المؤمنين ممّن فيه دين وله شهوة، يجتمع في قلوبهم إرادة الطاعة وإرادة المعصية، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة.

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل: الأنفس ثلاث:

أمّارة، ومطمئنة، ولوّامة.

فالأولون هم: أهل الأنفس الأمارة تأمرهم بالسوء.

والأوسطون: أهل النفوس المطمئنة التي قال الله فيها:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[1].

والآخرون: أهل النفوس اللوامة التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه، وتتلوم تارة كذا، أو تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وهؤلاء يُرجىٰ أو يتوب عليهم إذا اعترفوا بذنوبهم كما قال تعالىٰ:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[2].

ولهذا لما كان الناس في زمن «أبي بكر» و «عمر» رضي الله عنهما اللذين أُمر المسلمون بالاقتداء بهما كما قال النبي ﷺ:

«اقتدُوا باللَّذيْن مِنْ بعدي: أبي بكرٍ وعُمرَ»[3].

أقرب عهداً بالرسالة، وأعظم إيماناً وصلاحاً، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت في الطمأنينة، لم تقع فتنة، إذ كانوا في حكم القسم الأوسط... ولما كان في آخر خلافة «عثمان» و «علي» رضي الله عنهما كثر القسم الثالث، فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين، وصار ذلك في بعض الولاة وبعض الرعايا، ثم كثر ذلك بعد، فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفين، واختلاطها بنوع من الهوى والعصبية في الطرفين، وكل منهما متأول أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن منه الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرىٰ.

فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله ويتوكل عليه في أن يقوّم قلبه ولا يزيغه، ويثبته على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى كما قال الله تعالىٰ:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ ﴾[4].

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٧ ـ ٣٠.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٣) رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٥.

وهذه أيضاً حال الأمة فيما تفرقت فيه واختلفت في المقالات والعبادات.

تعرض المرء للفتنة عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة، صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة، كما قال تعالى عن المنافقين:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾[1].

وقد ذُكر في التفسير أنها نزلت في «الجدّ بن قيس» لما أمره النبي ﷺ بالتجهيز لغزو الروم، وأظن أن رسول الله ﷺ قال له: هل لك في نساء بني الأصفر؟

قال: يا رسول الله إني لا أصبرُ على النساء، وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر، فائذن لي ولا تفتني[2].

وهنا إعراض «الجدّ» هذا، والذي تخلف عن «بيعة الرضوان» تحت الشجرة، واستتر أحمر عن الجهاد الواجب ونكوله عنه، وضعف إيمانه، ومرض قلبه اللّذين زيّنا له ترك الجهاد، وفتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابها؟؟؟

والله تعالى يقول:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[3].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا يكون فتنة، فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه، ومرض فؤاده، وتركه ما أمر به من الجهاد. فتدبر هذا، فإن هذا مقام خطر، والناس فيه على قسمين:

١ ـ قسم يأمرون، وينهون، ويقاتلون طلباً لإزالة الفتنة ـ كما زعموا ـ ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة، كالمقتتلين في الفتنة الواقعة بين الأمة (مثل الخوارج).

٢ ـ وأقوام ينكلون عن الأمر، والنهي، والقتال الذي يكون به الدين كله لله،

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(٢) انظر تفسير ابن كثير للآية والدر المنثور: ٣/٢٤٨.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

وتكون كلمة الله هي العليا لئلا يفتنوا وهم قد سقطوا في الفتنة.

وهذه الفتنة المذكورة في سورة «براءة» دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة، فإنها سبب نزول الآية، وهذه حال كثير من المتدينة: يتركون ما يجب عليهم من أمر، ونهي، وجهاد، ويكون به الدين لله، وتكون به كلمة الله هي العليا لئلا يفتنوا به بحبس الشهوات، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فرّوا منه.

وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب من أمر، ونهي، وترك محظور، والاستعانة بالله على الأمرين. ولو فرض أن فعل الواجب وترك المحظور وهما متلازمان، وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا علي فعلها جميعاً، أو تركها جميعاً، مثل كثير من يحبُّ الرسالة، أو الماد، أو شهوات الغيّ، فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر، ونهي، وجهاد، وإمارة ونحو ذلك، فلا بد أن يفعل معها شيئاً من المحظورات. فالواجب عليه أن ينظر أغلب الأمرين، فإن كان المأمور أعظم أجراً لم يفوّتْ ذلك برجاء ثواب فعل واجب، ويكون دون ذلك، فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات فهذا هذا.

وكل بشر على وجه الأرض لا بد له من أمر ونهي، ولا بد أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها إما بمعروف وإما بمنكر، كما قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[1].

فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته.

ولا بد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بها فعل غيره إذا أمكن ذلك، فإن الإنسان حيّ يتحرك بإرادته...

وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر، وتناهٍ عن أمر. ولهذا كان أقل الجماعة في الصلاة اثنين: كما قيل:

[الاثنانُ فوقَهما جماعةٌ].

لكن لما كان ذلك اشتراكاً في مجرد الصلاة حصل باثنين أحدهما: إمام، والآخر

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

مأموم، كما قال النبي ﷺ «لمالك بن الحويرث» وصاحبه.

«إذا حَضَرتِ الصلاةُ فأذّنا، وأقيما، وليؤمَّكُما أكبرُكُما»[1].

وكانا متقاربين في القراءة.

كذلك في الأمور العادية يقول الرسول ﷺ:

«لا يحلُّ لثلاثةٍ يكونون في سَفَرٍ إلا أمرّوا عليهم أحدَهُم»[2].

وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، وينهِ عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، ويُؤمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، وإلا فلا بد من أن يأمر وينهى، ويؤمر ويُنهىٰ، إما بما يضاد ذلك، وإما بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله، وإذا اتخذ ذلك كان ديناً مبتدعاً.

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد والدارمي.

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه أحمد وأبو داود والحاكم.

الحيـــاء

الحياء مشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه فيه حياً، فيه حياء يمنعه من القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي قد تفسد القلب.

ولهذا قال ﷺ:

«الحياءُ من الإيمان»[1].

وقال أيضاً:

«الحياءُ والعيُّ شُعبتان من الإيمان، والبذاءُ والبيانُ شعبتانِ من النفاق»[2].

فإن الحي يدفع ما يؤذيه، بخلاف الميت الذي لا حياة فيه، فإنه يسمىٰ وقحاً، والوقاحة: الصلابة.

وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإن كان وقحاً يابساً صلب الوجه، لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه وامتناعه من القبح، كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام، بخلاف الأرض الخضراء.

ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح، وله إرادة تمنعه عن فعل ذلك القبح، بخلاف الوقح الذي لا حياء فيه، ولا إيمان يزجره عن ذلك.

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

العيُّ: العجزعن الشيء بعد محاولة تحصيله.

والبذاء: الفحش في المنطق، والبيان: التعمق في النطق والتفاصح، وإظهار التقدم فيه على الناس، وكأنه نوع من العجب والكبر.

فالقلب إذا كان حياً ومات الإنسان بفراق روحه بدنه، كان موت النفس فراقها للبدن، ليست هي نفسها ميتة بمعنىٰ زوال حياتها عنها.

فلهذا قال تعالىٰ:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾(١).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾(٢).

مع أنهم موتىٰ داخلون في قوله تعالىٰ:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾(٣).

وفي قوله:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾(٤).

وفي قوله تعالىٰ:

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾(٥).

فالموت المثبت غير الموت المنفي.

المثبت: هو فراق الروح البدن.

والمنفي: زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن.

وهذا كما أن النوم أخو الموت فيسمىٰ وفاة، ويسمىٰ موتاً، وإن كانت الحياة موجودة فيهما.

قال تعالىٰ:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الحج، الآية: ٦٦.

﴿ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾[1].

وكان ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول:

«الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[2].

وفي حديث آخر:

«الحمدُ للَّهِ الذي ردَّ عليَّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذنَ لي بذكره، وفضّلني على كثيرٍ ممن خَلَقَ تفضيلاً»[3].

وإذا أوىٰ إلى فراشه يقول:

«اللهمَّ أنت خلقتَ نفسي، وأنتَ تتوفّاها، لكَ مماتُها ومحياها، إنْ أمسكت نفسي فارْحمها، وإنّ أرسَلْتَها فاحْفَظها بما تحفظُ به عبادك الصالحين»[4].

ويقول:

«باسمكَ اللهم أموتُ وأحيا»[5].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي والنسائي وابن السنيّ.

(٤) رواه مسلم.

(٥) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد.

تزكية النفس

تعريف التزكية والآيات الواردة فيها:

زكاة القلب بحيث ينمو ويكمل.

قال تعالىٰ:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾(1).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾(2).

وقال:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾(3).

وقال تعالىٰ:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾(4).

وقال تعالىٰ:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(5).

---

(1) سورة النور، الآية: ٢١.
(2) سورة النور، الآية: ٢٨.
(3) سورة النور، الآية: ٣٠.
(4) سورة الأعلىٰ، الآية: ١٤.
(5) سورة الشمس، الآية: ٩.

وقال تعالىٰ:

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[2].

فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير، فإنما تحصل بإزالة الشيء فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا.

وقال تعالىٰ:

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[3].

وهي التوحيد والإيمان الذي يزكو به القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة لا إله إلا الله، وهذا أصل ما يزكو به القلب.

والتزكية جعل الشيء زكياً إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر. كما يقال عدلته: أي جعلته عدلاً في نفسه أو في اعتقاد الناس.

قال تعالىٰ:

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾[4].

أي تخبروا بزكاتها. وهذا غير

قوله:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[5].

ولهذا قال:

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[6].

---

(١) سورة عبس، الآية: ٣.
(٢) سورة النازعات، الآية: ١٨.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٧.
(٤) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٥) سورة الشمس، الآية: ٩.
(٦) سورة النجم، الآية: ٣٢.

وكان اسم «زينب» بَرّه فقيل: تزكي نفسها، فسماها رسول الله ﷺ «زينب».

وأما قوله:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾[1].

أي يجعله زاكياً، ويخبر بزكاته، كما يزكي المزكي الشهود فيخبر بعدلهم قال: «ابن أبي مليكة»[2]:

[أدركت ثلاثين من أصحابِ محمد ﷺ كلهم يخافُ النفاقَ على نفسه].

وعن «علي» ـ أو «حذيفة» ـ رضي الله عنهما قال:

[القلوب أربعة: قلبٌ أجردُ فيه سراجٌ يزهر فذلك قلبُ المؤمن، وقلب أغلف وذلك قلب الكافر، وقلبٌ منكوسٌ فذلك قلب المنافق، وقلب فيه مادتان: مادة تمدُّه بالإيمان، ومادة تمده بالنفاق، فأولئك الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً].

وإذا عُرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكره الله في الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر، وهذا كما يقول بعضهم في

قوله:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[3].

فأي فائدة في طلب الهدى؟ ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى، كما يقول العرب للنائم: نم حتى آتيك، أو يقول بعضهم: ألزم قلوبنا الهدى.

إن صلاح حال الإنسان في العدل كما إن فساده في الظلم، وإن الله سبحانه وتعالى عدله وسواه لما خلقه، وصحة جسمه وعافيته من اعتدال أخلاطه وأعضائه، ومرضُ ذلك الانحراف والميل.

وكذلك استقامة القلب، واعتدالهُ، واقتصادهُ، وصحتهُ، وعافيتهُ، وصلاحهُ متلازمة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٩.

(٢) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، أحد القضاة، ومن رجال الحديث المشهورين. ت (١١٧ هـ).

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

مرض القلوب وشفاؤها:

قد ذكر تعالىٰ «مرض القلوب وشفاءها» في مواضع كثيرة وجاء ذلك في سنة رسول الله ﷺ:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾(1).

وقال تعالىٰ:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾(2).

وقال:

﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾(3).

وقال تعالىٰ:

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾(4).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(5).

وقال تعالىٰ:

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾(6).

وقال تعالىٰ:

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾(7).

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(2) سورة المائدة، الآية: ٥٢.
(3) سورة التوبة، الآية: ١٤.
(4) سورة يونس، الآية: ٥٧.
(5) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(6) سورة فصلت، الآية: ٤٤.
(7) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

وقال:

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2].

وقال النبي ﷺ:

«هلاّ سألوا إذا لم يعلموا، فإن شفَاءَ العيِّ السؤال»[3].

وما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها، وحياتها، وسمعها، وبصرها، وعقلها، وصممها، وبكمها، وعماها.

ولكن المقصود معرفة مرض القلوب، فنقول: المرض نوعان:

فساد الحس، وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية: وكل منهما يحصل بفقده ألم وعذاب، فكما أن مع صحة الحس والحركة الإرادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة، فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب، ولهذا كانت النعمة من النعيم، وهو ما ينعم به الله على عباده مما يكون فيه لذة ونعيم وقال تعالىٰ:

﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[4].

أي عن شكره، فسبب اللذة إحساس الملائم، وسبب الألم إحساس المنافي، ليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك، وإنما هو نتيجتُهُ وثمرتهُ وغايته، ولذة القلب وألمه أعظمُ من لذة الجسم وألمه، أعني ألمه ولذته النفسيتان ـ وإن كان قد يحصل فيه من الألم من جنس ما يحصل في سائر البدن بسبب مرض الجسم فذلك شيءٌ آخر.

فلذلك كان مرض القلب وشفاؤه أعظم من مرض الجسم وشفائه فتارة يكون من

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.
(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والدارمي والدارقطني.
(٤) سورة التكاثر، الآية: ٨.

جملة الشبهات كما قال تعالىٰ:

﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[1].

وكما صنف «الخرائطي»: «كتاب اعتلال القلوب بالأهواء».

ففي قلوب المنافقين المرض من هذا الوجه، ومن هذا الوجه من جهة فساد الاعتقادات وفساد الإرادات.

والمظلوم في قلبه: وهو الألم الحاصل بسبب ظلم الغير له، فإذا استوفىٰ حقه اشتفى قلبه.

كما قال تعالىٰ:

﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾[2].

فإذا اندفع عنه الأذى وزال استوفى حقه وزال الغيظ.

فكما أن الإنسان إذا صار لا يسمع ولا ينطق كان ذلك مرضاً مؤلماً لما يفوته من المصالح ويحصل له من المضار، فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر قلبه الحق من الباطل، كان ذلك أعظم الأمراض.

وكما أن الضرير إذا أبصر وجود الراحة والعافية والسرور أمراً عظيماً، فبصر القلب ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصيه إلا الله.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[3].

وقال تعالىٰ:

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[4].

كما يكون الجسد خارجاً عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهيه الجسم بلا قول الطبيب، ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن يعلم ويريد ما ينفعه ويصلح له.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٤.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الروم، الآية: ٢٩.

فكذلك بنو آدم هم جهال ظلموا أنفسهم، يستعجل أحدهم ما ترغبه نفسه ولذته ويترك ما تكره نفسه مما هو لا يصلح له فيعقبهم ذلك من الألم والعقوبات، إما في الدنيا وإما في الآخرة ما فيه عظيم العذاب والهلاك الأعظم.

تفسير الفناء الوارد في كلام الصوفية:

تفسير الفناء الوارد في كلام الصوفية:

الأمر الأول: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه، وعبادته، وما يتبع ذلك فهو حق صحيح، وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو في الحقيقة عبادة القلب، وتوكله، واستعانته، وتألهه، وإنابته، وتوجهه إلى الله وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد خروج عن هذا، وهذا هو القلب السليم الذي قال الله فيه:

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1].

وهو سلامة القلب من الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك. وهذا الفناء لا ينافيه البقاء بل يجتمع هو والبقاء.

فيكون العبد فانياً عن إرادة ما سواه، وإن كان شاعراً بالله بالسوى، وترجمته قول [لا إله إلا الله، ولا نعبدُ إلا إياه، له النعمةُ، وله الفضلُ، وله الثناء الحسن]، وهذا في الجملة وهو أول الدين وآخره.

الأمر الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذلك فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهادة، ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا الفناءُ فيه نقص.

الأمر الثالث: فناء عن وجود السوى: بمعنى أنه يرى الله هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه لا به ولا بغيره، وهذا القول للاتحادية الزنادقة[2] من المتأخرين كـ «البلياني» و «التلمساني» و «القونوني» ونحوهم الذي يجعلون الحقيقة أنه عند الموجودات وحقيقة الكائنات، وأنه لا وجود لغيره، لا بمعنى قيام الأشياء به ووجود حسابه.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

(٢) الزنادقة: مفردها زنديق: وهي كلمة معربة عن الفارسية أطلقها الفرس قديماً على الخارج، عن دين الدولة ببدع معينة، ثم اتسع معناها فشمل الدهريين والملحدين وسائر أصحاب المعتقدات الضالة.

كما قال النبي ﷺ:

«أصدق كلمةٍ قالها الشاعرُ لبيد[1]: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلُ»[2].

وكما قيل: [كل شيء هالك إلا وجهه] فإنهم لو أرادوا ذلك لكان ذلك هو الشهود الصحيح لكنهم يريدون أنه هو عين الموجودات، فهذا كفر وضلال ربما تمسك به أصحابه بألفاظ متشابهة توجد في كلام بعض المشايخ، كما تمسك النصارى بألفاظ عن المسيح.. ويرجعون إلى وجدٍ فاسد، أو قياس فاسد. فتدبر هذا التقسيم فإن فيه بيان الصراط المستقيم.

قال الشيخ «عبد القادر» قدس الله روحه:

[أفن عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله، فحينئذٍ يصلُحُ أن تكونَ وعاءً لعلم الله].

قلت: فحكمة يتناول خلقه وأمره، أي: افنُ عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله، والتوكل عليه، فلا تطعهم في معصية الله، ولا تتعلق بهم في جلب منفعة، ولا دفع مضرّة، وأما الفناء عن الهوى بالأمر وعن الإرادة بالفعل: بأن يكون فعلهُ موافقاً للأمر الشرعي لا لهواه، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله لا لإرادة نفسه. فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات، فالأول: يكون بالأمر، والثاني: لا تكون له إرادة، ولا بدّ في هذا أن يقيد: بأن لا تكون إرادة لم يؤمر بها، وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئاً فليرد ما أمر بإرادته، سواء كان موافقاً للقدر أم لا، وهذا الموضوع قد يغلط فيه طائفة من السالكين، والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعنى، وهم ليس لهم إرادة نفسانية، فتركوا إرادتهم لغير المقدور.

قال الشيخ: فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم، وعن التردد إليهم، واليأس مما في أيديهم، وهو كما قال.

فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم، وهذا

---

(١) لبيد بن ربيعة العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف أدرك الإسلام والجاهلية.

(٢) رواه ابن ماجة والبيهقي.

يشبه بما يكون مأموراً به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر الله به، ونهيهم عما نهاهم الله عنه، كذهاب الرسل وأتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله.

قال الشيخ:

[وعلامة فنائِكَ عنك وعن هواك: ترك التكسُّب والتعلق بالسبب في جلب النفع ودفع الضر، فلا تتحرك فيك بك، ولا تعتمد عليك لك، ولا تنصر نفسك، ولا تذبّ عنك، لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولاً فيتولاه آخراً، كما كان ذلك موكَّلاً إليه في حال كونك مغيَّباً في الرحم، وكونك رضيعاً طفلاً في مهدك][1].

قلت: وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها، ودفع ما تبغضه ويضرها، فإذا فني عن ذلك بالأمر فعلَ ما يحبُّه الله، وترك ما يبغضه الله، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه، وبترك ما يبغضه الله عما يبغضه، وحينئذٍ فالنفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فيكون في ذلك متوكلاً على الله.

الهداية من الله سبحانه:

قال تعالىٰ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[2].

لكن الخطاب في الآية لجميع المسلمين، كالخطاب بآية الوضوء والخطاب لأهل البيت بقوله:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾[3].

ولهذا يهدد من لم يطعه، وكما في الصيام.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[4].

فهذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا، لا إرادة الخلق المستلزمة للمراد، لأنه لو كان كذلك لم تكن الآية خطاباً إلا لمن أخذ باليسر، ولمن فعل ما أمر به، وكان

---

(١) المهد: السرير.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

مَنْ تخلّف عن ذلك لا يدخل تحت الأمر والنهي الذي في الآية، وليس كذلك، بل الحكم الشرعي لازم لجميع المسلمين، فمن أطاع أُثيب، ومن عصا عوقب، والذين أطاعوه إنما أطاعوه بهداه لهم، هدى الإلهام والإعانة بأن جعلهم مهتدين، كما أنه هو الذي جعل المصلي مصلياً والمسلم مسلماً، ولو كانت الإرادة هنا من الإنسان مستلزمة لوقوع المراد لم يقل:

﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾[1].

فإنه حينئذٍ لا تأثير لإرادة هؤلاء، بل وجودُها وعدمُها سواء، كما في قول نوح:

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾[2].

فـإن شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، والمقصود بالآية تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات. والمعنى: إني أريد لكم الخير الذي ينفعكم وهؤلاء يريدون لكم الشر الذي يضركم، كالشيطان الذي يريد أن يغويكم واتباعه هم أهل الشهوات، فلا تتخذوه وذريته أولياءَ من دوني، بل اسلكوا طريق الهدى والرشاد، وإياكم وطرق الغي والفساد.

كما قال تعالىٰ:

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[3].

وقوله تعالىٰ:

﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾[4].

في الموضعين، فاتباع الشهوات من جنس اتباع الهوى.

قال تعالىٰ:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[5].

---

(١) سورة النساء، الاية: ٢٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٣٤.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ٢٧.
(٥) سورة القصص، الآية: ٥٠.

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾[3].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

وهذا في القرآن كثير.

للهوى أمر ونهي:

ويكون للهوى أمر ونهي وهو أمر النفس كما قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة، فأحدهما مستلزم للآخر، فاتباع الأمر هو فعل المأمور واتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه. فعلى هذا يعلم أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه.

بل قد يُقال: هذا هو الذي يتعين في لفظ اتباع الشهوات والأهواء، لأن الذي يشتهي ويهوى إنما يصير موجوداً بعد أن يشتهي ويهوى، وإنما يذم الإنسان إذا فعل ما يشتهي ويهوى عند وجوده، فهو حينئذٍ قد فعل ولا ينهى عنه بعد وجوده، ولا يقال لصاحبه: لا تتبع هواك، وأيضاً فالمراد (أي الفعل المراد) المشتهي الذي يهواه الإنسان هو تابع لشهوته وهواه، فليس الشهوة والهوى تابعة لها، فاتباع الشهوات هو اتباع شهوة

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٧.
(٣) سورة محمد، الآية: ١٤.
(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٨.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

النفس، وإذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهي كان مع مخالفة الأصل يحتاج إلى أن يجعل في الخارج ما يشتهي، والإنسان يتبعه كالمرأة المطلوبة أو الطعام المطلوب.

وإن سميت المرأة شهوة، والطعام كما في قوله ﷺ:

«كلّ عملِ ابنِ آدمَ له إلا الصيام فإنهُ لي، وأنا أجزي به. يَدَعُ طعامَهُ وشرابَهُ وشهوته من أجلي»[1].

أي يترك شهوته، وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام، لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في نفسه، فإنه تلك مخلوقة فيها مجبول عليها، وإنما يثاب إذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة.

وحقيقة الأمر: أنهما متلازمان، فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه، وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه، فإن ذلك من آثار الإرادة. واتباعُ الإرادة: هو امتثال أمرها، وفعل ما تطلبه، كالمأمور الذي يتبع أميره، ولا بد أن يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه في نفسه ويتخيله قبل فعله، فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان، وفعله في الظاهر تَبَعٌ لاتباع الباطن، فتبقى صورة المراد المطلوب المشتهى التي في النفس هي المحركة للإنسان الآمرة له.

قال ﷺ:

«ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌ مطاع، وهوى متّبَعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه، وثلاثٌ منجيات: خشيةُ اللّهِ في السرِّ والعلانيةِ، والقصدُ في الفقرِ والغنى، وكلمةُ الحق في الغضب والرضا»[2].

كيف تتزكى النفس:

«في تزكية النفس» وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات.

قال تعالىٰ:

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[3].

---

(١) رواه مسلم والنسائي وأحمد وابن حبان والترمذي وعبد الرزاق.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) سورة الشمس، الآية: ٩.

وقال تعالىٰ:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[1].

قال «قتادة» و «ابن عيينة» وغيرهما:

[قد أفلح من زكى نفسَهُ بطاعة الله وصالح الأعمال].

وقال «الفراء»، و «الزَّجّاج».

[قد أفلحت نفسٌ زكاها اللَّهُ، وقد خابَتْ نفسٌ دسَّاها اللَّهُ].

وكذلك ذكره «الوالبي» عن «ابن عباس» وهو منقطع. وليس هو مراد من الآية بل المراد بها الأول قطعاً لفظاً ومعنىً.

أما اللفظ فقوله: من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد على (من) فإذا قيل: قد أفلح الشخص الذي زكاها كان ضمير الشخص من (زكاها) يعود على (من)، هذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته، كما يقال:

قد أفلح من اتقى، وقد أفلح من أطاع ربه.

وأما إذا كان المعنى قد أفلح من زكاهُ الله، لم يبقَ في الجملة ضمير يعود على (من)، فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو (من)، وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة، فلا يعود على (من) لا ضمير الفاعل ولا المفعول، فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز.

نعم! لو قيل: قد أفلح من زكى الله نفسه، أو من زكاها الله له، ونحن ذلك صح الكلام، وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب، وهو لم يقل: قد أفلحت نفس زكاها، فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس، لا صلة، بل قال:

﴿قد أفلح من زكاها﴾ فالجملة صلة لـ (من).

لقد ذكر الله التزكية فقال:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا ﴾[2] الآية.....

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٤.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٠.

وقال تعالىٰ:

﴿ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾[3].

وأصل «الزكاة» الزيادة في الخير، ومنه يقال: زكا الزرع وزكا المال: إذا نما، ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، والزرع لا يزكو حتى يزال عنها ما يناقضها، ولا يكون الرجل متزكياً إلا مع ترك الشر، فإنه يدنس النفس ويدسيها، قال «الزجاج»: [دساها] جعلها ذليلة حقيرة خسيسة، وقال «الفراء»: (دساها) لأن البخيل يخفي نفسه ومنزله وماله.

يقول «ابن قتيبة» [أي أخفاها بالفجور والمعصية] فالفاجر دسّىٰ نفسه: أي قمعها، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربىٰ لتشهر أنفسها، واللئام تنزل الأطراف والوديان.

والله عز وجل يقول:

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا ﴾[4] الآية.

فبيّن أن الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال تعالىٰ:

﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾[5] الآية.

وذلك أن ترك السيئات هو من أعمال النفس، فإنها تعلم أن السيئات مذمومة ومكروه فعلها، ويجاهد نفسه إذا دعته إليها إن كان مصدقاً لكتاب ربه مؤمناً بما جاء عن نبيه ﷺ، ولهذا التصديق، والإيمان، والكراهة، وجهاد النفس، أعمال تعملها النفس

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٧.
(٣) سورة عبس، الآية: ٧.
(٤) سورة النور، الآية: ٢١.
(٥) سورة النور، الآية: ٣٠.

المزكاة، فتزكو بذلك أيضاً، بخلاف ما إذا عملت السيئات، فإنها تتدنس وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل.

والثواب إنما يكون على عمل موجود، وكذلك العقاب، فأما العدم المحض فلا ثواب فيه ولا عقاب، لكن فيه عدم الثواب والعقاب، والله سبحانه وتعالىٰ أمر بالخير ونهى عن الشر، واتفق الناس على أن المطلوب بالأمر فعل موجود، واختلفوا في النهي؛ هل المطلوب أمر وجودي أم عدمي؟ فقيل: وجود وهو الترك.

وهذا قول الأكثر، وقيل: المطلوب عدم الشر هو أن لا يفعله.

والتحقيق: أن المؤمن إذا نهى عن المنكر فلا بدّ أن لا يقربه، ويعزم على تركه، ويكره فعله، وهذا أمر وجودي بلا ريب، إن المؤمن الذي يعلم أنه وجودي، لكن قد لا يكون مريداً له كما يكره أكل الميتة طبعاً.

ومع ذلك فلا بد له من اعتقاد التحريم، والعزمِ على تركه لطاعة الشارع، وهذا قدر زائد على كراهة الطبع، وهو أمر وجود يثاب عليهَ، ولكن ليس كثواب من كفّ نفسه وجاهدها عن طلب المحرم، ومن كانت كَراهته للمحرمات إيمان، وقد غمَر إيمانُه حكمَ طبعه وهذا أعلى الأقسام الثلاثة، وهذا صاحب النفس المطمئنة، وهو أرفع من صاحب اللوامة التي تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه وتتلوم وتتردد هلى تفعله أم لا؟!

وأما من لم يخطر بباله أن الله حرمه ولا هو مريد له، بل لم يفعله، فهذا لا يعاقب ولا يثاب إذا لم يحصل منه أمر وجودي يثاب عليه أو يعاقب، فمن قال: المطلوب أن لا يفعل، إن أراد: أن هذا المطلوب يكفي في عدم العقاب فقد صدق، وإن أراد أنه يثاب على هذا العدم فليس كذلك. والكافر إذا لم يؤمن بالله ورسوله فلا بدّ لنفسه من أعمال يشتغل بها عن الإيمان، وتركُ الأعمال كفر يعاقب عليه. ولهذا لما ذكر الله عقوبة الكفار في النار ذكر أموراً وجودية، وتلك تدسّي النفس، ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس، وكان الشرك أعظم ما يدسيها. وتتزكى بالإعمال الصالحة والصدقة، هذا كله مما ذكره السلف قالوا: في ﴿قد أفلح من تزكى﴾ تطهر من الشرك. ومن المعصية بالتوبة. وعن «أبي سعيد» و «عطاء» و «قتادة»:

[صدقة الفطر].

ولم يريدوا أن الآية لم تتناول إلا هي بل مقصودهم:

[أن من أعطى صدقة الفطر، وصلّى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها] ولهذا كان: «يزيد بن حبيب» كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة ويتصدق بها قبل الصلاة ولو لم يجد إلا بصلاً. قال «الحسن»:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[1] من كان عمله زاكياً.

وقال: «أبو الأحوص»: زكاة الأمور كلها، وقال: «الزَّجّاج»:

تزكى بطاعة الله عز وجل، ومعنى الزاكي: النامي الكثير.

المشركون لا يزكون أعمالهم:

وكذلك قالوا في قوله:

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[2].

قال «ابن عباس»:

[لا يشهدون أن لا إله إلا الله].

وقال «مجاهد»:

[لا يزكون أعمالهم: أي ليست زاكية، وقيل: لا يطهرونها بالإخلاص]. كأنه أراد ـ والله أعلم ـ أهل الريا فإنه شرك.

وعن «الحسن»:

[لا يؤمنون بالزكاة ولا يقرّون بها].

وعن «الضحاك»:

[لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة].

وعن «ابن السائب»:

[لا يعطون زكاة أموالهم].

قال: كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون.

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٧.

والتحقيق:

أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة كقوله تعالىٰ:

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾[1].

وقوله تعالىٰ:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[2].

والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها فإن قيل (يؤتي) فعل متعدٍّ، قيل: هذا كقوله تعالىٰ:

﴿ ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا ﴾[3].

وتقدم قبلها أن الرسول دعاهم وهو طلبا منه، فكان هذا اللفظ متضمناً قيام الحجة عليهم بالرسل، والرسل إنما يدعونهم لما تزكو به أنفسهم ولما يليق أن الزكاة تستلزم الطهارة لأن معناها معنى الطهارة.

قوله تعالىٰ:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾[4].

في الشر: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ بالخير.

قال ﷺ:

«اللهمّ طهرني بالماء والبَرَد والثّلج»[5].

كان يدعو به في الاستفتاح وفي الاعتدال من الركوع والغسل.

فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها. و «البَرَدُ» يعطي قوة وصلابة وما يسر

---

(١) سورة النازعات، الآية: ١٨.
(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٤.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٤.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(٥) رواه البخاري ومسلم.

يوصف بالبرد، وقرة العين، لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها، وما يسرها يوجب فرحها وسرورها، وذلك مما يبرد الباطن فسأل النبي ﷺ: أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد، يكون فيه من الفرح والسرور الذي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب.

وقوله ﷺ:

«بالثلج والبرد والماء البارد».

تمثيل بما فيه من هذا الجنس، وإلا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك كما يقال: أذقنا برد عفوك، وحلاوة مغفرتك، ولما قضى «أبو قتادة» دين المدين قال ﷺ:

«الآن بردت جلدَتُهُ»[1].

ويقال: بردُ اليقين وحرارة الشك، ويقال: هذا الأمر يثلج له الصدر، إن كان حقاً يعرفه القلب ويفرح به حتى يصير في مثل برد الثلج.

ومرض النفس: إما شبهة، وإما شهوة، أو غضب، والثلاثة توجب السخونة، ويقال لمن نال مطلوبه: برد قلبه، فإن الطالب فيه حرارة الطلب.

عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها:

وقوله تعالىٰ:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[2].

دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة، فإنه قال بعد قوله:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ ﴾[3] الآية.

فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية ولهذا قال في سياق قوله:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ ﴾[4] الآيات.

---

(١) رواه أحمد والحاكم والدارقطني.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٠.

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[١] الآية.

فأمرهم جميعاً بالتوبة في سياق ما ذكره لأنه لا يسلم أحد من هذا الجنس كما في الصحيح:

«إنّ الله كتبَ على ابن آدم حظَّه من الزنا»[٢] الحديث.

وكذلك في الصحيح:

إن قوله:

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[٣].

نزلت بسبب رجل نال من امرأة كلَّ شيءٍ إلا الجماعَ، ثم ندمَ فنزلت[٤].

ويحتاج المسلم في ذلك إلى أن يخاف الله، وينهىٰ النفس عن الهوى، ونفسُ الهوى والشهوة لا يُعاقب عليه، بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان بنيته لله وعملاً صالحاً، وثبت عنه أنه قال:

«المجاهدُ من جاهَدَ نفسَهُ في ذاتِ الله»[٥].

أي بجهادها، كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها، وهو إلى جهاد نفسه أحوج، فإن هذا فرض عين، وذاك فرض كفاية، والصبر في هذا من أفضل الأعمال، فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد، فمن صبر على ذلك الجهاد كما قال ﷺ:

«والمهاجرُ من هَجَرَ السيئات»[٦].

ثم هذا لا يكون محموداً فيه إلا إذا غلب، بخلاف الأول فإنه إذاً:

﴿ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٧].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٤) رواه مسلم والنسائي والترمذي وأبو داود وأحمد وابن حبان.
(٥) رواه الترمذي وابن حبان والديلمي والعسكري في الأمثال.
(٦) رواه ابن حبان والحاكم والطبراني، ورواه أحمد والنسائي وأبو يعلىٰ بلفظ قريب.
(٧) سورة النساء، الآية: ٧٤.

ولهذا قال ﷺ:

«ليسَ الشديدُ بالصرعة...»[1].

وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهىٰ النفس عن الهوى وأن يخاف مقام ربه، فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد، فإذا غلب كان لضعف إيمانه، فيكون مفرطاً بترك المأمور. بخلاف العدو والكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى، فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به، ومع امتثال المأمور لا تفعل المحظور، فإنهما ضدان

قال تعالىٰ:

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[2] الآية.

وقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[3].

فعباد الله المخلصون لا يغويهم الشيطان، والغيُّ خلاف الرشاد: وهو اتباع الهوى. فمن مالت نفسه إلى محرم فليأتِ الله كما أمر مخلصاً له الدين، فإن ذلك يصرفُ عنه السوء والفحشاء خشية ومحبة، والعبادة له وحده وهذا يمنع من السيئات.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.

الكرم والجود

الكرم لفظ جامع للمحامد والمحاسن:

يقول تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾[1].

سمى ووصف نفسه بالكرم، وبأنه الأكرم، يعني إخباره أنّه خلق ليتبيّن أنه ينعم على المخلوقين، ويوصلهم إلى الغايات المحمودة.

كما قال أيضاً:

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[2].

وكما قال موسى عليه السلام:

﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[3].

وكما قال الخليل عليه السلام:

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴾[4].

فالخلق يتضمن الابتداء، والكرم يتضمن الانتهاء.

---

(١) سورة العلق، الآية: ٣ ـ ٥.
(٢) سورة الأعلى، الآية: ٢ ـ ٣.
(٣) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٧٨.

كما قال في أم القرآن:

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

ثم قال:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾(٢).

ولفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه، فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن، والكرم كثرة الخير وسيرته ولهذا.

قال النبي ﷺ:

«لا تسمّوا العنبَ الكرمَ، فإنما الكرمُ قلبُ المؤمن»(٣).

وهم سموا العنب «الكرم» لأنه أنفع الفواكه، يؤكل رطباً ويابساً ويعصر، فيتخذ منه أنواع، وهو أعمّ وجوداً من النخل يوجد في عامة البلاد، والنخل لا يكون إلاّ في البلاد الحارة ولهذا قال تعالىٰ في رزق الإنسان:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾(٤).

فقدم العنب وكذلك قال الله تعالىٰ في وصفه الجنّة:

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴾(٥).

وبالتالي فالشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم كما في قوله تعالىٰ:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾(٦).

قال «ابن قتيبة»:

[من كل جنس حسن].

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ١.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد، ورواه الطبراني وأبو نعيم بلفظ قريب.
(٤) سورة عبس، الآيات: ٢٣ ـ ٣٢.
(٥) سورة النبأ، الآية: ٣١ ـ ٣٢.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٧.

وقال «الزجاج»:

[الزوج: النوع، والكريم: المحمود].

وقال غيرهما (من كل زوج): صنف وحزب، (كريم): حسن، ويُقال (نخلة كريمة): إذا طاب حملها، وناقة كريمة: إذا كَثُر لبنِها. والقرآن دلّ على أن الناس فيهم كريم يكرمه، وفيه من يهينه.

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[١].

وقال النبي ﷺ ولمعاذ بن جبل:

«إياكم وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٢].

وكرائم أموالهم: التي تكرم على أصحابها لحاجتهم إليها وانتفاعهم بها من الأنعام وغيرها. وهو سبحانه أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل والتعريف لها، فدلّ على أنه الأكرم وحده بخلاف ما لو قال: (وربك أكرم) فإنه لا يدلّ على الحصر، وقوله: الأكرم يدلّ على الحصر، ولم يقل (الأكرم من كذا) بل أطلق الاسم ليبيّن أنه الأكرم مطلقاً غير مقيد، فدلّ على أنه يتصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص فيه. قال «ابن عطية».

[ثم قال تعالىٰ له:

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾[٣].

على جهة التأنيس كأنه يقول: امض لما قرأت به، وربُّك ليس كهذه الأرباب، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص، فهو ينصرك ويظهرك].

(قلت): وقد قال بعض السلف:

[لا يهديّن أحدُكم لله ما يستحي أن يهديَه لكريمه، فإنّ اللّهَ أكرمُ الكرماء].

أي هوَ أحق من كلّ شيء بالإكرام إذا كان أكرم من كل شيء، وهو سبحانه ذو

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٨.
(٢) لفظ (وإياكم كرائم أموالهم) لم نجده، وتتمة الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو يعلىٰ.
(٣) سورة العلق، الآية: ٣.

الجلال والإكرام، فهو المستحق لأن يجلّ ولأن يكرم، والإجلال يتضمن التعظيم، والإكرام يتضمن الحمد والمحبة، وهذا كما قيل في صفة المؤمن: إنه رزق حلاوة ومهابة.

وفي حديث «هند بن أبي هالة» في صفة النبي ﷺ:

«من رآه بديهةً هابَهُ، ومن خالَطَه معرفةً أحبّه»[١].

الشح المطاع والهوى المتبع:

مما يتعلق بالثلاث المهلكات والمنجيات التي ذكر أنه عند المهلكات عليك بخصوصية نفسك أنه قال:

«شحٌّ مطاعٌ، وهوىً متبعٌ»[٢].

فجعل هذا مطاعاً، وهذا متبعاً.

وهذا ـ والله أعلم ـ لأن الهوىٰ هوىٰ النفس، وهو محبتها للشيء، وشهوتها له، سواءً أريد به المصدر أو المفعول، فصاحب الهوىٰ يأمر هواه ويدعوه، فيتبعه كما تتبع حركات الجوارح إرادة القلب.

ولهذا قال تعالىٰ:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾[٣].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[٤].

وهذا يعم الهوىٰ في الدين كالنصارىٰ، وأهل البدع في المقال والقدر، وَلَوْكَانَ بِهِمْ السلف يسمونهم أهل الأهواء من الرافضة والخوارج، وهذا الهوىٰ موجود في كثير من الفقراء والفقهاء إلا من عصمة الله.

---

(١) م نجد اللفظ برواية هند بن أبي هالة، وإنما وجدناه عن علي بن أبي طالب. وقد رواه الترمذي في السنن وفي الشمائل.

(٢) جزء من حديث رواه الطبراني.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٧.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٠.

وقد اختلف أصحابنا هل يدخل الفقهاء المختلفون في اسم أهل الأهواء؟؟ على وجهين أدخلهم في التقسم القاضي «أبو يعلىٰ» وكذلك قبله الشيخ «أبو حامد الاسفراييني» فيما أظن، وأنكره ابن عقيل».

أما الشح المطاع فقد ذكرنا أنّ مفسدته عائدة إلىٰ منع الخير، وهذا في الأصل ليس محبوباً، وإنما يحمل عليه الحرص على المشحوح به، فإنه من باب النفرة والبغض، فإن الإنسان يطيع الطبيب والأمير وغيرهما في أمور خاصة، وليس متبعاً لهم، أما التابع لغيره فهو مطيع وزيادة، فإنه يذهب معه حيثما ذهب.

وفرق ثانٍ: هو أن المتبع الذي يُطلب في نفسه، فغاية المتبع إدراكه ونيله، وهذا شأن الهوى.

أما المطاع فغاية لغيره، وهذا شأن الشح.

وتحقيق معنىٰ الشح: أي شدة المنع التي تقوم في النفس، كما يقال: شحيح بدينه، وضنيٌّ بدينه، فهو خُلُق في النفس، والبخل من فروعه.

كما في الصحيحين عن «أبي هريرة» رضي الله عنه أنه قال:

(إياكم والشحَّ، فإن الشح أهلكَ من كان قبلكم، أمرَهُم بالبُخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا)[1].

وكذلك في حديث «عبد الرحمن بن عوف» أنه كان يقول في طوافه:

[ربِّ قني شحَّ نفسي].

فقيل له: ما أكثر ما تستعيذ من ذلك، فقال:

[إذا وُقيت شحَّ نفسي وَقيت الظلم، والبخل، والقطيعة].

أو كما قال:

ولهذا بين الكتاب والسنة أن الشح والحسد من جنس واحد في قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد وابن جرير.

﴿... خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[1].

فأخبر عنهم بأنهم يبذلون ما عندهم من الخير مع الحاجة، وأنهم لا يكرهون ما أنعم به على إخوانهم.

وضد الأول: البخل.

وضد الثاني: الحسد.

ولقد كان البخل والحسد من نوع واحد، فإن الحاسد يكره عطاء غيره، والبخيل لا يحب عطاء نفسه.

ثم قال تعالىٰ:

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[2].

فإن الشح أصل للبخل، وأصل للحسد، وهو ضيق النفس وعدم إرادتها وكراهتها للخير على الغير، فيتولد عن ذلك امتناعه من النفع وهو البخل، إضرار المنعم عليه وهو الظلم، وإن كان في الأقارب كان قطيعة.

ولهذا جاء في حديث «أبي هريرة» الذي رواه «النسائي» من حديث «محمد بن عجلان» عن «سهيل بن أبي صالح» عن أبيه عن «أبي هريرة»: قال رسول الله ﷺ:

«لا يجتمعُ في النار مسلمٌ قتلَ كافراً ثم سدَّدَ وقاربَ، ولا يجتمعان في جوفِ مؤمن غبارٌ في سبيل الله، وفيحُ جهنم، ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمانُ والحسد»[3].

ورواه النسائي أيضاً من حديث جماعة عن «سهيل» عن «صفوان بن أبي يزيد» عن القعقاع بن اللجلاج» عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ:

«لا يجتمعُ غبارٌ في سبيل اللّهِ ودخانُ جهنم في جوف عبدٍ أبداً، ولا يجتمع الشحُّ والإيمانُ في قلب عبدٍ أبداً»[4].

---

(١) و (٢) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٣) رواه النسائي وأحمد والحاكم.
(٤) رواه النسائي وأبو داود والحاكم.

فانظر كيف ذكر الشح في الروايات المشهورة، وفي الأخرى الحسد، واللفظ الأول أجمع، وكيف قرن في الحديث السماحة والشجاعة، كما قال في الحديث الآخر:

«شرٌّ ما في المرء شحٌّ هالع، وجبنٌ خالع»[1].

فمدح الشجاعة في سبيل الله، وذم الشح.

ونظير هذا قوله ﷺ:

«إن من الخيلاء ما يحبُّها اللَّهُ، وهو اختيال الرجل بنفسه عند الحرب، وعند الصدقة»[2].

وقصد في الحديث قوله تعالىٰ:

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

فحصر المفلحين فيمن يوقَ شُحَّ نفسه، والشحيح: الذي لا يحب فعل الخير، والذي يضر نفسَهُ، ويكره النعمة على غيره.

---

(١) رواه أبو داود وأحمد.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٩.

التوبة

التوبة تمحو كل الذنوب:

قال الله في كتابه العزيز:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾[1].

وقد قلنا: إن هذه الآية في حق التائبين وأما آيتا النساء قوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾[2].

فلا يجوز أن تكون في حق التائبين كما يقوله من يقوله من المعتزلة، فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضاً بنصوص القرآن واتفاق المسلمين، وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق.

هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره وما عداه لم يجزم بمغفرته، بل علق بالمشيئة فقال:

﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾[3].

والآية الأولى المقصود منها، النهي عن القنوط من رحمة الله تعالىٰ، وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحلّ لأحد أن يقنط من رحمة الله، ولا أن يقنِّط الناس من رحمته. لذا قال بعض السلف.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٦.

[وإن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيسُ الناس من رحمة الله، ولا يجبرهم على معاصي الله].

والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له، إما لكونه إذا تاب لا يقبل توبته ويغفر ذنوبه، وإما بأن يقول: نفسه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب معها، والشيطان قد استحوذ عليه، فهو ييأس من توبة نفسه، وإن كان يعلم إذا تاب غفر الله له وهذا يغري كثيراً من الناس.

والقنوط يحصل بهذا تارة وبذاك طوراً، فالأول: كالراهب الذي أفتى القاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله، وكمل به مائة، ثم دُلَّ على عالم فأتاه فسأله، فأفتاه بأن الله يقبل توبته. والحديث في الصحيحين[1].

والثاني: كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة، ويقال له: لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها، فييأس من أن يتوب. وقد تنازع الناس في العبد هل يصير في حالٍ تمتنع منه التوبة إذا أرادها؟

والصواب الذي عليه أهل السنة والجمهور: أن التوبة ممكنة من كل ذنب، وممكن أن الله يغفره، وقد فرضوا في ذلك من توسط أرضاً مغصوبة، ومن توسط جرحىٰ فكيفما تحرك قتل بعضهم، فقيل: هذا لا طريق له إلى التوبة، والصحيح أن هذا إذا تاب قبل الله توبته.

أما من توسط الأرض المغصوبة فهذا آخر وجه بنية تخلية المكان وتسليمه إلى مستحقه ليس منهياً عنه ولا محرماً، بل الفقهاء متفقون أن من غصب داراً وترك فيها قماشه وماله إذا أمر بتسليمها إلى مستحقها، فإنه يؤمر بالخروج منها، وبإخراج أهله وماله منها، وإن كان ذلك نوع تصرف فيها لكنه لأجل إخلائها.

ومثل هذا حديث الأعرابي المتفق على صحته لما بال في المسجد، فقام الناس إليه فقال النبي ﷺ: «لا تُزْرِمُوه»[2].

أي لا تقطعوا عليه بوله، وأمرهم أن يصبوا على بوله دلواً من ماء، فهو لما بدأ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود والترمذي وأحمد والبغوي.

بالبول كان إتمامه خيراً من أن يقطعوه فيلوث ثيابه وبدنه...

وكل من تاب من أي ذنب كان فإن الله يتوب عليه كما قال تعالىٰ:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1].

وقال الله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[2].

وهذا في صور من لم يتُب، فالشرك لا يغفره الله، وما دون الشرك أمره إلى الله إن شاء عاقب وإن شاء عفا عنه.

من عاش بدون توبة فلا مغفرة له:

لكنه ذكر في غير موضع أنه لا يغفر لمن مات كافراً فقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[3].

وقال في حق المنافقين:

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[4].

وهذه آية عظيمة جامعة من أعظم الأيات نفعاً، وفيها رد على كثير من الطوائف. وقد تاب قادة الأحزاب، مثل «أبي سفيان بن حرب»[5]، و «الحارث بن هشام»[6]،

(١) سورة الزمر، الآيات: (٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥).

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٣) سورة محمد، الآية: ، الآية: ٣٤.

(٤) سورة المنافقون، الآية: ٦.

(٥) أبو سفيان: صخر بن حرب: صحابي من سادات قريش في الجاهلية. وهو والد معاوية. قاد الجيش ضد النبي محمد ﷺ يوم أحد والخندق. أسلم يوم فتح مكة. فقئت عينه يوم الطائف وفتئت الأخرى يوم اليرموك. توفي بالمدينة المنورة عام (٣١ هـ).

(٦) الحارث بن هشام بن المغيرة: صحابي من سادات قريش في الجاهلية، شهد بدراً مشركاً، ثم شهد أحداً مشركاً حتىٰ أسلم يوم فتح مكة، فتبعه أهل مكة، توفي بطاعون عمواس، وقيل في معركة اليرموك.

و «سهيل بن عمرو»[1]، و «صفوان بن أمية»[2]، و «عكرمة بن أبي جهل»[3]، وكانوا أحسن الناس إسلاماً وغفر الله لهم.

قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[4].

و «عمرو بن العاص» كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين، وقد قال له النبي ﷺ لما أسلم.

«يا عمرو: أما علمتَ أنّ الإسلام يجُبُّ ما كان قبلَهُ!؟»[5].

التوبة والاستغفار من ترك الواجبات:

وتكون التوبة والاستغفار من ترك الواجبات، وهذا يخفى على كثير من الناس كما في قوله تعالىٰ:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾[6].

وفي قوله تعالىٰ:

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾[7].

وفي قوله تعالىٰ:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[8].

---

(١) سهيل بن عمرو: خطيب قريشي وأحد سادتها في الجاهلية. أسره المسلمون يوم بدر وافتُدي، أسلم يوم فتح مكة، وهو الذي تولىٰ أمر الصلح بالحديبية، مات بالطاعون في الشام عام (١٨ هـ).

(٢) صفوان بن أمية بن خلف: صحابي، فصيح، جواد، كان من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم، شهد اليرموك ومات بمكة (٤١ هـ) له في كتب الحديث (١٣) حديثاً.

(٣) عكرمة بن أبي جهل: من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، أسلم بعد فتح مكة وحَسُن إسلامه، وشهد الوقائع، واستشهد في اليرموك عام (١٣ هـ) وله ٦٢ سنة.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٥) رواه مسلم وأحمد والبيقهي والطبراني.
يجب: يقطع ويمحو الذنوب فلا يؤاخذُ بها.

(٦) سورة غافر، الآية: ٥٥.

(٧) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٨) سورة الفتح، الآية: ٢.

وفي قوله:

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[1].

إذ الاستغفار والتوبة يكون من ترك مأمور، ومن فعل محظور، فإن كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب، وترك (الإيمان) و (التوحيد) و (الفرائض) التي فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب عند كل أحد، بل هي أعظم الصنفين، لأن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد، ومن أتى بالإيمان لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلداً، ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة: كالزهاد والعباد من المشركين وأهل الكتاب، كعباد مشركي الهند، وعباد النصارى وغيرهم، فإنهم لا يقتلون ولا يزنون ولا يظلمون الناس، لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه.

الله لا يعاقب إلا بعد إقامة الحجة:

لقد أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه لأن الله لا يعاقبُ إلا بعد إقامة الحجة كما في قوله تعالىٰ:

﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ ﴾[2].

وكقوله تعالىٰ:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[3].

وكقوله تعالىٰ:

﴿ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ

(١) سورة هود، الآية: ٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١ ـ ٣.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٦.

﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾(١).

وكقوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾(٢).

فدَلّ على أنها كانت ذنوباً قبل إنذاره إياهم.

وقال عن هود عليه السلام:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾(٣).

كذلك قول صالح عليه السلام:

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾(٤).

كذلك قول لوط لقومه:

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٥).

دل على أنها كانت فاحشة عندهم قبل أن ينهاهم، بخلاف قول من يقول: [ما كانت فاحشة ولا قبيحة ولا سيئة حتى نهاهم عنها].

ولهذا قال لهم:

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾(٦).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧١.
(٢) سورة نوح، الآية: ١ ـ ٤.
(٣) سورة هود، الآية: (٥٠، ٥١).
(٤) سورة هود، الآية: ٦١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٨٠.
(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

وكذلك قول شعيب عليه السلام:

﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾(١).

بيّن أن ما فعلوه كان بخساً لهم أشياءهم، وأنهم كانوا عاثين في الأرض مفسدين قبل أن ينهاهم.

وهكذا قول إبراهيم الخليل عليه السلام:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾(٢).

فهذا توبيخ على فعله قبل النهي وأنهم يخلقون إفكاً قبل النهي كما في قوله تعالىٰ: ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

إلى قوله: قال: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٣).

كل هذا يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي وقبل إنكاره وعليهم، ولهذا استفهم استفهاماً منكراً قال: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ !؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٤).

أي وخلق ما تنحتون، فكيف يجوز أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم؟ وتدعون رب العالمين.

وتنازع الناس في (الوجوب والتحريم) هل يتحقق بدون العقاب على الترك؟ والأصح: أنّ العقاب نوعان؛ نوع بالآلام، فهذا قد يسقط بكثرة الحسنات. ونوع بنقص الدرجات وحرمان ما كان يستحقه، فهذا يحصل إذا لم يحصل الأول والله يكفر سيئات المسيء، وكما قال تعالىٰ:

﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾(٥).

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٥.
(٢) سورة مريم، الآية: (٤١ ـ ٤٢).
(٣) سورة الصافات، الآيات (٨٥ ـ ٨٦ ـ ٨٧).
(٤) سورة الصافات، الآية: ٩٥.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣١.

فيكفرها تارة بالمصائب فتبقى درجة صاحبها كما كانت، وقد تصير درجته أعلى ويكفرها بالطاعات. ومن لم يأتِ بتلك السيئات أعلى درجة فيحرم صاحب السيئات ما يسقط بإزائها من طاعته، وهذا مما ينوب منه من أراد أن لا يخسر، ومن فرط في مستحبات فإنه يتوب أيضاً ليحصل له موجبها، فالتوبة تتناول هؤلاء كلهم.

كيفية التوبة:

وتوبة الإنسان على أوجه:

١ ـ أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها.

٢ ـ أن يتوب مما كان يظنه حسنات، ولم يكن كحال أهل البدع.

٣ ـ يتوب من إعجابه ورؤيته أنه فعلها، وأنها حصلت بقوته وينسى فضل الله وإحسانه، وأنه هو المنعم بها، وهذه توبة من فعل مذموم وترك مأمور.

لهذا قيل عن التوبة: مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره، وجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وأن يستديموا التوبة لذا قال تعالىٰ:

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

لذا كان من أواخر ما نزل قوله تعالىٰ:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾[2].

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثاً. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[3].

أقاموا الليل ثم جلسوا وقت السحر يستغفرون.

وسورة المزمل التي فيها قيام الليل ختمها الله بقوله:

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[4].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٣.

(٢) سورة النصر.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧.

(٤) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

وسورة المدثر أيضاً ختمها الله بقوله:

﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾[1].

ولم يقل فيُعبَدَ دون ما سواه، ولا يستحق غيره أن يتقى كما في قوله:

﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾[2].

وقد جمع الله بين التوحيد والإستغفار في غير موضع كقوله سبحانه:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾[3].

فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركين قبل الإسلام من توحيد الله وعبادته، وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد، والرسول يستغفر من ترك ما كان تاركه كما قال فيه:

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾[4].

وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب، والمؤمن إذ يتبين له أنه ضيَّع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك وتاب.

ومن الأمور التي يستغفر ويتاب منها: ما في النفس من الأمور التي لو قالها أو فعلها عُذب. قال تعالىٰ:

﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾[5].

فهو يغفر لمن يرجع عما في نفسه فلم يتكلم به، ولم يعمل، كالذي هم بالسيئة ولم يعملها، وإن تركها لله كتبت له حسنة، وهذا مما يستغفر منه ويتوب، فإن الاستغفار والتوبة من كل ما كان سبباً للذم والعقاب وإن كان لم يحصل العقاب ولا الذم، فإنه يفضي إليه فيتوب من ذلك، أي يرجع عنه حتى لا يفضي إلى شر، فيستغفر الله منه، أي يطلب من الله أن يغفر له ولا يشقيه به.

فضيلة التائب على من لم يقع في الذنب:

والتائب من الذنب والكفر قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والذنب، وإذا كان

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٥٦.
(٢) سورة النحل، الآية: ٥٢.
(٣) سورة محمد، الآية: ١٩.
(٤) سورة الشورىٰ، الآية: ٥٢.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

قد يكون أفضل فالأفضل أحسن بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة، وقد أخبر الله تعالىٰ عن إخوة يوسف بما أخبر من ذنوبهم، وهم الأسباط الذين نبأهم الله تعالىٰ:

وقد قال تعالىٰ:

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ ﴾[1].

فآمن لوط لإبراهيم عليه السلام، ثم أرسله الله إلى قوم لوط.

وقد قال تعالىٰ في قصة «شعيب»:

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[3].

وإذا عرف أن الاعتبار بكمال النهاية، وهذا الكمال إنما يحصل بالتوبة والاستغفار، ولا بد لكل عبد في التوبة، وهي واجبة على الأولين والآخرين.

قال تعالىٰ:

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾[4].

وقد أخبر الله تعالى بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٣.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٧٣.

وآخر ما نزل عليه قوله تعالىٰ:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾[1].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهمَّ ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»[2]. يتأول القرآن.

وقد أنزل الله عليه قبل ذلك:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

قول بعضهم، الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين:

وقول من قال من العلماء:

[الاستغفارُ مع الإصرار توبةُ الكذابين].

فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة، أو يدعي أن استغفاره توبة، وأنه تائب بهذا الاستغفار، فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائباً، فإن التوبة والإصرار ضدان؛ الإصرار يضاد التوبة لكن لا يضاد الاستغفار بدون توبة.

التوبة من بعض الذنوب دون بعض:

التوبة من بعض الذنوب دون بعض، كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطاً في صحة المعقول، كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال. كما قال تعالىٰ:

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[4].

---

(١) سورة النصر.
(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٧.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٩.

وقال تعالىٰ:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

إن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض، فإن التوبة إنما تقضي مغفرة ما تاب منه، أما من لم يتب منه فهو باقٍ فيه على حكم من لم يتب، لا على حكم من تاب، وما علمتُ في هذا نزاعاً إلا الكافر إذا أسلم، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر، فيغفر له بالإسلام الكفرُ الذي تاب منه.

وهل غفر له الذنوب التي فعلها في حال الكفر ولم يتب منها في الإسلام؟

هذا فيه قولان معروفان:

الأول: يغفر له الجميع.

لقوله ﷺ:

«الإسلامُ يهدمُ ما كان قبله»[3].

وفي رواية:

«يجبُّ ما كان قبلَهُ»[4].

فهذا قاله لما أسلم «عمرو بن العاص» وطلب أن يُغفر له ما تقدم من ذنبه فقال:

«يا عمرو: أما علمت أنَّ الإسلام يهدمُ ما كان قبله»[5].

والقول الثاني:

إنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه، فإذا أسلم وهو مصرٌّ على كبائر دون الكفر، فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر.

وفي الصحيحين: قال «حكيم بن حزام».

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٣) و (٤) و (٥) سبق تخريجها.

يا رسول الله: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية.

فقال: «من أحسنَ منكُم في الإسلامِ لم يؤاخَذ بما عملَ في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخذ بالأول والآخر»(١).

فقد دل هذا النص على أنه إنما تُرفع المؤاخذة بالأعمال التي فُعلت في حال الجاهلية عمن أحسن، لا عمن يحسن، وإن لم يحسن أُخذ بالأول والآخر، ومن لم يتب منها لم يحسن وقوله تعالىٰ:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾(٢).

قد يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما سلف من غيره وإنما منه، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها.

إن الإنسان قد يستحضر ذنوباً فيتوب منها، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنباً، لأن التوبة العامة تتضمن عزماً عاماً بفعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندماً عاماً على كل محظور.

من تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها وإن لم يستحضر أعيان الذنوب، إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص، قبل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه لقوة إرادته إياه، أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة.

وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه، فإن التوبة العامة شاملة.

وأما التوبة المطلقة: وهي أن يتوب توبة مجملة ولا تستلزم التوبة من كل ذنب، فهذه لا توجب دخول كل فرد في أفراد الذنوب فيها، ولا تمنع دخوله. كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سبباً لغفران المعين، كما تصلح أن تكون سبباً لغفران الجميع، بخلاف العامة فإنها مقضية للغفران العام كما تناولت الذنوب تناولاً عاماً.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

مجاهدة النفس وذم الهوى

أصل الشر: الغفلة والشهوة:

الغفلة والشهوة أصل الشر قال تعالىٰ:
﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1].

والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً انصرفت نفسه عنه بالطبع، فإن الله تعالى جعل في النفس حباً لما ينفعها، وبغضاً لما يضرها، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً، بل متىٰ فعلته كان لضعف العقل.

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل، وذو نهىٰ، وذو حجا[2]، ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لا من مجرد النفس، فإن الشيطان يزين لها السيئات، ويأمرها بها، ويذكر لها ما فيها من المحاسبة التي هي منافع لا مضار، كما فعل «إبليس» «بآدم» و «حواء» فقال:

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾[3].

وقال:
﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٢) الحجا: العقل والفطنة.
(٣) سورة طه، الآية: (١٢٠ ـ ١٢١).
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.

ولهذا قال تعالىٰ:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

وقوله تعالىٰ:

﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾[3].

هو بتوسيط تزيين الملائكه والأنبياء والمؤمنين للخير، وتزيين شياطين الجن والإنس للشر كما قال تعالىٰ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾[4].

الجهل يؤدي لارتكاب السيئات:

فأصل ما يوقع الناس في السيئات: الجهل وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً، ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم:

[كلُّ من عصىٰ الله فهو جاهلٌ].

وفسروا بذلك قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[5].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣٧.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٧.

وكقوله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ولهذا يسمى حال فعل السيئات: الجاهلية، فإنه بصاحبها حال من حال الجاهلية.

وعن «قتادة» قال:

[أجمعَ أصحابُ محمد ﷺ على أنَّ كل من عصى ربه فهو في جهالة، عمداً كان أو لم يكن، وكلّ من عصىٰ الله فهو جاهل]، وعن «مجاهد» و «الضحاك» قالا:

[ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً، ولكن من جهالته: حين دخل فيه].

وقال «عكرمة»:

[الدنيا كلُّها جهالةٌ].

وعن «الحسن البصري»:

[أنه سئل عنها؟ فقال: هُمْ قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم، وقيل له: أرأيت لو كانوا قد علموا؟ قال: فليخرجوا منها].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

الحمد والشكر

تعريف الحمد والشكر:

الحمد: يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه، سواءً كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلاّ على إحسان المشكور إلى الشاكر.

فمن هذا الوجه: الحمدُ أعمّ من الشكر. لأنه يكون على المحاسن والإحسان، فإن الله تعالى يحمد على ماله من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة والأولى، ولهذا

قال تعالىٰ:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[1].

وقوله أيضاً:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾[2].

والشكر: لا يكون إلاّ على الأنعام، فهو أخصّ من الحمد من هذا الوجه لكنه يكون بالقلب، واليد، واللسان كما قيل:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المحجّبا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١.

ولهذا قال تعالىٰ:

﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾[1].

كذلك يكون الحمد بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعمّ من جهة أنواعه. والحمدُ أعـمّ من جهة أسبابه ومن هذا الحديث:

«الحمدُ لله رأسُ الشكر، فمنْ لم يحمدِ اللَّهَ لم يشكره»[2].

والحديث الصحيح أيضاً:

«إنّ اللَّهَ يرضى عن العبد يأكل الأكلة، فيحمده عليها، ويشربُ الشربةَ، فيحمده عليها. . .»[3].

شكر الله على كل شيء:

ومن وجوه كون الحسنات من الله والسيئات من النفس: أنما يصيبه من الخير والنعم لا تنحصر أسبابه من إنعام الله عليه، فيرجع في ذلك إلىٰ الله ولا يرجو إلا هو، فهو يستحق الشكر التام الذي لا يستحقه غيره. وإنما يستحق من الشكر جزاء على ما يسره الله على يديه ولكن لا يبلغ أن يشكر بمعصية الله، فإنه المنعم بما لا يقدر عليه مخلوق، ونعم المخلوق منه أيضاً وجزاؤه على الشكر والكفر لا يقدر أحد على مثله. فإذا عرف أن:

﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾[4].

صار توكله ورجاؤه إلى الله وحده، وإذا عرف ما يستحقه من الشكر الذي يستحقه صار له. والشر انحصر سببه في النفس فعلم من أين يُؤتى، فتاب واستعان بالله كما قال بعض السلف:

[لا يرجو عبدٌ إلاّ ربه، ولا يخاف إلا ذنبه].

وكما روي عن «ابن عباس»:

[إنما أصابهم يوم أحد مطلقاً كان بذنوبهم لم يستثن أحدٌ].

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) رواه عبد الرزاق والبيهقي في الشعب كلاهما بلفظ قريب.

(٣) رواه مسلم والنسائي والترمذي وأحمد.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢.

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب لئلا يظن أنه عام مخصوص.

حمد الله على نعمه:

وقد روى «الحاكم» في صحيحه، و «الترمذي» عن جابر عن النبي ﷺ قال:

«قرأ علينا رسولُ الله ﷺ الرحمة حتى ختمها. ثم قال: مالي أراكم سكوتاً؟ لَلْجنُّ كانوا أحسنَ منكم ردّاً. ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ـ فبأي آلاء ربكما تكذبان ـ إلاّ قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[1].

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته، ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده، ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى، وهي كلها متلازمة. فكل ما خلقه: فهو نعمة، ودليل على قدرته، وعلى حكمته.

لكن نعمة الرزق والانتفاع بالمأكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهرة لكل أحد، فلهذا يستدل بها كما في سورة «النحل» وتسمى سورة «النعم»،

كما قال «قتادة» وغيره

وعلى هذا: فكثير من الناس يقول: الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه، فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة. والشكر أعمّ من جهة أنواعه فإنه يكون بالقلب واللسان واليد.

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة، لم يكن الحمد إلا على نعمة. والحمد لله على كل حال لأنه ما من حال يقضيها إلاّ وهي نعمة على عباده.

وعلى مذهب السلف: له الملك وله الحمد تامين، وهو محمود على حكمته كما هو محمود على قدرته ورحمته.

الحمد رأس الشكر:

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة فقد ثبت: أنه رأس الشكر، فهذا أول الشكر. والحمد ـ وإن كان نعمته وعلى حكمته ـ فالشكر بالأعمال هو على نعمته. ولهذا عظّم القرآن أمر الشكر ولم يعظم أمر الحمد مجرداً، إذ كان نوعاً من الشكر، وشرع الحمد ـ الذي هو الشكر المقول ـ أمام كل خطاب مع التوحيد.

---

(١) رواه الترمذي والحاكم.

ففي الفاتحة: الشكر والتوحيد. والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد، والباقيات الصالحات نوعان:

فسبحان الله وبحمده: فيها الشكر والتنزيه والتعظيم، ولا إله إلا الله والله أكبر فيها التوحيد والتكبير.

وقال قال تعالىٰ:

﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(١).

وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول:

«ربّنا ولك الحمدُ، ملءَ السماء، وملء الأرض، ملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد. أحقُّ ما قاله العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لا مانعَ لما أعطيت، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منك الجد»(٢).

ولكن لفظة (أحق ما قال العبد): خبر لمبتدأ محذوف أي الحمد أحق ما قاله العبد. أو هذا ـ وهو الحمد ـ أحق ما قال العبد ففيه بيان:

أن الحمد لله أحق ما قاله العباد، ولهذا أوجب قوله في كل صلاة، وأن تفتح به الفاتحة، وأوجب قوله في كل خطبته، وفي كل أمر ذي بال، كذلك فالحمد: ضد الذم، والحق يكون على محاسن المحمود مع المحبة له، كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له.

الحذر من الشكر والطاعة بمعصية الله:

ومن الشكر: ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخير، كشكر الوالدين، وشكر من أحسن إليه من غيرهما فإنه:

[من لا يشكر الناس، لا يشكر الله](٣).

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٥.

(٢) رواه مسلم والنسائي وأبو داود.
ومعنى: لا ينفع ذا الجد منك الجدُّ: الجدُّ هو البخت، وقيل: الغنىٰ، أي: لا ينفع المحبوب المسعود، أو الغنيَّ حظُّه وغناه اللذان هما منك، إنما ينفعه العمل والطاعة والإخلاص.

(٣) حديث رواه أحمد في المسند وابن أبي الدنيا والخرائطي والبيهقي في الشعب.

لكن لا يبلغ منه حق أحد، وإنعامه، أن يشكر بمعصية الله، أو أن يطاع بمعصية الله، فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة التي لا يقدر عليها مخلوق، ونعمة المخلوق إنما هي منه أيضاً:

قال تعالىٰ:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(١).

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾(٢).

فلهذا لم يَجُز أن يُطاع مخلوقٌ في معصية الخالق.

كما قال تعالىٰ:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾(٣).

وقال في آية أخرى:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾(٤).

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٣.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٨.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٥.

الصــدق

ذم الكذب:

قال الله تعالىٰ:

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾(١).

قيل: اللام لام كي، أي يسمعون ليكذبوا، ويسمعون لينقلوا إلى قوم آخرين لم يأتوك فيكونون كذابي ونمّامين جواسيس، والصواب: إنها لام التعْدية مثل قوله: [سمع اللَّهُ لمن حمد].

فالسماع مضمن بمعنى القبول، أي قابلون للكذب، ويسمعون من قوم آخرين لم يأتوك ويطيعونهم، فيكون ذماً لهم على قبول الخبر الكاذب، وعلى طاعة غيره من الكفار والمنافقين مثل

قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾(٢).

أي هم يطلبون أن يفتنوك وفيكم من يسمع منهم، فيكون قد ذمّهم على اتباع الباطل في نوعي الكلام خبره وإنشائه، فإن باطل الخبر الكـذب، وباطل الإنشاء طاعة غير الرسل، وهذا بعيد.

ثم قال تعالىٰ:

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾(٣).

(١) سورة المائدة، الآية: ٤١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٢.

فذكر أنهم في غذائي الجسد والقلب يتغذون الحرام، بخلاف من يأكل الحلال ولا يقبل إلا الصدق. وفيه ذم لمن يرّوج عليه الكذب ويقبله، أو يؤثره لموافقته هواه ويدخل فيه قبول، لأنها كذب، لا سيما إذا اقترن بذلك قبولها لأجل العوض عليها، سواء كان العرض من ذي سلطان، أو وقف، أو فتوح، أو هدية، أو أجرة، أو غير ذلك. وهو شبيه.

بقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

أهل البدع وأهل الفجور الذين يصدقون بما كذب به على الله ورسوله وأحكامه، والذين يطيعون الخلق في معصية الخالق.

ومثل قوله تعالىٰ:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾[2].

فإنما تنزلت بالسمع الذي يخلُطُ فيه بكلمة الصدق ألفُ كلمة من الكذب على من هو كذاب فاجر، فيكون سمّاعاً للكذب من مسترقة السمع.

ثم قال في السورة:

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾[3].

فقول الإثم، وسماع الكذب، وأكل السحت، أعمـال متلازمة في العادة، وللحكام منها خصوص، فإن الحاكم إذا ارتشىٰ سمع الشهادة المزورة، والدعوى الفاجرة، فصار سمّاعاً للكذب، أكّالاً للسُّحْت، قائلاً للإثم.

ولهذا خيّر نبيه ﷺ بين الحكم بينهم، وبين تركه، لأنه ليس قصدهم قبول الحق وسماعه مطلقاً، بل يسمعون ما وافق أهواءهم وإن كان كاذباً، وكذلك العلماء الذين يتقولون للروايات المكذوبة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٣.

تشجيع الصدق بالأقوال والأعمال:

مما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال، وفي الأعمال، كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح:

«كُتب على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا، فهو مدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان تزنيانِ وزناهُما النظرُ، والأذُنان تزنيان وزناهما السمع، واليدانِ تزنيان وزناهما البطشُ، والرِّجلان تزنيان وزناهُما المشي، والقلبُ يتمنىٰ ويشتهي، والفرجُ يصدِّق ذلك أو يكذِّبُهُ»[1].

ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة جازمة، ويقال: فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك.

ولهذا يروون بالصادق الصادق في إرادته وقصده وطلبه، وهو الصادق في عمله، ويروون الصادق في خبره وكلامه، والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذباً في خبره، أو كاذباً في عمله، كالمرائي في عمله.

قال الله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾[2].

وقد ثبت في الصحيحين عن «ابن مسعود» رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

«عليكم بالصدقِ، فإنّ الصدقَ يهدي إلىٰ البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلىٰ الجنة، ولا يزالِ الرجلُ يَصدُقُ، ويتحرّىٰ الصـدق حتىٰ يُكتب عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذبَ، فإن الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإن الفجورَ يهدي إلىٰ النار، ولا يزالُ الرجل يكذبُ، ويتحرىٰ الكذبَ، حتى يُكتب عند اللهِ كذاباً»[3].

فأخبر النبي ﷺ أن الصدق أصل يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور.

وقال الله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾[4].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) سورة الانفطـار، الآية: (١٣ ـ ١٤).

ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر بعض متبّعيه بالتوبة، وأحب أن لا ينفره، ولا يشعب قلبه أمره بالصدق، ولهذا كان يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمته ذكر الصدق والإخلاص، حتى أنهم يقولون:

[قل لمن لا يصدق: لا ينبغي].

ويقولون: [الصدقُ سيفُ الله في الأرض، وما وُضع على شيء إلا قطعه].

ويقول: «يوسف بن أسباط» وغيره:

[ما صدق اللّه عبدٌ إلا صنع له] وأمثال هذا كثير.

والصدق والإخلاص هما في الحقيقة تحقيق الإيمان والإسلام، فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، والفارق بين مؤمن ومنافق هو الصدق، فإنه أساس النفاق الذي يبنى عليه الكذب، ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق، كما في قوله تعالىٰ:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[1].

إلى قوله:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[3].

فأخبر تعالى أن الصادقين في دعوىٰ الإيمان هم المؤمنون الذين لم تثنيهم ريبة، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ

(١) سورة الحجرات، الاية: ١٤.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٥.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٨.

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1].

وقال «ابن عباس».

[ما بعث الله نبياً إلا أخذَ عليه الميثاقَ لئن بُعث محمدٌ وهو حيٌّ ليؤمننّ به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمتِهِ لئن بُعث محمدٌ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه].

وصف الصادقين والمنافقين:

وصف الله عز وجل الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالىٰ:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[2].

إلى قوله تعالىٰ:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[3].

وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[4].

وقوله تعالىٰ:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[5].

وقوله تعالىٰ:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٥) سورة المنافقون، الآية: ١.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

الصبر

الصبر على البلاء والشكر على الرخاء:

أخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له.

قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[1].

وذكرها في أربعة مواضع من كتابه. فأما من لا يصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له. ولهذا أُجيبُ من أورد هذا على ما يقضي على المؤمن من المعاصي بجانبين: أحدهما: إن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما فعله العبد كما في

قوله تعالىٰ:

﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[2].

أي من سراء:

﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[3].

أي من ضراء.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٧٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٩.

كما قال تعالىٰ:

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾[2].

فالحسنات والسيئات يراد بها المسارُّ المضارُّ، ويراد بها الطاعات والمعاصي.

والجواب الثاني: إن هذا في حق الصابر الشكور. والذنوب تُنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبه الله، وقد ترتفع درجته بالتوبة.

قال بعض السلف:

[كان داودُ[3] بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة].

وكقول «سعيد بن جبير»[4]:

[إن أحياناً فعل الذنب يكونُ خيراً من فعلِ الطاعة].

ثم إن القضاء مع الصبر خير له فكيف مع الرضا، ولهذا جاء في الحديث:

«المُصابُ من حُرم الثوابَ»[5].

وفي الأثر الذي رواه «الشافعي» في مسنده:

أن النبي ﷺ لما مات سمعوا قائلاً يقول: [يا آل بيتِ رسول الله ﷺ: إنّ في الله عزاءً من كل مصيبة، وخَلَفاً من كل هالك، ودَرَكاً من كل فائتٍ، فباللّهِ ثِقوا، وإياهُ فارجوا، فإن المُصاب من حُرِم الثواب][6].

ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافي للرضا قطّ، لأنه لا فائدة فيه، فقد يكون فيه مضرة لكنه يعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله. والناس أربعة أقسام: منهم من يكون فيه

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٣) أي النبي داود عليه السلام.

(٤) أحد كبار علماء وفقهاء التابعين، وأجلهم مكانة وقدراً. قتله الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٥) رواه الشافعي في مسنده.

(٦) رواه الشافعي في مسنده.

صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس.

التقوىٰ والصبر:

التقوىٰ تتضمن فعل المأمور وترك المحظور، أما الصبر يتضمن الصبر على المقدور.

وقد قال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾[1].

إلى قوله:

﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾[2].

فبين سبحانه أن مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين.

وقال تعالىٰ:

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[3].

فبين أنه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم.

وقال تعالىٰ:

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[4].

فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور، فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة، المؤذين بألسنتهم، والمؤذين بأيديهم، وشرَّ العدو المبطن للعداوة وهم المنافقون، وهذا الذي كان خُلُق النبي ﷺ وهديُهُ وهو أكمل الأمور.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

الصبر مع القدرة:

الصبر مع القدرة جهاد، بل هو أفضل من الجهاد. وأكمل من ثلاثة أوجه:

أحدها: إن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب.

الثاني: إن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك.

الثالث: إن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني - كمن خرج لصلاة أو طلب علم أو جهاد فابتُلي بما يميل إليه من ذلك - فإن صبره عن ذلك يتضمن فعل المأمور وترك المحظور، بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح.

ولهذا كان «يونس بن عبيد» يوصي بثلاث فيقول:

لا تدخل على سلطان، وإن قُلتَ: آمرُهُ بطاعة الله.

ولا تدخل على امرأة، وإن قلت: أُعلّمُها كتابَ الله.

ولا تصغِ أذنك إلى صاحب بدعةٍ، وإن قلتَ: أردُّ عليه.

إن الله تعالى أمر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل فـ «الهجر الجميل» هجر بلا أذى.

و «الصفح الجميل» صفح بلا عتاب.

و «الصبر الجميل» صبر بلا شكوى.

قال يعقوب عليه الصلاة والسلام:

﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1].

مع قوله:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[2].

فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل.

ويروىٰ عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٨.

[اللهم لك الحمدُ وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاثُ وعليك التكلان].

ومن دعاء النبي ﷺ:

«اللهمَ إليكَ أشكو ضعف قوتي، وقلَّة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، أنت ربُّ المستضعفين وأنتَ ربي إلى من تكلُني؟ إلى بعيد يتجهمُني، أمْ إلى عدوٌ ملكّته أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي غيرَ أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذُ بنورِ وجهك الذيْ أشرقت له الظلماءُ، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك، أو يحلَّ عليَّ غضبُك، لك العقبى حتىٰ ترضىٰ»[1].

وكان «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه وأرضاه يقرأ في صلاة الفجر:

﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2].

ويبكي حتى يُسمعُ نشيجه في آخر الصفوف، بخلاف الشكوى إلى المخلوق. قُرىء على الإمام «أحمد» في مرض موته أن «طاووساً» كره أنين المريض وقال:

[إنه شكوى] فما أنَّ حتى مات.

وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال إما إزالة ما يضره أو حصول ما ينفعه، والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه.

كما قال تعالىٰ:

﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨ ﴾[3].

وقال ﷺ «لابن عباس»:

«إذا سألتَ فاسألِ اللّهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ»[4].

ولا بد للإنسان من شيء:

طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وجره على ما يصيبه من القضاء المقدور،

---

(١) رواه الطبراني وابن عدي وابن عساكر.
يتجهمني: يستقبلني بوجه عابس.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٦.
(٣) سورة الانشراح، الآيتان ٧ ـ ٨.
(٤) رواه الترمذي وأبو داود والطبراني وابن حبان.

فالأول: هو التقوى، والثاني: هو الصبر.

قال تعالىٰ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾[1].

إلى قوله:

﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[3].

وقال تعالىٰ:

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[4].

وقال يوسف عليه السلام:

﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5].

أقسام الصابرين على القدر الكوني:

والناس في الصبر على القدر الكوني أقسام:

أحدها: أهل التقوى والصبر، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

والثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

الصلاة ونحوها ويتركون المحرمات. لكن إذا أصيب أحدهم بمرض في بدنه ونحوه في ماله، أو في عرضه، أو ابتُلي بعدو يخيفه عظُم جزعه وظهر هَلَعُهُ.

والثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى، مثل الفجَّار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم، كاللصوص والقطّاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام.

الرابع: هو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا، ولا يصبرون إذا ابتلوا بل هم كما قال تعالىٰ؛

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾[١].

فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قُهروا.

إن قهرتهم دلُّوا لك، ونافقوك، وحاجُّوك، واسترحموك، ودخلوا في ما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول.

وإن قهروك كانوا من أظلم الناس، وأقساهم قلباً، وأقلهم رحمة وعفواً وإحساناً، مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم في كثير من أمورهم.

وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهَّادهم وتجارهم وصنّاعهم:

«فإنّ الله لا ينظرُ إلى صورِكُم ولا إلى أموالِكم، وإنما ينظُر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٢].

قرن الله الصبر بالأعمال الصالحة خصوصاً.

فقال تعالىٰ:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[٣].

وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لأمره.

---

(١) سورة المعارج، الآيات: ١٩ ـ ٢١.
(٢) رواه الطبراني والحكيم الترمذي.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٩.

وقال تعالىٰ:

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[1].

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

قال تعالىٰ:

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾[3].

وقال تعالىٰ:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾[4].

وقال تعالىٰ:

﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[5].

فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر:

﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾[6].

أنواع الصبر:

والصبر صبران: صبر عند الغضب، وصبر عند المصيبة.

كما قال «الحسن» رحمه الله:

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٥.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥٥.
(٤) سورة قٓ، الآية: ٣٩.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.
(٦) سورة البلد، الآية: ١٧.

[ما تجرّع عبدٌ جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة].

وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم، وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على الألم. والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه آثار الغضب، وإن كان مما لا يمكن دفعه آثار الحزن، ولهذا يحمرُّ الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة، ويصفرّ عند الحزن لفوران الدم عند استشعار العجز.

ولهذا جمع النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه «مسلم» عن «عبد الله بن مسعود» رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«ما تعدّون الرّقوبَ فيكم؟ قالوا: الرّقوب الذي لا يولَدُ له. قال: ليس ذاك بالرقوب، ولكنّ الرقوبَ: الرجلُ الذي لم يقدم من ولده شيئاً، ثم قال: ما تعدون الصُّرَعَة فيكم؟ قلنا الذي لا يصرعُهُ الرجالُ. فقال: ليس بذلك، ولكن الصرّعةَ الذي يملكُ نفسَهُ عند الغضب»(١).

فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة، والصبر عند الغضب.

قال الله تعالى في المصيبة:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾(٢).

وقال الله تعالى في الغضب:

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾(٣).

وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر المصيبة وصبر النعمة كما في قوله تعالى:

---

(١) رواه أحمد ومسلم.
والرقوب في اللغة: الرجل والمرأة إذا لم يَعِشْ لهما ولد، لأنه يرقُبُ موته، ويرصده خوفاً عليه، فنقله النبي ﷺ إلى الذي لم يقدّم من الولد شيئاً، أي يموت قبله، تعريفاً أن الأجر والثواب لمن قدم شيئاً من الولد، وأن الاعتداد به أكثر، والنفع فيه أعظم، وإن كان في الدنيا عظيماً فإن الأجر والثواب على الصبر والتسليم للقضاء في الآخرة أعظم.

(٢) سورة البقرة، الآية (١٥٥، ١٥٦).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٥.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ ﴾[1].

وقال الله تعالىٰ:

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[2].

وبهذا وَصَفَ «كعب بن زهير» من وَصَفَه من الصحابة المهاجرين بقوله:

ليسوا مفاريحَ إن نالتْ رماحَهم كُثراً وليسوا محازيناً إذا نيلوا

وكذلك قال «حسان بن ثابت» في صفة الأنصار:

لا فخرَ إنْ هُمْ أصابوا من عدوِّهِمُ وإن أُصيبوا فلا خُورٌ ولا هلع

وقال بعض العرب فس صفة النبي ﷺ:

[يَغلبُ فلا يبطر، ويغلَبُ فلا يضجر].

ولما كان الشيطان يدعو الناس عند هذين النوعين، إلى تعدي الحدود بقلوبهم وأصواتهم وأيديهم.

نهىٰ النبي ﷺ عن ذلك فقال لما قيل له، لما رأى «إبراهيم» في النزع: أتبكي؟ أولم تنهَ عن البكاء؟

فقال:

«إنما نُهيتُ عن صوتين أحمقينِ فاجرين: صوتٍ عند نغمةِ لهوٍ ولعب ومزامير الشيطان، وصوتٍ عند مصيبةٍ لطمِ خدودٍ، وشقِّ جيوب، ودعاءٍ بدعوى الجاهلية»[3].

فجمع بين الصوتين.

وأما نهيه عن ذلك في المصائب فمثل قوله ﷺ:

«ليسَ منّا مَنْ لَطَم الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية»[4].

---

(١) سورة هود، الآية: ٩ ـ ١١.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٣.
(٣) روى أوله الشيخان في صحيحيهما، ورواه بلفظ قريب الترمذي، وابن سعد.
(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«أنا بريءٌ من الحالقة والصالقةِ، والشاقَّةِ»[1].

وقال ﷺ:

«ما كان من العينِ والقلبِ فمنَ اللَّهِ، وما كان من اليدِ واللسانِ فمنَ الشيطان»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام:

«إنّ اللَّهَ لا يؤاخذُ على دمعِ العينِ، ولا حزن القلب، ولكن يعذبِ بهذا، أو يرحم - وأشار إلى لسانه»[3].

وقال ﷺ:

«من يُنَـحْ عليهِ، فإنه يعذَّبُ بما نيحَ عليه»[4].

واشترط على النساء في البيعة ألا ينحن[5] وقال:

«إن النائحةَ إذا لم تَتُبْ قبل موتها، فإنها تلبسُ يوم القيامة دِرعاً من جَرَبٍ، وسربالاً من قطِران»[6].

وقال عليه الصلاة والسلام في الغلبة والمصائب والفرح:

«إن الله كتبَ الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتُم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليحدَّ أحدُكم شَفرتَهُ، وليُرِحْ ذبيحَتَه»[7].

---

(١) رواه البخاري بلفظه، وورواه بلفظ قريب مسلم وأبو داود والنسائي.
والصالقة: هي التي تصرخ عند المصيبة وتضج.
الحالقة: هي التي تحلق شعرها عند المصيبة.
الشاقة: هي التي تشق ثيابها.

(٢) رواه أبو نعيم بلفظ قريب.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة بلفظ قريب، قال الخطابي: يشبه أن يكون هذا من حيث أن العرب كانوا يوصون أهاليهم بالبكاء، والنوح عليهم، وإشاعة النعي في الأحياء، وكان ذلك مشهوراً من مذاهبهم، وموجوداً في أشعارهم كثيراً، فالميت تلزمه العقوبة في ذلك لما تقدم من أمره إليهم في وقت حياته.

(٦) رواه مسلم.

(٧) رواه مسلم والنسائي والترمذي وأحمد وأبو داود وابن ماجة.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«إنّ أعفَّ الناس قتلةً أهلِ الإيمان»[1].

وقال ﷺ:

«لا تمثّلوا، ولا تغدُروا، ولا تقتُلوا وليداً»[2].

إلى غير ذلك مما أمر به في الجهاد من العدل وترك العدو اتباعاً لما أمر الله في كتابه كما في قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾[3].

ولقوله تعالىٰ:

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[4].

ونهى عن لباس الحرير، وتختم الذهب، والشرب في آنية الذهب والفضة، وإطالة الثياب، إلى غير ذلك من أنواع السرف والخيلاء في النعم، وذمَّ الذين يستحلون من الخمر والحرير والمعارف، وجعل فيهم الخسف والمسخ كما في قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[5].

وقال عز وجل عن قارون:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[6].

وهذه الأمور الثلاثة مع الصبر عن الاعتداء في الشهوة هي جوامع هذا الباب، ذلك أن الإنسان بين ما يحبه ويشتهيه، وبين ما يبغضه ويكرهه. فهو يطلب الأول بمحبته وشهوته، ويدفع الثاني ببغضه ونفرته.

وإذا حصل الأولُ بمحبته وشهوته، يدفع الثاني ببغضه ونفرته.

وإذا حصل الأولُ اندفع الثاني، أوجب له فرحاً وسروراً.

وإن حصل الثاني واندفع الأول، حصل له حزن.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه مسلم والترمذي وأبو داود وأحمد والنسائي وابن ماجة.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٥) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٦) سورة القصص، الآية: ٧٦.

فهو محتاج عند المحبة والشهوة أن يصبر عن عدوانهما، وعند الغضب والنفرة أن يصبر عن عدوانهما، وعند الفرح أن يصبر عن عدوانه، وعند المصيبة أن يصبر عن الجزع منها. فالنبي ﷺ ذكر الصوتين الأحمقين الفاجرين: الصوت الذي يوجب الاعتداء في الفرح حتى يصير الإنسان فرحاً فخوراً، والصوت الذي يوجب الجزع عند الحزن حتى يصير الإنسان هلوعاً جزوعاً[1]. وأما الصوت الذي يثير الغضب لله: كالأصوات التي تُقال في الجهاد من الأشعار المنشدة، فتلك لم تكن بآلات، وكذلك أصوات الشهرة في الفرح فرخص منها فيما وردت به السنة من الضرب بالدف في الأعراس والأفراح للنساء والصبيان.

وعامة الأشعار التي تُنشد بالأصوات لتحريك النفوس هي من هذه الأقسام الأربعة

١ ـ أشعار المحبة: وهي النسيب.

٢ ـ وأشعار الغضب والحميّة: وهي الحماسة والهجاء.

٣ ـ وأشعار المصائب: كالمراثي.

٤ ـ وأشعار النعم والفرح: وهي المدائح.

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع كما قال تعالىٰ:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾[2].

ولهذا أخبر أنهم يتبعهم الغاوون، والغاوي هو الذي يتبع هواه بغير علم، وهذا هو الغيُّ، وهو خلاف الرشد، كما أن الضال هو الذي لا يعلم مصلحته، وهو خلاف المهتدي.

قال الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾[3].

ولهذا قال رسول الله ﷺ:

«عليكُم بسنّتي وسنّةِ الخلفاء الراشدين المهديين مِنْ بَعدي»[4].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٣) سورة النجم، الآيتان ١ ـ ٢.

(٤) رواه أحمد والحاكم وابن ماجة والطبراني.

من هنا كان لقصة نوح عليه السلام دروس عظيمة في الصبر كما قال الله تعالىٰ:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ثم قال الله تعالىٰ:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ﴾[2].

إلى قوله:

﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

لا يقدر على الصبر كل أحد:

قال «سهلُ بن عبد الله التستُري».

[أفعال البر يفعلُها البرُّ والفاجر، ولن يصبرَ عن المعاصي إلا صدِّيقٌ. ويوسُف صلوات الله عليه كان صدّيقاً نبياً].

وأما من يظلم بغير اختياره ويصبر فهذا كثيرٌ، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا[4] سلو البهائم، وكذلك إذا مكن المظلوم وقهر ظالمه فثار الظالم وخضع له فعَفوه عنه من المحاسن والفضائل، لكن هذا يفعله خلق كثير من أهل الدين وعقلاء الدنيا، فإن حلم الملوك والولاة أجمعُ لأمرهم، وطاعة الناس لهم، وتأليفهم لقلوب الناس. وكان «معاوية» من أحلم الناس، وكان «المأمون» حليماً حتى كان يقول:

[لو علمَ الناسُ محبَّتي في العفو تقرَّبوا إليّ بالذنوب].

ولهذا لما قدر على من نازعه في الملك ـ وهو عمه «إبراهيمُ بن المهدي» ـ عفا عنه.

وأما الصبر عن الشهوات والهوى الغالب لله لا رجاء لمخلوق ولا خوفاً منه مع كثرة الدواعي إلى فعل الفاحشة، واختياره الحبس الطويل على ذلك كما قال يوسف:

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٩.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٩.
(٤) سلا: هَزُلَ جسمه لإصابته بداء السل.

﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾[1].

فهذا لا يوجد نظيره إلا في خيار عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين كما قال تعالىٰ:

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾[2].

فهذا من عباد الله المخلصين الـذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾[3].

وإذا كان الصبر على الأذى لئلا يفعل الفاحشة أعظم من صبره على ظلم إخوته، فكيف يصبر الرسل على أذى المكذبين لئلا يتركوا ما أُمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله وحده، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر؟؟

فهذا الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله، إذا كان الجهاد مقصوداً به أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الدين محله لله.

فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال كما قال النبي ﷺ:

«رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودهُ الصلاةُ، وذروة سنامه الجهادُ في سبيل الله»[4].

فالصبر على تلك المعصية صبر المهاجر الذي هجر ما نهى عنه، وصبر المجاهد الذي جاهد نفسه في الله وجاهد عدو الله الظاهر والباطن، والمهاجر الصابر على ترك الذنب إنما جاهد نفسه وشيطانه، ثم يجاهد عدو الله الظاهر لتكون كلمة الله هي العليا، ويكونَ الدين كله لله. وصبر المظلوم صبرُ المصاب.

الصبر على مصائب الدنيا:

لكن المصاب بمصيبة سماوية تصبر نفسه ما لا تصبر نفسٌ من ظلمه الناس، فإن ذاك يستشعر أن الله هو الذي فعل به هذا فتيأس نفسه من الدفع والمعاقبة وأخذ الثأر، بخلاف المظلوم الذي ظلمه الناس، فإن نفسه تستشعر أن ظالمه يمكن دفعه وعقوبته وأخذ ثأره منه، فالصبر على هذه المصيبة أفضل وأعظم، كصبر «يوسف» صلوات الله وسلامه. وينال وقتها ثواب الكاظمين الغيظ، وليسلم قلبه من الغلِّ للناس، وكلا

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٣.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.
(٤) رواه الطبراني.

النوعين يشترك في أن صاحبه يستشعر أن ذلك بذنوبه، وهو مما يكفر الله به سيئاته ويستغفر ويتوب، ويرى أن ذلك الصبر واجب عليه، وأن الجزع مما يُعاقب عليه.

وإن ارتقى إلى الرضا أي أن الرضا جنة الدنيا، ومستراح العابدين، رباب الله الأعظم، وإن رأى ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه ودينه، وقربة إلى الله، وتكفير سيئاته، وصونه عن ذنوب تدعوه إليها شياطين الإنس والجن، شَكَرَ الله على هذه النعم.

فالمصائب السماوية والآدمية تشترك في هذه الأمور، ومعرفة الناس بهذه الأمور وعلمهم بها هو من فضل الله يمُنّ به على من يشاء من عباده، ولهذا كانت أحوال الناس في المصائب وغيرها متباينة تبايناً عظيماً. ثم إذا شهد العبد القَدَرَ وأن هذا أمر قدره الله وقضاه وهو الخالق له، فهو مع الصابر يسلم للرب القادر المالك الذي يفعل ما يشاء، وهذا حال الصابر، وقد يسلم تسليمة للرب المحسن المدبر له بحسن اختياره الذي قال فيه النبي ﷺ فيما يرويه «مسلم» في صحيحه عن «صُهيب»:

(لا يُقضىٰ للمؤمن قضاءٌ إلا كان خيراً له، إنْ أصابَتْهُ سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاءُ صَبَرَ فكان خيراً له)(١).

وهذا تسليم راضٍ بعلمه بحسن اختيار الله له، وهذا يورث الشكر. وقد يسلم تسليمة للرب المحسن إليه، المتفضل عليه بنعم عظيمة، وإن لم يَرَ هذا نعمة فيكون تَسَليمُهُ تسليمَ راضٍ غيرِ شاكر.

الصبر على الفاحشة:

لكن أعلم من ذلك الصبرِ، وأعظَمَ منه هو الصبرُ عن الفاحشة مع قوة الداعي، بل هذا النوع أعظم من الصبر على الطاعة ولهذا قال سبحانه وفي وصف المتقين:

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾(١).

---

(١) رواه مسلم وأحمد والطبراني.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: (١٣٣ ـ ١٣٦).

فوصفهم بالكرم، والحلم، والإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس. ثم لما جاءت الشهوات المحرمات وصفهم بالتوبة كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾[1].

صبر الأنبياء عليهم السلام:

ويوسف ﷺ صبر على الذنب مطلقاً، ولم يوجد منه إلا همٌّ تركه لله كتب له به حسنة، وأما قصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم، والواقع فيها من المجانبيَن. فما فعلتْهُ الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله، وعبادته، ودينه، وإظهار آياته، وأمره، ونهيه، ووعده، ووعيده، ومجاهدة المكذبين لهم، والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله، وطاعتهم، وتقواهم، وصبرهم بما فعلوه أعظم من طاعة «يوسُف» وعبادته وتقواه. أولئك أولو العزم الذي خصهم الله بالذكر في قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[2].

وهم يوم القيامة الذين تطلُب منهم الأمم الشفاعة، وبهم أُمر خاتم الرسل أن يقتدي في الصبر فقيل له:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[3].

فقصصهم أحسن من قصة يوسف، ولهذا ثنّاهما الله في القرآن لا سيما قصة موسى قال الإمام «أحمد بن حنبل»:

[أحسنُ أحاديثِ الأنبياءِ حديثُ تكليمِ اللّهِ لموسىٰ].

ماذا يعني الصبر؟؟

لكن ماذا يعني الصبر؟؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

قيل الصبر: هو حبس النفس عن الجزع، يقال صبر وصبرته أنا ومنه قوله تعالىٰ:
﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ ﴾[1].

فالصبر جمع وإمساك، مثاله الصبرة من الطعام، فإنها مجمعة مكونة.

والصبارة: الحجارة. وصبر الشيء: غلظه. وضده الجزع، وفيه معنى التقطع والتفرق، يقال جَزَعَ له جزعة من المال: أي قطع له قطعة، والجزعة: القطعة من الغنم، واجتزعتُ من الشجر عوداً: أي اقتطعته واكتسرته، وجزعت الوادي: إذا قطعت عرضاً، والجِزْع: منعطف الوادي، وفيه.

الجَزْع: وهو الخرز اليماني الذي فيه بياض وسواد.

وقد قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ ﴾[2].

قال «الجوهري»: الهَلَعُ أفحش الجَزَع، وقال غيره: أشد الحرص، ولذا قال النبي ﷺ:

«شرُّ ما في المرءِ شحٌّ هالعٌ، وجُبنٌ خالعٌ»[3].

وناقة هلوع: إذا كانت سريعة السير خفيفة، وذئب هلع بلع، والهلع: من الحرص، والبلع: من الابتلاع، وللسلف تفسيرات في ذلك منها ما قال «ابن عباس»:

[هو الحريصُ على ما لا يحلُّ له].

و «سعيد بن جبير» فسّره: شحيحاً. وعن «عكرمة»: ضجوراً.

وعن «جعفر» حريصاً، وعن «الحسن» و «الضحاك»: بخيلاً، وعن «مجاهد»: شرهاً، وعن «مقاتل»: ضيق القلب، وعن «عطاء»: عجولاً.

وكل هذه المعاني تنافي الثبات، والثقة، والاجتماع، والإمساك، والصبر، وقد قال الله تعالىٰ:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٢) سورة المعارج، الآيات: ١٩ ـ ٢١.
(٣) رواه أبو داود وأحمد في المسند.
ومعنى جبن خالع: أي شديد، كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه، وهو مجاز من الخلع، والمراد به ما يَعرض من نوازع الأفكار، وضعف القلب عند الخوف.

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾[1].

وهذا وإن كان قيل: إن المراد به أنها تتصدع فيموتون، فإنه كما قيل: في مثل ذلك قد انصدع قلبه، وقد تفرق قلبي، وقد تشتت قلبي، وقد تقسّم قلبي. ومنه يقال للخائف: قد فرق قلبه، ويقال بإزاء ذلك: هو ثابت القلب، مجتمع القلب، مجموع القلب.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٠.

العفـــة

العفة والغنىٰ:

جمع النبي ﷺ بين العفة والغنىٰ في عدة أحاديث منها قوله في حديث «أبي سعيد» المخرج في الصحيحين:

«من يستغن يغنهِ اللّهُ، ومن يستعفَ يعفُّه اللّهُ»(١).

ومنها قوله في حديث «عياض بن حمار» في صحيح «مسلم»:

«أهل الجنة ثلاثةٌ: ذو سلطانٍ مقسطٌ، ورجل غنيٌ عفيفٌ متصدِّقٌ»(٢).

ومنها قوله في حديث الخيل الذي في الصحيح:

«ورجل ارتبطها تغنياً وتَعففاً، ولم ينسَ حقَّ الله في رقابها وظهورها، فهي له سِترٌ»(٣).

ومنها ما روي عنه:

«من طلبَ المالَ استغناءاً عن الناس، واستعفافاً عن المسألةِ لقِيَ اللّهَ ووجهُهُ كالقمر ليلةَ البدرِ»(٤).

ومنه قوله في حديث «عمر» وغيره.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن حبان ومالك في الموطأ وأحمد والطبراني وأبو يعلىٰ.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأحمد وابن ماجة. ومعنىٰ تغنياً: استغناء بها عن الطلب لما في أيدي الناس.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية بلفظ قريب.

«ما أتاك مِنْ هذا المالِ وأنتَ غيرُ سائلٍ ولا مشرفٍ فخذْه»[1].

فالسائل بلسانه وهو ضد المتعفف، والمشرف بقلبه وهو ضد الغنىٰ.

وقال في حق الفقراء:

﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾[2].

(أي عن السؤال للناس)[3].

وقال:

«ليس الغنىٰ من كثرة العَرَض، وإنما الغنى غنى النفس»[4].

فغنيُّ النفس: الذي لا يستشرف إلى المخلوق، فإن المرء عبد ما طمع، والعبد حرٌّ ما قنع، وقد قيل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرا

فكره أن يتبع نفسه ما استشرفت له، لئلا يبقىٰ في القلب فقر وطمع إلىٰ المخلوق، فإنه خلاف التوكل المأمور به، وخلاف غنى النفس.

سؤال المخلوق للمخلوق:

مسألة المخلوق[5] محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة، وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد، كقوله ﷺ:

«لا تزالُ المسألةُ بأحدكم حتىٰ يأتي يوم القيامة، وليسَ في وجهِهِ مُزْعة لحم»[4].

---

(١) رواه البخاري والنسائي وابن حبان وأحمد والبيهقي في الشعب. ورواه مسلم وأبو داود بلفظ قريب.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣، والحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن المنذر.

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد، والعَرَض المتاع، وكل شيء سوى النقود والذهب والفضة.

(٤) مسألة المخلوق: أن يسأل العبد عبداً ويطلب منه.

(٥) رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن جرير، ورواه البيهقي في الشعب بلفظ قريب. والمزعة: القطعة.

وقوله أيضاً:

«من سأل الناس وله ما يغنيهُ، جاءَتْ مسألتُهُ يومَ القيامة خدَوشاً، أو خموشاً، أو كَدوحاً في وجهه»[1].

وقوله أيضاً:

«لا تحلُّ المسألةُ إلا لذي غُرْمٍ مفظع، أو دم موجع، أو فقر مُدقع»[2].

وهذا المعنى في الصحيح وفيه أيضاً:

«لأن يأخذَ أحدُكُم حبلَهُ، فيذهبَ، فيحتطبَ، خيرٌ له من أن يسألَ الناسَ أعطوه أو منعوه»[3].

وقال:

«من أَتاك من هذا المالِ وأنتَ غيرُ سائلٍ ولا مشرفٍ فخذه، وما لا، فلا تتبعه نفسك»[4].

فكره أخذه من سؤال اللسان واستشراف القلب.

وقال في الحديث الصحيح:

«من يستغن يغنه الله، ومن يستعّفْ يعفَّهُ ﷻ، ومن يتصبَّرْ يصبرْهُ الله، وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[5].

وأوصىٰ خواص أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً.

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم وأحمد.
الخدوش: الخداش هو الجرح في ظاهر الجلد. وخمش: خدش ولطم، والكدوح: الخدوش.

(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو داود وأحمد.
غرم مفظع: ديَةَ شنيعة فظيعة.
دم موجع: هو أن يتحمل دية فيسعىٰ فيها حتىٰ يؤديها إلىٰ أولياء المقتول، فإن لم يؤدها قتل المتحمل عنه فيوجعه قتله.
وفقر مدقع: أي شديد يفضي بصاحبه إلى الذل.

(٣) رواه البخاري وأحمد وابن ماجة، ورواه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود بلفظ قريب.

(٤) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد.

(٥) رواه أبو نعيم والحكيم الترمذي وابن جرير.

ففي «المسند»:

(أن أبا بكر كان يَسقطُ السوطُ من يدِهِ، فلا يقولُ لأحدٍ: ناولني إياه، ويقول: إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً)[١].

وفي «صحيح مسلم» وغيره عن «عوف بن مالك»:

(أن النبي ﷺ بايعه في طائفةٍ، وأسرَّ إليهم كلمةً خفيفة، أن لا تسألوا الناس شيئاً، فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم ولا يقول لأحد: ناولني إياه)[٢].

سؤال العبد للخالق:

دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق، والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع كقوله تعالىٰ:

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾[٣].

وقول النبي ﷺ «لابن عباس» رضي الله عنهما:

«إذا سألتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله»[٤].

ومنه قول «الخليل»:

﴿فابتغو عند الله الرزق﴾.

ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله.

وقد قال تعالىٰ:

﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾[٥].

والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما لا يضره، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه الله، فله أن يسأل الله، وإليه يشتكي، كما قال «يعقوب» عليه السلام:

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي.
(٣) سورة الانشراح، الآية: ٧.
(٤) رواه الترمذي وأبو داود وابن حبان والطبراني والبيهقي في الشعب.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣٢.

﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1].

وقول الله تعالىٰ:

﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾[2].

وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه، أو يرزقوه، أو يهدوه، خضع قلبه لهم، وصار من العبودية لهم بقدر ذلك.

الغنىٰ غنىٰ النفس:

عبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنىٰ غنى النفس.

قال رسول الله ﷺ:

«ليس الغنى من كثرة العَرَضِ، وإنما الغنى غنىٰ النفس»[3].

وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة، امرأة وصبياً، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه، وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً، وأقلهم ثواباً.

فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها، مُستعبَداً لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرىٰ، فدوام تعلق القلب بها بلا فاحشة أشد ضرراً عمن يفعل ذنباً ثم يتوب منه، ويزول أثره من قلبه.

الصبر عن المحرمات:

أما الصبر عن المحرمات فواجب، وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها.

قال تعالىٰ:

﴿ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾[4].

والاستعفاف: ترك المنهي عنه، كما في الحديث الصحيح عن «أبي سعيد الخدري» قال:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٦.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٣.

«من يستعففْ يعفّهُ اللَّهُ، ومن يستغن يغنِهِ اللَّهُ»[1].

فالمستغني لا يستشرف بقلبه.

والمستعف هو الذي لا يسأل الناس بلسانه.

والمتصبر هو الذي لا يتكلف الصبر.

فأخبر أنه من يتصبر يصبره الله.

وهذا كأنه في سياق الصبر على الفاقة، بأن يصبر على مرارة الحاجة، لا يجزع مما ابتلي به من الفقر، وهو الصبر في البأساء والضراء.

قال تعالىٰ:

﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ ﴾[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

الغَيْرة(*)

لا أحد أغير من الله:

في الصحيحين عن «عبد الله بن مسعود» عن النبي ﷺ قال:

«ما أَحَدٌ أغيرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أجلِ ذلك حرَّمَ الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن. وما أحدٌ أحبّ إليه المدحَ مِنَ اللَّهِ، ولذلك مَدَحَ نَفْسهُ»(١).

وفي رواية الإمام «مسلم»:

«وليس أحدٌ أحبّ إليه العُذر مِنَ اللَّهِ، من أجل ذلك أنزلَ الكتابَ، وأرسلَ الرسلَ»(٢).

جمع النبي في هذا الحديث بين وصفه سبحانه بأكمل المحبة للممادح وأكمل البغض للمحارم. وفي الصحيحين عن «المغيرة بن شعبة» قال:

قال «سعد بن عبادة»:

[لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لأضربنّه بالسيف غير مُصفحٍ].

فبلغ ذلك رسول الله فقال:

«تعجبونَ من غَيرة سَعْدٍ؟ واللَّهِ لأنا أغيرُ منه، واللَّهُ أغيرُ مني، ومن أجل غَيْرةِ اللَّهِ حرّم الفواحشَ ما ظهَر منها وما بطن، ولا أحدٌ أحبّ إليه العذرَ مِنَ اللَّهِ، من أجلِ ذلك بعث المنذِرين والمبشرين، ولا أحدٌ أحب إليه المدحةَ من اللَّهِ، من أجلِ ذلك وعَدَ اللَّهُ الجنةَ»(٣).

(*) أخذ هذا الموضوع من كتاب الاستقامة لابن تيمية (٢/٣ ـ ٦٥).

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم والدارمي.

وفي الصحيح عن «أسماء» أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا شيءَ أغيرُ من اللَّهِ»[1].

وفي الصحيح عن «أبي هريرة» عن النبي ﷺ أنه قال:

«إنّ اللَّهَ يغارُ، وغيرةُ اللَّهِ أن يأتي المؤمنُ ما حُرّمَ عليه»[2].

وفي الصحيحين عن «عائشة» أن النبي ﷺ قال:

«يا أمّةَ محمدٍ، ما أحدٌ أغير من اللَّهِ أن يزنيَ عبدُهُ، أو تزنيَ أمتُهُ»[3].

الغيرة: محمودها ومذمومها:

وفي السنة عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن من الغيرةِ ما يحبُّها اللَّهُ، ومن الغَيْرة ما يكرهُها، فالغيرةُ التي يحبُّها الله الغيرة في الريبة، والغيرة التي يكرهها اللَّهُ الغيرة في غير رَيبة. وإن من الخيلاء ما يحبُّها اللَّهُ، ومن الخيُلاءِ ما يبغضُها اللَّهُ. فالخيلاءُ التي يحبّها اختيال الرجل بنفسه عند الحربِ وعندَ الصدقة، والخيلاءُ التي يبغضُها اختيال الرجل في البغيِ والفخر»[4].

وفي الصحاح أن النبي ﷺ قال «لعمر»:

«دخلتُ الجنةَ فرأيتُ امرأةً تتوضأُ إلى جانبِ قصرٍ، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمرَ بن الخطابِ، فأردتُ أن أدخلَهُ فذكرت غَيْرتَكَ، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله بأبي وأمي أوَ عليك أغَار؟»[5].

وكذلك عامة ما يطلق من الغيرة إنما هو من جنس الفواحش. وبيّن النبي ﷺ أنه أغير من غيرة المؤمن، وأن المؤمن يغار والله يحبّ الغيرة، وذلك في الريبة، ومن لا يغار فهو ديوثٌ، وقد جاء في الحديث: **«لا يدخلُ الجنّةَ ديُّوث»**[6].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد.
(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي.
(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد.
(٤) رواه أبو داود والنسائي والدارمي وأحمد وابن ماجة.
(٥) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة.
(٦) رواه الطبراني والنسائي وأحمد.

فالغيرة المحبوبة هي ما وافقت غيرة الله تعالى، وهذه الغَيرة هي أن تُنتهك محارم الله، وهي أن تؤتىٰ الفواحش الباطنة والظاهرة. لكن غيرة العبد الخاصة هي من أن يشركه الغير في أهله، فغيرته عن فاحشة أهله ليس كغيرته من زنا الغير، لأن هذا ما يتعلق به، وذاك لا يتعلق به إلّا من جهة بغضه لمبغضة الله.

ولهذا كانت الغيرة الواجبة عليه هي من غيرته على أهله، وأعظم ذلك امرأته، ثم أقاربه، ومَنْ هو تحت طاعته. ولهذا كان له إذا زنت أن يلاعنها لما عليه في ذلك من الضرر، بخلاف ما إذا زنا غير امرأته.

ولهذا يُحد قاذف المرأة التي لم يكمل عقلها ودينها إذا كان زوجها محصَناً في أحد القولين، وهو إحدى الروايتين عن «أحمد».

فالغيرة الواجبة ما يتضمنه عن المخزي، والغيرة المستحبة ما أوجبت المستحب من الصيانة. وأما الغيرة في غير ريبة وهي الغيرة في مباح لا ريبة فيه، فهي مما لا يحبّه الله، بل ينهى عنه إذا كان فيه ترك ما أمر الله. ولهذا قال النبي ﷺ:

«لا تمنعُوا إماءَ اللَّهِ مساجدَ اللَّهِ، وبيوتُهنَّ خيرٌ لهنَّ»[(١)].

غيرة النساء!!!:

وأما غيرة النساء بعضهن من بعض فتلك ليس مأمور بها، لكنها من أمور الطباع، كالحزن على المصائب. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال:

«كلوا، غارَتْ أمُّكُمْ»[(٢)].

لما كُسرت القصعة وقالت «عائشة»:

[أولا يغارُ مثلي على مثلك].

وقالت:

[ما غرتُ على امرأةٍ ما غرتُ على خديجة].

وعن «فاطمة» أنها قالت للنبي ﷺ:

[إن الناس يقولونَ إنك لا تغار لبناتك].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد.

(٢) رواه البخاري وابن ماجة والنسائي والدارمي.

ولما أراد «علي» أن يتزوج «بنت أبي جهل». وخطب النبي، وذكر صهراً له من «أبي العاص». وقال:

«حدثني فصدقني، ووعدني فوفّاني، وقال: إن بني العاص استأذنوني في أن يزوجوا بنتهم علياً، وإني لا آذن، ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي ويتزوج ابنتهم، والله: لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل أبداً»[1].

انقسام الناس في الغيرة:

وهنا انقسم بنو آدم أربعة أقسام:

١ ـ قوم لا يغارون على حرمات الله بحال ولا عن حُرُمِها، مثل الديّوث ومثل أهل الإباحة الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق. ومنهم من يجعل ذلك سلوكاً وطريقاً:

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ ﴾[2].

٢ ـ وقوم يغارون على ما حرمه الله وعلى ما أمر به مما هو من نوع الحب والكره، يجعلون ذلك غيرة، فيكرَهُ أحدهم من غيره أموراً يحبّها الله ورسوله، ومنهم من جعل ذلك طريقاً وديناً، ويجعلون الحسد والصدّ عن سبيل الله وبغض ما أحبه الله ورسوله غيرة.

٢ ـ وقوم يغارون على ما أمر الله به دون ما حرمه، فنراهم في الفواحش لا يبغضونها ولا يكرهونها، بل يبغضون الصلوات والعبادات كما قال تعالىٰ:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[3].

٤ ـ وقوم يغارون مما يكرهه الله، ويحبون ما يحبه الله، هؤلاء هم أهل الإيمان... وتكون لفظ الغيرة مرادفة للفظ البغض، والمقت[4]، والسخط، وهذا المعنى حسن موافق للشريعة.

---

(١) رواه البخاري وابن ماجة ومسلم.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥٩.
(٤) المقت: أشد البغض.

الغيرة الإلّهية والغيرة البشرية:

و «للشبلي» رحمه الله كلامٌ رائعٌ في الغيرة يقول:

[الغيرة غيرتان: فغيرة البشرية على النفوس، وغيرة الإلٰهية على القلوب. أما غيرة الإلّهية على الأنفاس أن تضيع في سوى الله، إذا فُسر بأن البشر يغارون على الحظوظ فما هو من جنس المنافسة والمحاسدة وليس هذا بمحمود، وأما الغيرة الإلهية على القلوب، على ما يفوتها من محابِّ الحق ومراضيه].

فهذا من أحسن كلام «الشبلي» فإن كان هذا يغار على نفسه فلا كلام.

وإن كان يغار من حال غيره ففيه شبه من قول النبي ﷺ:

«لا حَسَدَ إلا في اثنتينِ: رجلٍ آتاهُ اللَّهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلِّمها، ورجلٍ آتاهُ الله مالاً فسلَّطهُ على هلكته فِي الحقِّ»[١].

فإن أخبر أنه لا ينبغي لأحد ولا يغبط أحداً إلا على هذا.

وكذلك ما ذكره «أبو القاسم القشيري» بعد ذلك حيث قال:

[والواجب أن يقال: الغيرةُ غيرتان: غيرةُ الحق على العبد: وهو أن لا يجعله لخلق فيضنّ[٢] به عليهم، وغيرة العبد للحق: وهو أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحق، فلا يُقال: أنا أغار على الله ولكن يقال: أنا أغار لله، فإن الغيرة على الله جهل، وربما تؤدي إلى ترك الدين، والغيرة لله تُوجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له. . .].

وهكذا فالنبي ﷺ قد بيّن أنّ غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه، وهذا يشترك فيه السابقون والمقتصدون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم السابقون يجعل أعمالهم كلها لله، فإنهم الذين لا يزالون يتقربون إلى الله بالنوافل حتى يحبّهم، ومن أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان. فإذا صانهم عن العمل لغيره، فصارت أعمالهم كلها لله، تركوا المحارم، وأتوا بالواجبات والمستحبات.

الغيرة المذمومة حجاب:

ومن الغيرة المذمومة ما ذكره طائفة من السلف قالوا:

---

(١) رواه البخاري وأحمد.

(٢) يضن: يبخل.

[لا تقبل شهادة القراء - أو قالوا الفقهاء - بعضِهم على بعضٍ، لأنّ بينهم حسداً كحسد النفوس على زريبة الغنم].

ويقال: فلان وفلان يتصاولون على الرياسة تصاول الفحلين، فلا ريب أن فحول البهائم تتغاير وتتحاسد وتتصاول على إناثها، يطلبُ كل منها من الآخر أن لا يزاحمه. كما يتغاير الفحول الآدميون على مناكحهم.

وهذا - فيما أمر الله به - محرم. كما قال رسول الله ﷺ:

«لا تحاسَدوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[1].

وكذلك شبه تغاير الضراير.

لكن هنا قد يَعترضُ أمر فيه شبهة؛ وهو أن يكون من المعارف والأحوال ما يقال فيه: إنه لا يصلح لبعض الناس، فيغار أحدهم أن تكون الأمور كذلك المنقوص الذي يصنع مثل ذلك، ويصفون الله بالغيرة أن يجعل هذا كهذا، فهذا قد يكون حقاً، وإن لم يسمّ في الشرع غيرةً، فإن الله سبحانه يكره ويبغض أن يكون مع العبد ما يستعين به على معصية الله دون طاعته، وأن يكون ما جعله للمؤمنين مع الكفار والمنافقين، وكذلك المؤمنون ينبغي أن يكرهوا ذلك، فكل ما نهىٰ الله عنه وأمر المؤمنين بالمنع منه وإزالته فهو يكرهُهُ كما قال تعالىٰ:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[2].

قال طائفة من السلف: [أمنع قلوبهم عن فهم القرآن].

هذا ما ذكره عن «السري» أنه قُرىء بين يديه:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[3].

فقال «السري» لأصحابه:

[أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجابُ الغَيْرةِ، ولا أحد أغير من الله تعالىٰ].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة ومالك وأحمد.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.
والسري: هو سري السقطي: أحد المتصوفين العباد النساك.

فهو يشبه قوله تعالىٰ:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ ﴾[1].

فالله عاقب المُعرضَ عن اتباع ما بعث به رسله بالحجاب الذي في قلوبهم، فسمّى «السري» هذا حجابَ الغيرة. لأنه تعالى يكره ويبغض أن يكون هؤلاء الذين كفروا وفسقوا عن أمره يُعطَون ما يعطاه المؤمن من الفهم، لسبب هذه الغيرة التي وصف الرسول بها ربه. فإن غيرته أن يأتي العبد ما حُرم عليه. ذكرها النبي ﷺ وهي غيرة على ما هو من أفعال العبد التي نهى عنها. وأما هذه الغيرة فهي غيرة على ما هو من فعل الرب.

والنبي ﷺ لم يصف الله بأنه يغار على ما يقدر عليه من الأفعال، ولكن لما رأى «السري» أن الشيء المحبوب للنفس تغار عليه أن يكون في غير محله سمّى ذلك حجاب الغيرة، والله يحب لعباده أن يفعلوه من جهة كونهم مأمورين به، لكنه سبحانه لا يفعله بهم ولا يحب من يفعله بهم، ولا بدّ من التفريق بين مواقع الأمر والنهي، ومواقع القضاء والقدر.

وإن كانت الأفعال الواقعة من العباد يشترك فيها الأمر والنهي.

منع الحق غيرة:

كان أحد السلف إذا وقع شيء في خلال المجلس يشوش قلوب الحاضرين يقول: [هذا من غيرة الحق] يريد أن لا يجري ما يجري من صفاء هذا الوقت. وأنشدوا في معناه:

١ ـ همّت بإتياننا حتى إذا نَظَرَتْ إلى المرآة نهاهَا وجهُهَا الحَسَنُ
٢ ـ ما كان هذا جزائي في محاسِنِها عُذّبتُ بالهجرِ حتى شفني الحزَنُ[2].

كذلك سمّوا منع الحق غيرة، وهذا المعنى صحيح كما قال تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[3].

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) شفّ الحبُّ فلاناً: هزله وأوهنه.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

وهذا المعنى نجد شبيهاً له في آية أخرى:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

وهذا المعنى إذا ذكر العبد وظلمه وإقامة الحجة عليه، أو بيان حكمة الرب وعدله كان حسناً. فإن الله سبحانه يقول:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[2].

وهو لا يمنع من ذلك ما يستحقه العبد أصلاً، ولا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه وهو العمل الصالح، فأما مع وجود السبب وهو العمل الصالح:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[3].

وقال «أبو القاسم القشيري»:

[واعلموا أن من سنة الحق مع أوليائه أنهم إذا ساكنوا غيراً، أو لاحظوا شيئاً، أو ضاجعوا بقلوبهم شيئاً شوش عليهم ذلك، فيغارُ على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه، فارغة عما ساكنوه، أو لاحظوه، أو ضاجعوه، كآدم عليه السلام لما وطّن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه منها.

و «إبراهيم عليه السلام» لما أعجبه «إسماعيل عليه السلام» أُمر بذبحه حتى أخرجه من قلبه.

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾[4].

وصفا سرّه منه أَمَرَهُ بالفداء عنه].

ونقل عن «محمد بن حسان» قوله:

[بينما أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج علينا رجل شاب قد أحرقته السموم والرياح،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٢.
(٤) سورة الصافات، الآية: ١٠٣.

فلما نظر إلي ولىٰ هارباً، فتبعته، وقلت له: تعظني بكلمة؟ فقال: احذروه فإنه غيور، لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه].

حصر الطريق بالله هو من غيرة الله:

وقال:

[الحقُّ غيور، ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه].

وأعظم الذنوب أن تجعل لله نداً وهو خلقك، وتجعل معه إلهاً آخر. والشرك منه جليل، ومنه دقيق؛ فالمقتصدون قاموا بواجب التوخي.

والسابقون المقربون قاموا بمستحبه مع واجبه، ولا شيء أحب إلى الله من التوحيد، ولا أبغض إليه من الشرك، ولهذا كان الشرك غير مغفور، بل هو أعظم الظلم، وقد قال النبي ﷺ:

«مَثَلُ المؤمن مثلُ الخامَةِ من الزرع تفيئُها الرياحُ تارةً تميلُها، وتعدلُها أخرى، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزِ لا تزال ثابتةً على أصلها حتى يكون انجعافُها[1] مرة واحدة»[2].

فالله يبتلي عبده المؤمن ليطهره من الذنوب والمعايب، ومن رحمته بعبده المخلص أن يصرف عنه ما يغار عليه منه كما قال تعالىٰ:

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[3].

وقوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[4].

فإذا صرف عنه ما يغار عليه منه كان ذلك من رحمته به واصطفائه إياه، وإن كان في ذلك مشقة عليه، فهو تارة يمنعه مما يكرهه له. وتارة ليطهره منه بالابتلاء، فإذا كان يغار من ذلك فإذا فعل العبد ما يغار عليه فقد يعاقبه على ذلك بقدر ذنبه.

---

(١) انجعافها: اقتلاعها.
(٢) رواه البخاري ومسلم والدارمي وأحمد.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩٩.

كما قال «أبو القاسم القشيري»:

[حكي عن السّري أنه قال: كنت أطلب رجلاً صدّيقاً مرة من الأوقات، فمررت في بعض الجبال، فإذا أنا بجماعة زمنى، ومرضى، وعميان، فسألت عن حالهم، فقالوا: ها هنا رجل يخرج في السنة مرة، فيدعو لهم، فيجدون الشفاء، فبصرت حتى خرج ودعا لهم، فوجدوا الشفاء، فقفوت أثره وتعلقت به، وقلت له: بي علةٌ باطنة فما دواؤها؟ يا سري: خلّ عني فإنه غيورٌ، ولا يراك متساكن غيرَهُ فتسقطَ من عينه].

وهذا من قوله تعالىٰ:

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾(1).

وقوله أيضاً:

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾(2).

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾(3).

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾(4).

وقوله تعالىٰ:

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(5).

وقوله تعالىٰ:

﴿ فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾(6).

---

(1) سورة الإسراء، الآية: ٢٢.
(2) سورة الشعراء، الآية: ٢١٣.
(3) سورة الحج، الآية: ٣١.
(4) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(5) سورة الأنعام، الآية: ٨٨.
(6) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

خلاصة البحث:

والخلاصة:

فالغيرة المحمودة: إما ترك ما نهى الله عنه، أو ترك ما لم يأمر الله به ولا أوجبه، ومن لم يكن فيه أحد الحالين فهو ممن فسق عن أمر ربه.

والثانية: حال الكُمّل الصادقين:

فأما الغيرة على ما لم يحرمه، أو على ما أباحه الله لعباده أن يفعلوه وهو لا يكرهه ولا يسخطه، فهو مذموم.

وهذه هي [الغيرة الاصطلاحية]: من مدحها مطلقاً فقد أخطأ، ومن ذمها مطلقاً فقد أخطأ. والصواب أن يحمد منها ما حمده الله ورسوله، ويذّم منها ما ذمه الله ورسوله.

وهذا يقع كثيراً للسالكين في هذا الخُلُق وغيره، فإنه يلبس الحق بالباطل، والآخرون يعظمونه لما فيه من الحق والصواب الفرقان.

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[1].

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.

الدعـــاء

آداب الدعاء وأنواعه:

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة.

فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعها، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضرر والنفع فإنه هو المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر، ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً وذلك كثير في القرآن كقوله تعالىٰ:

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾[2].

وكقوله تعالىٰ:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[3].

فنفىٰ سبحانه من هؤلاء المعبودين الضرّ والنفع للقاصر والمعتدي، فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم. فهذا كثير في القرآن يبيّن تعالىٰ أن المعبود لا بدّ أن يكون مالكاً للنفع والضر، فهو يدعو للنفع والضرّ دعاء المسألة، ويدعو خوفاً ورجاء دعاء العبادة،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٦.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٨.

فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكلّ دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1].

يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فُسّرت الآية، قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان. وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً. فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع وقل ما يُفطن له، وذكر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعداً، فهي من هذا القبيل. مثال قوله تعالىٰ:

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾[2].

فسر (الدلوك) بالزوال وفُسّر بالغروب. وليس بقولين بل اللفظ يتناولهما معاً، فإن الدلوك هو الميل، ودلوك الشمس: ميلها. ومن ذلك قوله تعالىٰ:

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾[3].

أي دعاؤكم إياه، وقيل: دعاؤه إياكم إلى عبادته، فيكون المصدر مضافاً إلى المفعولين، ومحل الأول مضافاً إلى الفاعل وهو الأرجح من القولين. وعلى هذا فالمراد به نوعي الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر. أي ما يعبأ بكم لولا أنكم ترجونه، وعبادته تستلزم مسألته فالنوعان داخلان فيه.

من ذلك قوله تعالىٰ:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[4].

فالدعاء يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر ولهذا أعقبه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾[4].

الآية.

ويفسر الدعاء في الآية بهذا وهذا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

(٤) سورة غافر، الآية: ٦٠.

ولقد روى «الترمذي» عن «النعمان بن بشير» قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر:

(إنّ الدعاءَ هو العبادة، ثم قرأ قوله تعالىٰ:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1].

وأما قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾[2].

وقوله:

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ﴾[3].

وقوله:

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾[4].

وكلّ موضعٍ ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة، أظهر لوجوه ثلاثة:

١ ـ أنهم قالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[5].

فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم...

٢ ـ أن الله تعالىٰ، فسر هذا الدعاء في موضع آخر كقوله تعالىٰ:

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[6].

وقوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[7].

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وابن ماجة والبخاري في الأدب والحاكم وابن حبان والنسائي.
(٢) سورة النجم، الآية: ٧٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٧.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٨.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٦) سورة الشعراء، الآية: (٩٢، ٩٣).
(٧) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

وقوله تعالىٰ:

﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[1].

فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم.

٣ ـ أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء، فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده، وتركوها. مع هذا، فكانوا يسألونها بعض حوائجهم، ويطلبون منها فكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة.

وقوله تعالىٰ:

﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[2].

هو دعاء العباد. والمعنى: اعبدوه وحده، وأخلصوا عبادته، لا تعبدوا معه غيره. وأما قوله تعالىٰ:

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[3].

يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر ففي دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره. قال «الحسن»:

[بين دعوة السرِّ ودعوة العلانية سبعون ضعفاً].

ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، أي ما كانت إلاّ همساً بينهم وبين ربهم عز وجل، وذلك أن الله عز وجل يقول:

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾.

وأنه ذكر عبداً صالحاً ورضي بفعله فقال:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾[4].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

١ ـ أنه أعظم إيماناً، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

---

(١) سورة الكافرون، الآية: ٢.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.
(٤) سورة مريم، الآية: ٣.

٢ ـ أنه أعظم في الأدب والتعظيم، لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه[١]، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفيَّ فلا يليق بالأدب بين يديه إلاّ خفضَ الصوتَ به.

٣ ـ أنه أبلغ من التضرع الخشوع الذي هو روح الدعاء ولبُّه ومقصودُه، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة ذليل قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشعَ صوته، حتى إنه ليكاد يبتلع ذلّته، وسكينته، وضراعته إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوعه بالنطق، وقلبه يسأل طالباً مبتهلاً، ولسانه لشدّة ذِلَّته ساكتاً، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

٤ ـ أنه أبلغ في الإخلاص.

٥ ـ أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلّة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه، فكلما خَفَضَ صوته كان أبلغ في تجريد همته، وقصده للمدعو سبحانه.

٦ ـ وهو من النكت البديعة جداً: أنه دال على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾[٢].

فلما استحضر القلب قُرُب الله عز وجل وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه، وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال:

«اربَعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدْعُون أصمّاً ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً أقربَ إلى أحدكم من عُنق راحلته»[٣].

٧ ـ أنه ادعىٰ إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يملُّ، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يمل اللسان، وتضعف قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر، فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له بخلاف من خفض صوته.

٨ ـ أن إخفاء الدّعاء أبعد له من القواطع والمشوشات، فإن الداعي إذا أخفى

---

(١) المقت: أشد البغض.
(٢) سورة مريم، الآية: ٣.
(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.
واربعوا: أي تثبتوا وانتظروا، وقيل: ارفقوا بأنفسكم.

دعاءه لم يدرِ به أحدٌ، فلا يحصل على هذا التشويش ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا بدّ، ومانعته، وعارضته، ولو لم يكن إلاّ أن تعلقها به يفزع عليه همته فيضعف أثر الدعاء، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسرّ الدعاء أمن هذه المفسدة.

٩ ـ أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد، ولكلّ نعمة حاسد على قدرها دقّت أو جَلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفُسَ الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته من الحاسد، وقد قال «يعقوب» «ليوسف» عليهما السلام:

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ﴾[1].

وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله تعالى قد تحدث بها وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى ولا يطلع عليه أحد. والقوم أعظم شيئاً كتماناً لأحوالهم مع الله عز وجل وما ذهب الله من محبته والأنس به، وجمعية القلب ولا سيما فعله للمهتدي السالك فإذا تمكن أحدهم، وقوي وثَبت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه، بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدىٰ حاله مع الله ليقتدي به ويؤتم به ـ لم يبالِ، وهذا باب عظيم النفع إنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله تعالىٰ فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

١٠ ـ أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه وتعالى متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاءً لتضمنه للطلب، كما قال النبي ﷺ:

«أفضل الدعاء الحمد لله»[2].

فسمّى الحمد لله دعاءً وهو ثناء محض، لأن الحمد متضمن الحبّ والثناء، والحبّ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٢) شطر من حديث نصُّه:
«أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعـاء الحمد لله».
رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وابن حبان.
ومعنىٰ: أفضل الدعاء الحمد لله: أي مقدماته وتتماته.

أعلى أنواع الطلب: فالحامدُ طالب للمحبوب، فهو أحبّ أن يسمى داعياً من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه...

وقد رُوي عن «مجاهد» و «ابن جريج»:

[أمروا أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دونَ رفع الصوت والصياح].

وتأمّل كيف قال تعالى في آية الذكر:

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ ﴾(١).

وفي آية الدعاء:

﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾(٢).

فذكر التضرع فيهما معاً، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو: روح الذكر والدعاء. ولهذا ورد عن بعض السلف قوله:

[من عبدَ الله بالحبّ وحده فهو زنديقٌ، ومن عبدَهُ بالخوف وحْدَهُ فهو حَروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مُرجىء، ومن عَبَدَه بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن](٣).

الاعتداء في الدعاء:

وأما قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾(٤).

قيل: المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء، كأن يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك، وكما روى «أبو داود» في سننه عن «عبد الله بن مغفل» أنه سمع ابنه يقول: [اللهمّ إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها!! فقال يا بني: سلِ اللّهَ الجنّة، وتعوذْ بهِ من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.
(٣) الحرورية: لقب أطلق على الخوارج، نسبة إلى قرية حرور التي لجأوا إليها أول ما انفضوا عن علي.
المرجئة: فرقة كلامية إسلامية، وسمي رجالها بهذا الاسم لأنهم قالوا بإرجاء أمر الذين سفكوا الدماء، واختلفوا في أمر الخلافة إلى الله، وإلي يوم القيامة.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

«سيكونُ في هذهِ الأمةِ قومٌ يعتدونَ في الطّهورِ والدُّعاءِ»[1].

وفُسِّر الاعتداء برفع الصوت أيضاً في الدعاء، أو أن يسأل ما لا يفعل الله، مثل أن يسأل تخليده إلى يوم القيامة، أو أن يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية؛ كالأكل، ومن الاعتداء أيضاً أن يدعوه غير متضرع، بل دعاء هذا كالمستغني المولي على ربه، وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته الذل، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتدٍ. . . وعلى هذا تكون الآية دالّة على شيئين:

١ ـ محبوب للربّ سبحانه، وهو الدعاء تضرعاً وخفية.

٢ ـ مكروه له مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبّه وحذّر مما يبغضه.

وفي قصة بدر يقول الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾[2].

الدعوة إلى الله:

وأما قوله تعالىٰ:

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[3].

فالمقصود بالدعوة إلى الله: الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله، وتتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والإيمان بالملائكة، والكتب، والبعث، وبالقدر خيره وشره. . . والدعوة إلى أن يعبدَ العبد ربَّه كأنه يراه. . .

وهذه هي الدرجات الثلاث: ١ ـ الإيمان، ٢ ـ الإسلام، ٣ ـ الإحسان.

وهكذا فالرسل كلهم أتوا بنفس الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية كما في قوله تعالىٰ:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾[4].

---

(١) رواه أبو داود وأحمد وابن ماجة.
(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٩، ١٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[1].

وهكذا نجد السور المكية تضمنت الأحوال التي اتفقت عليها رسل الله... أمّا المدنية فالخطاب فيها لمن يقر بأصل الرسالة... والرسول ﷺ فقام بهذه الدعوة فأمر الخلق بكل ما أمر الله به، ونهاهم عن كلّ ما نهى الله عنه لذا.

قال تعالىٰ:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[2].

الله قريب من عباده:

يقول الله عز وجل (في الحديث القدسي):

يا ابن آدمَ: إنما هي أربعة، واحدةٌ لي، وواحدةٌ لك، وواحدةٌ بيني وبينك، وواحدةٌ بينك وبين خَلْقي:

فأما التي لي فتعبدني ولا تشرك بي شيئاً.

وأما التي لك فعملك أجازيك به أحوجَ ما تكون إليه.

وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاءُ وعليّ الإجابةُ.

وأما التي بينك وبين خلقي فآتي للناسِ ما تحبُّ أن يأتو إليك[3].

وقال تعالىٰ في كتابه العزيز:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[4].

وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول، وكل عابد له فهو أيضاً راغب وراهب

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

(٣) رواه أبو يعلىٰ وأبو نعيم، كما رواه أبو داود والطبراني بدون (وواحدة بينك وبين خلقي).

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

يرجو رحمته، ويخاف عذابه، فكل عابد سائل، وكل سائل عابد، فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه.

ولكن إذا اجتمع بينهما فإنه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب، ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وإن لم يكثر في ذلك صيغ سؤال.

والعابد الذي يريد وجهه تعالىٰ والنظر إليه هو أيضاً راجٍ، خائف، راغب، راهب، يرغب في حصول مراده، ويرهب من فواته.

قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[2].

ولا يُتصور أن يخلو داعٍ لله ـ دعاء عبادة أو دعاء مسألة ـ من الرغب والرهب من الخوف والطمع.

مفاهيم خاطئة عند بعض الشيوخ:

وما يذكر عن بعض الشيوخ أنه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة، فهذا قد يفسر مراده بأن المقربين يريدون وجه الله، فيقصدون التلذذ بالنظر إليه، وإن لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به، وهؤلاء يرجون حصول المطلوب ويخافون حرمانه، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء لكن مرجوهم ومخوفهم بحسب مطلوبهم.

ومن قال من هؤلاء: [لم أعبدك شوقاً إلىٰ جنتك، ولا خوفاً من نارك]، فهو يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات.

وهذا قصور وتقصير منهم على فهم مسمىٰ الجنة بل كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة، والنظر إليه هو من الجنة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٦.

ولهذا كان أفضل الخلق (رسول الله ﷺ) يسأل الجنة، ويستعيذ من النار.

ولما سأل بعض الصحابة أو أصحابه عما يقول في صلاته قال:

«إني أسألُ الله الجنةَ، وأعوذ بالله من النار، أما إني لا أحسنُ دندنَتكَ ولا دندنةَ معاذ فقال: حولَها ندندنُ»[1].

وقد أنكر على من قال هذا الكلام، يعني أسألك لذة النظر إلىٰ وجهك وفريق من أهل الكلام، ظنوا أن الله لا يُتَلذذ بالنظر إليه، وأنه لا نعيم إلا بمخلوق، فغلط هؤلاء في معنىٰ الجنة، كما غلط أولئك، لكن أولئك طلبوا ما يستحق أن يُطلبَ، وهؤلاء أنكروا ذلك.

أما التألم بالنار فهو أمر ضروري. ومن قال:

[لو أدخلتني النار لكنت راضياً] فهو عزم منه على الرضا، والعزائم تنفسخ عند وجود الحقائق، ومثل هذا يقع في كلام طائفة مثل «سمنون» الذي قال:

وليس لي في سواك حظٌّ فكيف ما شئت فامتحني

فابتُلي بعسر البول، فجعل يطوفُ على صبيان المكاتب ويقول: [ادعوا لعمكُمُ الكذاب].

قال تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[2].

الاستعانة بالله عز وجل:

قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز:

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وجاء في الحديث الشريف:

«أفضلُ الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاءِ الحمدُ لله»[3].

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد.
ندندن: نصوِّت.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٣.

(٣) رواه ابن ماجة وابن أبي الدنيا، كما رواه غيرهما بألفاظ قريبة.

رواه ابن ماجة، وابن أبي الدنيا.

وقال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي:

«دعوةُ أخي ذي النون ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾، ما دعا بها مكروبٌ إلا فرَّجَ اللَّهُ كربته»(١).

سماها دعوة لأنَها تتضمن نوعي الدعاء.

فقوله: لا إله إلا الله اعتراف بتوحيد الألوهية.

وتوحيد الألوهية يتضمن أحد نوعي الدعاء، فإن الإله هو المستحق لأن يُدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة، وهو الله لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(٢).

اعتراف بالذنب، وهو يتضمن طلب المغفرة.

فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب، وتارة بسيرة الخبر، إما بوصف حاله، وإما بوصف حال المسؤول، وإما بوصف الحالين.

كقوله نوح عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾(٣).

فهذا ليس صيغة طلب وإنما هو إخبار عن الله أنه إن لم يغفرْ له ويرحمه خسر.

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة، وكذلك قول آدم عليه السلام:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾(٤).

هو من هذا الباب، ومن ذلك قول موسىٰ عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٥).

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٥) سورة القصص، الآية: ٢٤.

فإن هذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير، وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه.

وقد روىٰ «الترمذي» وغيره عن النبي ﷺ أنه قال:

«من شغله قراءةُ القرآنِ عن ذِكري ومسألتي أعطيتُهُ أفضل ما أُعطي السائلين»[1].

قال «الترمذي»: حديث حسن رواه «مالك بن الحويرث».

وقال ﷺ:

«من شغلَهُ ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[2].

وأن البيهقي رواه مرفوعاً بهذا اللفظ.

وقد سئل «سفيان بن عيينة» عن قوله ﷺ:

«أفضلُ الدعاء يومَ عرفة لا إله إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريك له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو علَى كلِّ شيءٍ قديرٌ»[3].

فذكر هذا الحديث، وأنشد قول «أمية بن أبي الصلت».

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني   حباؤك إنّ شيمتكَ الحباءُ[4]
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً   كفاهُ من تعرضه الثناءُ

قال:

فهذا مخلوق يخاطب مخلوقاً، فكيف بالخالق تعالىٰ؟؟

ومن هذا الباب قول أيوب عليه السلام:

[اللهم لك الحمدُ، وإليك المشتكىٰ، وأنت المستعانُ، وبكَ المُستغاثُ، وعليك التكلان].

فهذا خبر يتضمن السؤال.

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه البخاري في خلق أفعال العباد، وأبو نُعيم في المعرفة والبيهقي في الشعب وعبد الرزاق وابن أبي شيبة.
(٣) رواه مالك في الموطأ والترمذي وابن ماجة.
(٤) الحباء: إعطاء الشيء بغير عوض.

ومن هذا الباب قول أيوب عليه السلام:

﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[1].

فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره، وهي صيغة خبر تضمنت السؤال.

وهذا من باب حسن الأدب في السؤال والدعاء.

فقول القائل لمن يعظمه ويرغب إليه: أنا جائع، أنا مريض، حسنُ أدب في السؤال.

وهذه الصيغة (صيغة الطلب والاستدعاء) إذا كانت لمن يحتاج إليه الطالب، أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك، فإنها تقال على وجه الأمر؛ إما لما في ذلك من حاجة للطالب، وأما لما فيه من نفع المطلوب.

فأما إذا كانت من الفقير من كل وجه للغني من كل وجه، فإنها سؤال محض بتذلـل وافتقار وإظهار الحال.

ووصف الحال والافتقار هو سؤال بالحال، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان، وذلك أظهر من جهة القصد والإرادة، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني، لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده، فيطلبه ويسأله، فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول، وتصريح به باللفظ، وإن لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسؤول، فإن تضمن وصف حالهما كان أكمل من النوعين، فإنه يتضمن الخبر والعلم المقتضي للسؤال والإجابة، ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال، فيتضمن السؤال والمقتضىٰ له والإجابة.

كقول النبي ﷺ «لأبي بكر الصديق» رضي الله عنه لما قاله له: [علمنى دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال:

«قل اللهم ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذُنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفورُ الرحيمُ»[2].

أخرجاه في الصحيحين.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك كقول موسىٰ عليه السلام:

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾(١).

فهذا طلب ووصل للمولىٰ بما يقتضي الإجابة.

وقوله:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾(٢).

فيه وصف حال النفس والطلب.

وقوله:

﴿ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾(٣).

فيه الوصف يتضمن السؤال بالحال، فهي أنواع، لكل نوع منها خاصة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة القصص، الآية: ١٦.
(٣) سورة القصص، الآية: ٢٤.

ذم الظلم

الله حرم الظلم على نفسه:

عن أبي «ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه:

«يا عبادي: إني حرَّمْتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكُمْ محرَّماً، فلا تظالموا. يا عبادي: كلكُمْ ضالٌّ إلا مَنْ هديتُهُ، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكّم جائعٌ إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كَسَوتُهُ، فاستكسوني أكسكم. . .» إلى آخر الحديث[1].

ففي القول:

«إنيْ حرمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلته بينكم محرماً».

مسألتان: إحداهما: في الظلم الذي حرمه الله على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله تعالىٰ:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾[2].

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[3].

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[4].

---

(١) رواه مسلم، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة بلفظ قريب.

(٢) سورة النحل، الآية: ١١٨.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

وقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[1].

وقوله تعالىٰ:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[2].

ونفى إرادته بقوله:

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

قوله:

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[4].

ونفى خوف العباد له بقوله تعالىٰ:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[5].

فإن الناس تنازعوا في معنى هذا الظلم تنازعاً صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما، وخيار الأمور أوساطها، وذلك بسبب البحث في القَدَر ومجامعته للشرع، إذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم، ولهذا نهى النبي ﷺ أصحابه عن التنازع فيه.

فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأنّ الله لم يخلق أفعال العباد، ولم يُرِدْ أن يكون إلا ما أمر بأن يكون، وغُلاتُهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم: إلى أن الظلم منه وهو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض، وشبهوه، ومثلوه في الأفعال، بأفعال العباد، حتى كانوا ممثلّة الأفعال، وضربوا لله الأمثال، ولم يجعلوا له المثل الأعلى، بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد، وإثبات الحكم في الأصل بالرأي، وقالوا عن هذا: إذا أمر العبد ولم يُعِنْهُ بجميع ما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظلماً له، والتزموا أنه لا يقدر أن يهدي ضالاً، كما قالوا: إنه لا يقدر أن يضل مهتدياً، وقالوا عن هذا: إذا أمر

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٨.

(٤) سورة غافر، الآية: ٣١.

(٥) سورة طه، الآية: ١١٢.

اثنين بأمر واحد وخصّ أحدهما بإعانته على فعل المأمور كان ظالماً! إلى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظلماً.

وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدراً ظلم له، ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم، وإن كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمة أخرى عامة أو خاصة.

وهذا الموضع زلّت فيه أقدام، وضلّت فيه أفهامٌ، فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين فقالوا:

ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها، بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها، فلا يجوز أن يكون مقدوراً ولا أن يقال: إنه هو تارك له باختياره ومشيئته، وإنما هو من باب الجمع بين الضدّين، وجعل الجسم الواحد في مكانين، وقلْبِ القديم محدثاً، والمحدث قديماً، وإلا فمهما قدر في الذهن وكان وجوده ممكناً والله قادرٌ عليه فليس بظلم منه، سواء فعله أم لم يفعله.

مناظرة حول الظلم:

وتلقى هذا القول عن هؤلاء الطوائف من أهل الإثبات من الفقهاء، وأهل الحديث من أصحاب «مالك» و«الشافعي» و«أحمد» وغيرهم، ومن شراح الحديث ونحوهم، وفسروا هذا الحديث بما ينبني على هذا القول، وربما تعلقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما رويناه عن «إياس بن معاوية» أنه قال:

[ما ناظرت بعقلي كله أحداً إلا القدرية قلت لهم: ما الظلم؟ قالوا: أن تأخذ ما ليس لك، أو أن تتصرف فيما ليس لك، قلت: فللّه كل شيء!!].

وليس هذا من «إياس» إلا ليبين أن التصرفات الواقعية هي في ملكه، فلا يكون ظلماً بموجب حدهم، وهذا مما لا نزاع فيه بين أهل الإثبات فيه، فإنهم متفقون مع أهل الإيمان بالقدر على أن كل ما فعله الله فهو عدل. وفي حديث الكرب الذي رواه أحمد عن ابن مسعود قال:

قال رسول الله ﷺ:

«ما أصابَ عبداً قط همٌّ ولا حزن فقال: اللهمَّ إني عبدُك، وابن عبدك، وابنُ أَمَتِكَ، ناصيتيْ بيدك، ماض فيّ حكمُك، عَدْلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميّت به نفسَك، أو أنزلتَهُ في كتابكَ، أو علّمتَهُ أحداً من خلقك، أو استأثرتَ بهِ في علم

الغيب عندَك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ غمّي وهمي، إلا أذهبَ اللَّهُ غمّه وهمّه، وأبدله مكانَهُ فرحاً قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمَهُنَّ قال: بلى ينبغي لمن سمعهنّ أن يتعلمهن»[1].

فقد بين أن كل قضائه في عبده عدل، ولهذا يقال: كلُّ نعمة منه فضلٌ، وكل نقمة منه عَدْلٌ. ويقال: أطعمتك بفضلك، والمنةُ لك، وعصيتُك بعلمك ـ أو بعد لك ـ والحجةُ لكَ، فأسألك بوجوبِ حجتك عليّ، وانقطاع حجتي إلا ما غفرت لي.

وهذه المناظرة بين «إياس» كما قال «ربيعة بن عبد الرحمن» «الغيلان» حين قال له «غيلان»:

[نشدتك الله: أترىٰ اللَّهَ يُحب أن يُعصىٰ؟].

فقال: [نشدتك اللَّهَ: أترىٰ اللَّهَ يُعصىٰ قسراً؟] يعني قهراً فكأنما ألقمه حجراً، فإن قولَهُ: يحبُّ أن يُعصى لفظ فيه إجمال، وقد لا يأتي في المناظرة تفسير المجملات خوفاً من لدد الخصم، فيؤتى بالواضحات فقال: أفتراه يُعصىٰ قسراً؟ فإن هذا ألزم له بالعجز الذي هو لازم للقدرية[2]، ولمن هو شر منهم من الدهرية[3] الفلاسفة وغيرهم.

وكذلك «إياس» رأى أن هذا الجواب المطابق لحدهم خاصم لهم، ولم يدخل معهم في التفصيل الذي يطول. وبالجملة قوله تعالىٰ:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[4].

قال أهل التفسير من السلف:

[لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم فينقص من حسناته].

ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليه، فيكون التقدير: لا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات، فإن مثل هذا إذا لم يكن وجوده ممكناً حتى يقولوا: إنه غير مقدور، ولو أراده كخلق المثل له، فكيف يعقل

(١) رواه أحمد والحاكم وأبو يعلىٰ والبزار والطبراني.
(٢) القدرية: جماعة من التابعين قالوا بحرّية الإرادة وقدرة الإنسان على أعماله، رددوا هذا في الشام والعراق، وهي ضد الجبرية، مهدوا للمعتزلة وتلاشوا فيها. . .
(٣) الدهرية: نسبة إلىٰ الدهر وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً، كذلك بنفسه وبلا صانع.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٢.

وجوده؟ فضلاً أن يتصور خوفه حتى ينفي خوفه، ثم أيُّ فائدة من نفي خوفه هذا وقد عُلم من سياق الكلام أن المقصود بيان أن هذا العامل المحسن لا يُجزىٰ على إحسانه بالظلم والهضم. فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزء كما ذكر أهل التفسير.

الظلم خلاف العدل:

العدل: هو الاعتدال، والاعتدال: هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه، والظلم خلاف العدل، فلم يعدل على نفسه بل ظلمها، فصلاح القلب في العدل، وفساده في الظلم. وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم والمظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل، والمعدول عليه، فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر.

قال تعالىٰ:

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾(١).

والعمل له أثر في القلب من نفع وضرٍّ وصلاح قبل أثره في الخارج، فصلاحها عدل لها، وفسادها ظُلْم لها.

قال تعالىٰ:

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾(٢).

وقالَ تعالىٰ:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾(٣).

قال بعض السلف:

[إن للحسنة لنوراً في القلب، وقوةً في البدن، وضياءً في الوجه، وسَعَةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمةً في القلب، وسواداً في الوجْهِ، ووهناً في البَدَنِ، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق].

وقال تعالىٰ:

﴿ كُلُّ ٱمْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾(٤).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧.
(٤) سورة الطور، الآية: ٢١.

وقالَ تعالىٰ:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[1].

وقال:

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾[2].

«وتبسل» أي ترتهن وتحبس وتؤسر. كما أن المريض إذا صح من مرضه قيل: اعتدل مزاجه، والمرض إنما هو بإخراج المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه، لكن الأمثل فالأمثل، فكذا صحة القلب وصلاحه في العدل، ومرضه في الزيغ والظلم والانحراف، والعدل المحض في كل شيء متعذر علماً وعملاً، ولكن الأمثل فالأمثل، ولهذا يقال: هذا أمثل، ويقال للطريقة السلفية: الطريقة المثلى.

قال تعالىٰ:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[3].

وقالَ تعالىٰ:

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[4].

والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس.

الظلم ثلاثة أنواع:

والظلم ثلاثة أنواع: فالظلم كله من أمراض القلوب، والعدل صحتها وصلاحها قال: «أحمد بن حنبل» لبعض الناس:

[لو صححت لم تخف أحداً].

أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك، كمرض الشرك والذنوب. وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته.

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

قال تعالىٰ:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ؟ ﴾[١].

لذلك ذكر الله حياة القلوب، ونورها، وموتها، وظلمتها في أكثر من موضع.

كقوله تعالىٰ:

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢].

وقال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[٣].

ثم قال تعالىٰ:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[٤].

وقال تعالىٰ:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾[٥].

ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

وفي الحديث الصحيح:

«مثلُ البيتُ الذي يُذكر فيه، والبيتُ الذي لا يُذكر فيه، مَثَلُ الحيِّ والميت»[٦].

وفي الصحيح أيضاً:

«اجعلوا من صلاتِكُمْ في بيوتكم، ولا تتَّخذُوها قبوراً»[٧].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٢) سورة يٓس، الآية: ٧٠.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٥) سورة يونس، الآية: ٣١.
(٦) رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان.
(٧) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود وأبو يعلىٰ والترمذي.

وقد قال تعالىٰ:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾(١).

وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة.

فقال تعالىٰ:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾(٢).

فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين:

ثم قال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾(٣).

فالأول: مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئاً ينفعه، فإذا جاءها لم يجد شيئاً ينفعه، فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال.

والثاني: مثل الجهل البسيط وعدم الإيمان والعلم، فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئاً، فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم.

قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النور، الآية: (٣٩، ٤٠).
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

وقالَ تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[1].

وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه، فصرف الله ما كان همّ به، وكتب له حسنة كاملة، ولم يكتب خطيئته إذا فعل خيراً أو لم يفعل سيئة.

وقال تعالىٰ:

﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ ﴾[3].

وقال تعالىٰ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ . . . ﴾[4].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

الخشيـــة

متى تحصل الخشية؟؟

يقول الله تعالىٰ:

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾[1].

الذي يتجنبه الأشقى هو الذي فعله من يخشى وهو التذكر، كذلك فكل من يخشى يتذكر. والخشية قد تحصل عقب الذكر، وقد تحَصل قبل الذكر. وقوله: (من يخشىٰ) مطلق.

ومن الناس من يظن أن ذلك يقتضي أنه لا بدّ أن يكون قد خشي أولاً حتى يذكر، وليست كذلك بل هذا كقوله تعالىٰ:

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقالْ تعالىٰ:

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾[3].

وقالْ تعالىٰ:

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٠ ـ ١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٣) سورة النازعات، الآية: ٤٥.
(٤) سورة قٓ، الآية: ٤٥.

وقالْ تعالىٰ:

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[1].

وهو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه، لم يكن وعيد قبل سماع القرآن، وكذلك قوله الثاني معناه: إنما اتبع الذكر وخشي الرحمٰن بعد أن أنذره الرسول. وتدل الآيات الكثيرة في القرآن على أن كل من يخشى فلا بد أن يتذكر، فقد يتذكر فتحصل له بالتذكر خشية، وقد يخشى فتدعوه الخشية إلى التذكر وهذا المعنى ذكره «قتادة» فقال:

[والله ما خشيَ اللَّهَ عبدٌ إلا ذكره].

خشية الله وخشية عذابه:

وهكذا نجد أن الخشية في القرآن مطلقة تتناول خشية الله، وخشية عذابه في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالىٰ:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾[2].

وقوله تعالىٰ:

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[3].

وقالْ تعالىٰ:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾[4].

كذلك جعل الله الإنابة مع الخشية كما في قوله تعالىٰ:

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾[5].

ذلك لأن الذي يخشى الله لا بد أن يرجوه ويطمع في رحمته، فينيب إليه، ويحبّه، ويحبّ عبادته وطاعته، فإن ذلك هو الذي ينجيه مما يخشاه ويحصل بما يحبه. ولا تكون

---

(١) سورة يٰس، الآية: ١١.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٤٤، ٤٥.
(٣) سورة قٓ، الآية: ٤٥.
(٤) سورة الطور، الآية: ٢٧.
(٥) سورة ق، الآية: ٣٢.

الخشية ممن قطع بأنه معذّب، فإن هذا قطع بالعذاب يكون معه القنوط واليأس، وليس هذا خشية وخوفاً، وإنما يكون الخشية والخوف مع رجاء السلامة، ولهذا قال الله تعالىٰ:

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾[1].

فصاحب الخشية لله ينيب إلى الله، وهذا يكون مع تمام الخشية والخوف:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

خشية العلماء لله عز وجل:

أما قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[3].

يعني أنه لا يخشىٰ إلا عالم، وكل خاشٍ لله فهو عالم، وأن من عصى الله فهو جاهل، وهذا قول السلف «مجاهد» و «الحسن البصري» وغيرهما، وقد رُوي عن «عبد الله بن مسعود» قوله:

[كفىٰ بخشيةِ اللّهِ علماً، وكفى بالاغترارِ بالله جَهلاً].

والعلم التام سبب الخشية، كما أن التذكر التام يوجب الخشية أيضاً، على هذا قوله في قصة «فرعون».

﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[4].

جعل ذلك نوعين لما في ذلك من الفوائد:

١ ـ أنه إذا تذكر أنه مخلوق، وأن الله خالقه وليس هو إلهاً ورباً كما ذكر، وذكر إحسان الله إليه، فهذا التذكر يدعوه إلى اعترافه بربوبية الله وتوحيده، وإنعامه عليه، فيقتضي الإيمان والشكر وإن قدّر أن الله لا يعذبه، فإن مجرد كون الشيء حقاً ونافعاً يقتضي طلبه ـ وإن لم يخف ضرر أبعد منه ـ كما يسارع المؤمنون إلى فعل التطوعات والنوافل لما فيها من النفع، وإن كان لا عقوبة في تركها. وهو إذا تذكر آلاء الله وتذكر

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٢.
(٢) سورة قٓ، الآية: ٣٣.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٤) سورة طه، الآية: ٤٤.

إحسانه إليه فهذا قد يوجب اعترافه بحق الله، وتوحيده، وإحسانه إليه، ويقتضي شكره لله وتسليم قوم «موسى» إليه، وإن لم يخف عذاباً فهذا قد حصل بمجرد التذكر.

ونفس الخشية إذا ذكر له «موسى» ما توعده الله به من عذاب الدنيا والآخرة، فإن هذا الخوف قد يحمله على الطاعة والانقياد، ولو لم يتذكر.

٢ ـ أن التذكر سبب الخشية، والخشية حاصلة عن التذكر، فذكر التذكر الذي هو السبب، وذكر الخشية التي هي النتيجة، وإن كان أحدهما مستلزماً للآخر. كما قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(١).

وكما قال في أهل النار:

﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٢).

٣ ـ أن الخشية سبب للتذكير، وعندما يتذكر الأمور المخوفة يطلب النجاة منها، ويتذكر ما يرجو به النجاة فيضله.

---

(١) سورة قٓ، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٠.

التذكير

التذكير في القرآن الكريم:

يقول الله تعالىٰ:

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

ويقول تعالىٰ:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[2].

ويقول تعالىٰ:

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[3].

ويقول تعالىٰ:

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[4].

ويقول تعالىٰ:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾[5].

ويقول تعالىٰ:

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾[6].

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ٩.
(٢) سورة الغاشية، الآية: ٢١.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.
(٤) سورة قٓ، الآية: ٤٥.
(٥) سورة التكوير، الآية: ٢٧.
(٦) سورة يٰس، الآية: ١١.

وحيث خَصّ بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنين، فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به، وحيث عَمّ فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا.

التذكير نوعان:

والتذكير منه العام ومنه الخاص، فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به الرسالة.

قال تعالىٰ:

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾(٢).

والتذكير هو الذكر التام الذي يذكره المذكّر به وينفع به. وغير هؤلاء يقول الله تعالىٰ فيهم:

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾(٣).

أتاهم وأقام عليهم الحجة لكن قلوبهم لم تصغ ولم تفهم ولم تعمل ـ ولو فهمت.

كما قال تعالىٰ:

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾(٤).

والخاص هو التام النافع، وهو الذي حصل معه تذكر لمذكّر، فإن هذه ذكرى.

كما قال تعالىٰ:

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ﴾(٥).

أي يُجنّب الذكرى. وهو إنما جُنِّبَ الذكرى الخاصة.

---

(١) سورة ص، الآية: ٨٦.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٣١.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٣.
(٥) سورة الأعلى، الآية: ٩.

وأما المشترك الذي تقوم به الحجة فقد ذكر هو وغيره بذلك، وقامت الحجة عليهم كما قال تعالىٰ:

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1].

وقوله تعالىٰ:

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾[2].

وفي قوله تعالىٰ:

﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾[3].

يقول «الحسن البصري»:

[إنما هي تذكرةٌ للمؤمنِ، وحجةٌ على الكافر].

وجوب تبليغ القرآن للكافرين:

وعلى هذا فلا مانع من تبليغ القرآن للكافرين للأسباب التالية:

١ ـ أنه لم يخص قوماً دون قوم، لكن قال ﴿فذكر﴾ مطلقةً بتذكير كل أحد، وقوله: ﴿إن نفعت الذكرى﴾ لم يقل: (إن نفعت كل أحد) بل أطلق النفع. فقد أمر بالتذكير إن كـان ينفع، والتذكر المطلق ينفع. وإن من الناس من يتذكر فينتفع به، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك، فيكون عبرة لغيره، فيحصل بتذكيره نفع أيضاً. ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره، فتحصل بالذكرى منفعة. لذا فكل تذكير ذكر به النبي ﷺ للمشركين حصل به نفع في الجملة، وإن كان النفع للمؤمنين الذين قبلوه واعتبروا به وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة لكن من عُلم أنه لا ينفعه التذكير وجب الإعراض عنه كما في قوله تعالىٰ:

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.
(٣) سورة الأعلى، الآية: ٩.
(٤) سورة المسد، الآية: ٣.

فهذا الذي لن يؤمن أوجب الله الإعراض عنه وعدم تذكيره. كذلك كل من لم يُصغِ إليه، ولم يستمع لقوله، فإنه يجبُ الإعراض عنه كما قال تعالىٰ:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾[1]، ثم ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

وكذلك من أظهر أن الحجّة قامت عليه وأنه لا يهتدي فإنه لا يُكرر التبليغ عليه.

٢ ـ أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير العام النافع، كما هو أمر بالتذكير المشترك، وهذا التام يخص به المؤمنين المنتفعين. فهو إذا آمنوا ذكّرهم بما أنزل، وكلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به ويذكرهم بمعانيه و. . . بخلاف الذين قال الله فيهم:

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾[3].

وقصة الأعمى في سورة «عبس» واضحة المعنى، حيث أمره الله تعالى أن يُقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يذكر.

كذلك في قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[4].

وقد ورد في الصحيحين عن «ابن عباس» قال:

[كان رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآنَ سمعه المشركونَ، فسبوا القرآن، ومن أُنزل عليه، ومن جاء به، فقال الله له: ولا تجهر به فيسمعْهُ المشركون، ولا تخافتْ عن أصحابك. فنهىٰ عن أن يسمعهم إسماعاً يكون ضررُهُ أعظمُ من نفعه].

ومذهب الجمهور من السلف والخلف أن ما أمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة ومنفعته راجحة، وأما ما كانت مضرته راجحة، فإن الله لا يأمر به.

٣ ـ قوله: ﴿الذكرى﴾ يتناول التذكُّرِ والتذكير. فإنه قال:

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾[5].

---

(١) و (٢) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) سورة المدثر، الآية: ٤٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١١.

(٥) سورة الأعلى، الآية: ٩.

فلا بد أن يتناول ذلك تذكيره ثم قال تعالىٰ:

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾(١).

والذي يتجنبه الأشقى هو الذي فعله من يخشى وهو التذكر، فضمير الذكرى هذا يتناول التذكر، وإلا فمجرد التذكير الذي قامت به الحجة لم يتجنبه أحد.

التذكر والخشية:

وهنالك تلازم بين التذكر والخشية، فقد يتذكر فتحصل له بالتذكر خشية، وقد يخشى فتدعوه الخشية إلى التذكير ولهذا قال «قتادة»:

[والله ما خشيَ اللّه عبدٌ قط إلا ذكره].

ونجد ذلك في قوله تعالى في قصة فرعون:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾(٢).

فعطف الخشية على التذكر كما في قوله تعالىٰ أيضاً:

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣ ﴾(٣).

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾(٢).

فهذا حق لأن المتذكر إمّا أن يتذكر ما يدعوا إلى الرحمة والنعمة والثواب، كما يتذكر الإنسان ما يدعوه إلى السؤال فينيب. وإمّـا أن يتذكر ما يقتضي الخوف والخشية فلا بد له من الإنابة حينئذٍ لينجو مما يخاف، لهذا قيل في فرعون: **﴿لعله يتذكر﴾** فينيب **﴿أو يخشى﴾**.

كذلك قال له موسى:

﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ ﴾(٤).

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٠.
(٢) سورة طه، الآية: ٤٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ١٣.
(٤) سورة النازعات، الاية: ١٨ ـ ١٩.

فجمع موسى بين الأمرين (التزكية) مع (الخشية) ـ المتلازمين ـ والنفع الوارد في قوله تعالىٰ:

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(1).

نوعان: حصول النعمة، واندفاع النقمة. ونفس اندفاع النقمة نفع ـ وإن لم يحصل معه نفع آخر ـ ونفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفعٌ. وكلاهما نفع. فالنفع تدخل فيه الثلاثة، والثلاثة تحصُل بالذكرى.

أما عن سبب عطف:

﴿أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾(2).

فلهذا وجوه متعددة:

١ ـ أن التزكي يحصل بامتثال أمر الرسول ـ وإن كان صاحبه لا يتذكر علوماً عنه ـ كما في قوله تعالىٰ:

﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾(3).

ثم قال تعالىٰ:

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾(4).

فالتلاوة عليهم، والتزكية عام لجميع المؤمنين، وتعليم الكتاب والحكمة خاص ببعضهم، وكذلك التزكي عام لكل من آمن بالرسول، وأما التذكر فهو مختص لمن له علوم يذكرها، فعرف بتذكره ما لم يعلمه غيره من تلقاء نفسه.

٢ ـ قوله تعالىٰ:

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾(5).

يدخل فيه النفع قليلهُ وكثيرهُ. والتزكي أخصُّ من ذلك.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.
(٢) سورة النازعات، الآية: ١٨ ـ ١٩.
(٣) و (٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٥) سورة عبس، الآية: ٩.

٣ ـ أن التذكر سبب التزكي، لأنه إذا تذكر خاف ورجا فتزكى، فذكر الحلم وسببه ذكر العلم، وكل منهما مستلزم للآخر، فإنه لا يتزكىٰ حتى يتذكر ما يسمعه من الرسول كما قال تعالىٰ:

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾(١).

فلا بد لكل مؤمن من خشية وتذكر، وهو إذا تذكر فإنه ينتفع، وقد تتم المنفعة فيتزكى.

والتذكر قد يكون تذكر ذنوبه وعقاب ربه، وقد يدخل فيه تذكر آلامه ونعمه وهذا يدعوه إلى شكر الله تعالىٰ لذا قال تعالىٰ:

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾(٢).

التذكر اسم جامع لأمور كثيرة:

والتذكر: اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره كما قال تعالىٰ:

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾(٣).

أي قامت الحجة بالنذير الذي جاءكم، وبتعميركم عمراً يتسع للذكر. كما وأمر سبحانه بذكر نعمه في غير موضع كما في قوله تعالىٰ:

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾(٤).

والمطلوب بذكرها شكرها كما في قوله تعالىٰ:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾(٥).

ذكر النعم هو من الذكر الذي أمروا به. كما وأمروا به تذكر قصص الأنبياء المتقدمين كما في قوله تعالىٰ:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾(٦).

---

(١) سورة الأعلىٰ، الآية: ١٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.
(٦) سورة مريم، الآية: ٤١.

وقال تعالىٰ:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ ﴾[3].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ ﴾[4].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ ﴾[5].

ومما أمروا به تذكرة ما وعدوا به من الثواب والعقاب كما في قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾[6].

ومما أمروا به تذكرة آيات الله التي يستدلون بها على قدرته وعلى المعاد كقوله تعالىٰ:

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ ﴾[7].

وقد قال لموسىٰ:

﴿ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ ﴾[8].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥١.
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥٦.
(٤) سورة ص، الآية: ٤٥.
(٥) سورة ص، الآية: ١٧.
(٦) سوررة ص، الآية: ٤٦.
(٧) سورة مريم، الآية: ٦٧.
(٨) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

وهي تتناول أيام نعمة وأيام نقمة ليشكروا ويعتبروا.

ولهذا قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[1].

فإن ذكر النعم يدعو إلى الشكر، وذكر النقم يقتضي الصبر على فعل المأمور. وإن كرهته النفس. وعن المحظور ـ وإن أحبته النفس ـ لئلا يصيبه ما أصاب غيره من النقمة.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

ذم البخل والجبن

التنديد بالبخل:

يقول الله تعالىٰ في سورة النساء:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾[١].

ويقول في سورة الحديد:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾[٢].

وتؤولت بالبخل بالحال والمنع، والبخل بالعلم ونحوه. وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا من علم ومال وغير ذلك. كما تأولوا قوله تعالىٰ:

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[٣].

النفقة من الحال، والنفقة من العلم، وقال «معاذ» في العلم:

[تعلُّمه لمن لا يعلمُهُ صدقةٌ].

وقال «أبو الدرداء»:

[ما تصدقَ رجلٌ بصدقةٍ أفضلَ من موعظةٍ يعظُ بها جماعةً فيتفرقون وقد نفعَهم اللّهُ بها].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣.

وورد في الأثر:

[نِعَمةُ العطيةِ، ونعمةُ الهدية، الكلمةُ من الخير يسمعُها الرجلُ ثم يهديها إلى أخٍ له].

وهذه صدقة الأنبياء وورثتهم العلماء. ولهذا كان الله، وملائكته، وحيتان البحر، وطير الهواء، يصلّون على معلم الناس الخير، كما أن كاتم العلم يلعنه الله، ويلعنه اللاعنون.

والغرض هنا: أن الله يبغض المختال الفخور البخيل به.

فالبخيل به: الذي منعه، والمختال: إما أن يختال فلا يطلبه ولا يقبله، وأما أن يختال على بعض الناس فلا يبذله.

وهذا كثيراً ما يقع عند بعض الناس أنه يبخل بما عنده من العلم ويختال به، وأنه يختال عن أن يتعدى من غيره.

وضد ذلك التواضع في طلبه وبذله، والتكرم بذلك.

الجبن والبخل خصلتان سيئتان:

قال رسول الله ﷺ:

«شرُّ ما في المرءِ شحٌّ هالعٌ، وجبنٌ خالعٌ»(1).

وقال أيضاً:

«مَنْ سيدكُمْ يا بني سَلَمة؟ فقالوا: الجدّ بن قيس على أنّا نزنه بالبخل، فقال: وأي داء أدوى من البخل؟».

وفي رواية: **«إن السيد لا يكون بخيلاً. بل سيدكم الأبيض (الجعد) بشر بن البراء بن معرور»**(2).

وكذلك في الصحيح قول «جابر بن عبد الله»، «لأبي بكر الصديق» رضي الله عنهما.

[إما أن تُعطني، وإما أن تبخل عني، فقال: تقول: وإما أن تبخل عني! وأي داء أدوىٰ من البخل!؟!].

---

(1) رواه أبو داود وأحمد.

(2) رواه البخاري وأحمد وأبو يعلى.

فجعل البخل من أعظم الأمراض.

وفي صحيح «مسلم» عن «سلمان بن ربيعة» قال: قال عمر رضي الله عنه.

قسم النبي ﷺ قسماً فقلت: يا رسول الله والله لغيرُ هؤلاء أحقُّ به منهم، فقال: **«إنهم خيروني بين أن يسألوني بالفحش، وبين أن يبخلوني ولست بباخل»**[1].

يقول: إنهم يسألوني مسألة لا تصلح، فإن أعطيتهم وإلا قالوا:

هو بخيل. فقد خيروني بين أمرين مكروهين لا يتركوني من أحدهما:

المسألة الفاحشة والتبخيل، والتبخيلُ أشدُّ، فأدفع الأشد بإعطائهم.

نتائج البخل:

والبخل جنس تحته أنواع: كبائر، وغير كبائر.

كما بين ذلك المولى عز وجل بقوله:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[2].

وقال سبحانه أيضاً:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾[3].

وقال أيضاً:

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾[4].

وقال أيضاً:

﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ﴾[5].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.
(٣) سورة النساء، الآية: (٣٦، ٣٧).
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٦ ـ ٧٧.
(٥) سورة محمد، الآية: ٣٨.

وقال سبحانه:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧ ﴾[1].

كذلك كثير من الآيات تذم الجبن منها قوله:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[2].

وقوله أيضاً عن المنافقين:

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧ ﴾[3].

وقوله أيضاً:

﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾[4].

كذلك كل ما في القرآن من الحضّ على الجهاد، والترغيب فيه وذمّ الناكلين عنه، والتاركين له، كلُّه ذمٌّ للجبن.

صلاح الناس بالشجاعة والكرم:

ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم، بيّن الله سبحانه أنه من تولى عنه بترك الجهاد بنفسه أبدله الله به من يقوم بذلك، ومن تولى عنه بإنفاق ماله أبدله الله به من يقوم بذلك.

فقال تعالىٰ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ

---

(١) سورة الماعون، الآية: ٤ ـ ٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٦.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٦.
(٤) سورة محمد، الآية: ٢٠.

إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

ويقول تعالىٰ:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾(٢).

وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضَّل اللَّهُ السابقين فقال:

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾(٣).

وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال في سبيله، ومدحه في غير آية من كتابه، وذلك هو الشجاعة والسماحة في طاعته سبحانه، وطاعة رسوله. وملاك الشجاعة الصبر الذي يتضمن قوة القلبِ وثباته، كما قال تعالىٰ:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(٤).

وليست الشجاعة عن قوة البدن، فقد يكون الرجل قويّ البدن، ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته.

الصبر مع الأمر والنهي لدرء الفتنة:

فإن القتال مداره على قوة البدن ومنعته للقتال، وعلى قوة القلب وخبرته به، والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة دون التهور الذي لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود والمذموم، ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح، فأما المغلوب حين غضبه فليس هو شجاع ولا شديد.

ونحن نجد أن السلف الصالح كانوا يمدحون جنس الشجاعة وجنس السماحة، إذ كان عدم هذين مذموماً على الإطلاق، وأما وجودهما ففيه تحصيل مقاصد النفوس على الإطلاق، لكن العاقبة للمتقين.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٨ ـ ٣٩.
(٢) سورة محمد، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الحديد، الآية: ١٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

وأما غير المتقين، فلهم عاجلة لا عاقبة، والعاقبة إن كانت في الآخرة فتكون في الدنيا أيضاً، كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح:

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

وقال أيضاً:

﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3].

والفرقان أن يحمد من ذلك ما حمده الله ورسوله، فإن الله تعالى هو الذي حَمْده زَيْن، وذمّه شَيْن، دون غيره من الشعراء والخطباء وغيرهم، ولهذا لما قال القائل من بني «تميم» للنبي ﷺ:

إن حمدي زين، وذمي شين!! قال له: (ذاك اللَّهُ)[4].

والله سبحانه حمد الشجاعة والسماحة في سبيله، كما في الحديث الصحيح عن «أبي موسى الأشعري» رضي الله عنه قيل: قيل يا رسول الله.

الرجل يُقاتل شجاعةً، ويقاتل حميّةً، ويقاتل رياءً، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟؟ فقال:

«من قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللَّه هي العليا فهو في سبيلِ الله»[5].

وقد قال سبحانه:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[6].

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.
(٤) رواه الترمذي وأحمد.
(٥) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة والنسائي وأحمد.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

وذلك أن هذا هو المقصود الذي خلق الله الخلق له، كما قال تعالىٰ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

فكل ما كان لأجل الغاية التي خلق لها الخلق كان محموداً عند الله، وهو الذي يبقى لصاحبه وينفعه الله به، وهذه الأعمال هي الباقيات الصالحات.

الشجاعة والسماحة تصنف الناس:

ولهذا كان الناس أربعة أصناف:

١ ـ من يعمل لله بشجاعة وسماحة: فهؤلاء هم المؤمنون المستحقون للجنة.

٢ ـ ومن يعمل لغير الله بشجاعة وسماحة: فهذا ينتفع في الدنيا، وليس له في الآخرة من خلاق.

٣ ـ ومن يعمل لله لكن بلا شجاعة ولا سماحة: فهذا فيه من النفاق ونقص الإيمان بقدر ذلك.

٤ ـ ومن لا يعمل لله ولا فيه شجاعة ولا سماحة: فهذا ليس له دنيا ولا آخرة.

فهذه الأخلاق والأفعال يحتاج إليها المؤمن عموماً وخصوصاً في أوقات المحن والفتنة الشديدة، فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم ودفع الذنوب عن نفوسهم عند المقتضىٰ للفتنة عندهم.

ويحتاجون أيضاً إلى أمر غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم، وكلٌّ من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه، وإن كان يسيراً على من يسّره الله عليه.

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

حسن الظن

يقول الله تعالىٰ:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾[1].

وفيها قراءتان بالتخفيف والتثقيل. وكانت «عائشة» رضي الله عنها تقرأ بالتثقيل وتنكر التخفيف وتقول:

[معاذ الله، لم تكن الرسل تظنُّ ذلك بربها...].

أما «ابن عباس» فأخذ بالتخفيف وتلا قوله تعالىٰ:

﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[2].

والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد والمرجح، والنبي ﷺ قال:

«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[3].

وقد روى «أبو هريرة» قال:

قال رسول الله ﷺ:

«يرحمُ الله لوطاً! لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد. ولو لبثتُ في السجن ما لبث يوسُفُ لأجبتُ الداعي، ونحن أحق بالشكِّ من إبراهيم إذا قال له ربه: أولمْ تؤمن؟ قال بلىٰ: ولكن ليطمئن قلبي»[4].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

ومعلوم أن إبراهيم كان مؤمناً بما أخبر الله عنه ولكنه طلب طمأنينة قلبه، والتفاوت بين الإيمان والاطمئنان سمّاه النبي ﷺ شكاً لذلك بإحياء الموتى.

كذلك الوعد بالنصر في الدنيا، يكون الشخص مؤمناً بذلك ولكن قد يضطرب قلبه فلا يطمئن، فيكون فوات الاطمئنان ظناً أنه قد كذب: فالشك مظنة أنه يكون من باب واحد، وهذه الأمور لا تقدم من الإيمان الواجب، وإن كان فيها ما هو ذنب. فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك كما في أفعالهم على ما عُرف في أصول السنة والحديث. وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت ليتأسىٰ بهم في الصبر على ما كذبوا وأوذوا.

كما قال تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾(١).

وقوله تعالى مبيناً أنهم أسوة لنا:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢).

= ومعنى نحن أحق بالشك من إبراهيم: قال بعضهم: نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية ذلك من إبراهيم، وقيل: معناه: إذا لم نشك نحن، فإبراهيم أولى أن يشك، أي لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال ذلك تواضعاً منه، أو من قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١١.

ذم الغيبة(*)

سأل بعضُ الناس الإمام ابن تيمية عن الغيبة فقالوا:

هل تجوز على أناس معينين أو يعين شخص بعينه؟ وما حكم ذلك؟ أفتونا بجواب بسيط ليعلم ذلك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، ويستمد كل واحد بحسب قوته بالعلم والحكم.

فأجابهم الإمام:

الحمد لله رب العالمين، أصل الكلام في هذا أن يعلم أن الغيبة هي كما فسرها النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما سئل عن الغيبة فقال:

«ذكركَ أخاكَ بما يكرهُ» قيل: يا رسول الله أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إنْ كان فيه ما تقولُ فقد اغتبْتَهُ، وإن لم يكن فيه ما تقولَ فقد بهَّتَّهُ»(1).

بيّن ﷺ الفرق بين الغيبة والبهتان، وإن الكذب عليه بهت له كما قال سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾(2).

وقال تعالىٰ:

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾(3).

(*) أخذ هذا الموضوع من رسالة لابن تيمية نشرتها دار الحديث بمصر. بتحقيق: سيد بن إبراهيم بن صادق.

(1) رواه مسلم، وأحمد، والدارمي.

(2) سورة النور، الآية: ١٦.

(3) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

وفي الحديث الصحيح: «إن اليهودَ قومٌ بهتٌ»[1].

فالكذب على الشخص حرام كله، سواء كان الرجل مسلماً أو كافراً براً أو فاجراً، لكن الافتراء على المؤمنين أشد، بل الكذب كله حرام ولكن يباح عند الحاجة الشرعية.

ولهذا قال من قال من العلماء:

[إن ما رخصَ فيه رسولُ الله ﷺ إنما هو من هذا] كما في حديث «أم كلثوم بنت عقبة» عن النبي ﷺ أنه قال:

«ليسَ بالكاذبِ الذي يُصلحُ بينَ الناسِ فيقولُ خيراً، أو ينمي خيراً»[2].

ولم يرخص فيما يقول الناس أنه كذب إلا في ثلاث: في الإصلاح بين الناس، وفي الحرب، وفي الرجل يحدث امرأته.

المعاريض[3]:

وقد تسمى كذباً لأن الكلام يعني به المتكلم معنى، وذلك المعنى يريد أن يفهمه المخاطب، فإذا لم يكن ما يعنيه فهو الكذب المحض، وإن كان على ما يعنيه ولكن ليس على ما يفهمه المخاطب فهذه المعاريض وهي كذب باعتبار الأفهام وإن لم يكن كذباً باعتبار الغاية السائغة ومنه قول النبي ﷺ:

«لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات كلّهنّ في ذاتِ الله: قوله لسارة أُختي»[4].

وقوله تعالىٰ:

﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ ﴾[5].

وقوله تعالىٰ:

﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[6].

---

(١) الحديث من كلام الصحابي عبد الله بن سلام عند إسلامه، وقد رواه البخاري في صحيحه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) المعاريض: التعريض خلاف التصريح من القول، كما إذا سألت رجلاً: هل رأيت فلاناً؟ وقد راه ويكره أن يكذب فيقول: إن فلاناً ليُرى فيجعل كلامه معراضاً فراراً من الكذب.

(٤) رواه البخاي ومسلم وأحمد.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

(٦) سورة الصافات، الآية: ٨٩.

وهذه الثلاثة معاريض، وبها احتج العلماء على جواز التعريض للمظلوم وهو أن يعني بكلامه ما يحتمله اللفظ وإن لم يفهمه المخاطَبُ.

معنىٰ الغيبة والكذب والمعاريض:

قال: فهذا كله من المعاريض خاصة، ولهذا نفى عنه النبي ﷺ اسم الكذب باعتبار القصد والغاية كما ثبت عنه أنه قال:

«الحربُ خدعةٌ»(١).

«وأنه كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها»(٢).

ومن هذا الباب قول الصديق في سفر الهجرة عن النبي ﷺ **«هذا الرجلُ يهديني السبيل»**(٣)، وقول النبي ﷺ للكافر السائل له في غزوة بدر:

«نحنُ من ماءٍ»(٤).

وقوله للرجل الذي حلف على المسلم الذي أراد الكفار أسره «إنه أخي» وعني إخوة الدين، وفهموا منه إخوة النسب. فقال النبي ﷺ. والمقصود هنا أن النبي ﷺ فرق بين الاغتياب وبين البهتان، وأخبر أن المخبر بما يكره أخوه المؤمن عنه إذا كان صادقاً فهو المغتاب، وفي قوله ﷺ:

«إن كنتُ لأبرُّهم وأصدَقُهم، المسلمُ أخو المسلم»(٥).

وقوله:

«وذكرك أخاكَ بما يكْرَهُ»(٦).

فوافقه لقوله تعالىٰ:

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾(٧).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه أحمد وأبو داود.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

فجعل جهة التحريم كونه أخاً إخوة الإيمان، ولذلك تغلظت الغيبة بحسب حال المؤمن، فكلما كان أعظم إيماناً كان اغتيابه أشد.

الهمز[١] واللمز[٢]:

ومن جنس الغيبة الهمز واللمز، فإن كلاهما فيه عيب الناس والطعن عليهم كما في الغيبة، لكن الهمز هو الطعن بشدة وعنف، بخلاف اللمز فإنه قد يخلو من الشدة والعنف، كما قال تعالىٰ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[٣].

أي يعيبك ويطعن عليك.

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾[٤].

أي لا يلمز بعضكم بعضا.

وقال تعالىٰ:

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾[٥].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[٦].

وإذا تبين هذا فنقول:

ذكر الناس بما يكرهون هو في الأصل على وجهين:

أحدهما: ذكر النوع، **والثاني**: ذكر الشخص المعين الحي أو الميت...

أما الأول فكل صنف ذمه الله ورسوله يجب ذمه، وليس ذلك من الغيبة، كما أن

---

(١) همزه: اغتابه في غيبته.
(٢) لمزه: عابه.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٨.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١١.
(٥) سورة القلم، الآية: ١١.
(٦) سورة الهمزة، الآية: ١.

كل صنف مدحه الله ورسوله يجب مدحه، وما لعنه الله ورسوله لُعن ـ كما أن من صلّى الله عليه وملائكته يصلّى عليه.

فالله تعالى ذم الكافر، والفاجر، والفاسق، والظالم، والغاوي، والضال، والحاسد، والبخيل، والساحر، وآكل الربا، وموكله، والسارق، والزاني، والمختال، والفخور، والمتكبر، الجبار، وأمثال هؤلاء.

مدحُ من مدح الله ورسوله وذم من ذماه:

كما حمدَ المؤمنَ التقيّ، والصادق البارّ، والعادلَ المهتدي، والراشد، والكريم، والمتصدق، والرحيم، وأمثال هؤلاء.

ولعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكلَه، وشاهديه، وكاتبه، والمحلل، والمحلل له.

ولعن من عمل عمل قوم لوط، ولعن من أحدث حدثاً أو أوى محدثاً، ولعن الخمرَ، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومشتريها، وساقيها، وشاربها، وآكل ثمنها، ولعن اليهود والنصارى حيث حُرمتْ عليهم الشحومُ فجملوها، فباعوها، وأكلوا أثمانها. ولعن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات من بعد ما بيناه للناس[1]. وذكر لعنة الظالمين[2]. والله وملائكته يصلون على النبي[3]. ويصلون على الذين آمنوا[4].

والصابر المسترجع عليه صلاة من ربه ورحمة، والله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير ويستغفر له كل شيء حتى الحيتان والطير، وأمر الله نبيه أن يستغفر لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات، فإذا كان المقصود الأمر بالخير والترغيب فيه، والنهي عن الشر والتحذير منه، فلا بد من ذكر ذلك، ولهذا كان النبي ﷺ إذا بلغه أن أحداً فعل ما ينهى

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩ ونصها قول الله تعالىٰ:
﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدىٰ من بعدما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾.

(٢) كما في سورة غافر الآية (٥٢).
﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾.

(٣) كما في سورة الأحزاب، الآية: ٥٦ قوله تعالىٰ:
﴿إن الله وملائكته يصلون علىٰ النبي﴾.

(٤) كما في سورة الأحزاب، الآية: ٤٣ قوله تعالىٰ:
﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾.

عنه يقول:

«ما بالُ رجالٍ يشترطونَ شروطاً ليستْ في كتابِ اللّهِ. من اشترطَ شرطاً ليسَ في كتابِ اللّهِ فهو باطلٌ، وإن كان مائةَ شرطٍ»[1].

وقد رسول الله ﷺ:

«ما بالُ رجالٍ يتنزَّهونَ عن أشياءَ أترخّصُ فيها، واللّهِ إني لأتقاكُمْ للّهِ وأعلمُكُم بحدودِهِ»[2].

وقال رسول الله ﷺ:

«ما بالَ رجالٍ يقولُ أحدُهم: أمّا أنا فأصومُ ولا أفطرُ، ويقول الآخرُ: أمّا أنا فأقومُ ولا أنامُ. ويقولُ الآخر: لا أتزوجُ النساء. ويقول الآخر: لا آكلُ اللحمَ... لكني أصوم وأفطرُ، وأقومُ وأنامُ، وأتزوجُ النساءَ، وآكلُ اللحمَ، فَمَنْ رغبَ عن سُنّتي فليس مني»[3].

وليس لأحد أن يعلق الحمد، والذم، والحب، والبغض، والموالاة، والمعاداة، والصلاة، واللعن، بغير الأسماء التي علق الله بها ذلك مثل أسماء القبائل، والمدائن، والمذاهب، والطرائق المضافة إلى الأئمة والمشايخ ونحو ذلك مما يراد به التعريف كما قال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[4].

وقال تعالىٰ:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[5].

وقال أيضاً:

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾[6].

---

(١) رواه مسلم وأحمد.
(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد.
(٣) رواه مسلم.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٥) سورة يونس، الآية: ٦٢ ـ ٦٣.
(٦) سورة مريم، الآية: ٦٣.

وقد قال رسول الله ﷺ:

«إن آلَ أبي فلانٍ ليسَ لي بأولياءَ، إنما وليّيَ اللَّهُ وصالحُ المؤمنين»[1].

وقال:

«ألا إن أوليائي المتقونَ حيثُ كانوا، ومَنْ كانوا»[2].

وقال ﷺ:

«إنّ اللَّهَ أذهبَ عنكم عُبيّة الجاهلية وفخرَها بالآباء، الناسُ رجلانِ مؤمنٌ تقيٌّ، وفاجرٌ شقيٌّ، الناسُ من آدَم، وآدمُ مِنْ تراب»[3].

وقال ﷺ:

«إنه لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيضَ إلا بالتقوى»[4].

الحب والبغض في الله:

فذكر الأزمان، والعدل بأسماء الإيثار، والولاء، والبلد، والانتساب إلى عالم أو شيخ إنما يُقصد بها التعريفُ به ليتميز عن غيره.

فأما الحمدُ، والذم، والحب، والبغض، والموالاة، والمعاداة، فإنما تكون بالأشياء التي أنزل الله بها سلطانه، وسلطانه كتابه، فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أي صنف كان، ومَنْ كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان.

قال تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[5].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد.
(٢) رواه ابن أبي عاصم.
(٣) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وعبيّة: مأخوذ من العَبِ: النور والضوء، أو من العباء: وهو الثقل.
(٤) رواه أحمد.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٥ ـ ٥٦.

وقال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾(١).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾(٢).

وقال تعالىٰ:

﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾(٣).

وقال تعالىٰ:

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾(٤).

وقال تعالىٰ:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾(٥).

الموالاةُ تُعطى حسب الإيمان:

ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أعطي من الموالاة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره، ولا يُخرجُ من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي كما يقوله الخوارج والمعتزلة، ولا يُجعلُ الأنبياءُ والصديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة، قال تعالىٰ:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٥) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغي.

وقال تعالىٰ:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[3].

فهذا الكلام في الأنواع:

متىٰ تجوز الغيبة؟؟

وأما الشخص المعين فيَذكر ما فيه من الشر في مواضع...

(منها) المظلومُ له أن يذكر ظالمه بما فيه: إما على وجه دفع ظلمه واستيفاء حقه كما قالت «هند»: يا رسول الله إن «أبا سفيان» رجل شحيحٌ، وإنه ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي، فقال لها النبي ﷺ:

«خذي ما يكفيكِ وولدكِ بالمعروفِ»[4].

وقال رسول الله ﷺ:

«ليُّ الواحدِ يحلُّ عرضَهُ وعقوبتَهُ»[5].

وقال «وكيع»: [عِرْضُه: شكايتهُ، وعقوبتَه: حبسه].

وقال تعالىٰ:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[6].

---

(1) سورة الحجرات، الآية: ١٠.
(2) سورة ص، الآية: ٢٨.
(3) سورة النور، الآية: ٢.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) رواه ابن ماجة.
ومعنى ليَّ الواجد: مطلهُ.
والواجد: القادر على الأداء.
(6) سورة النساء، الآية: ١٤٨.

وقد رُوي أنها نزلت في رجل نزل بقوم فلم يُقْروه[1]، فإذا كان هذا فيمن ظُلم بتركِ قراه الذي تنازع الناس في وجوبه ـ وإن كان الصحيح أنه واجب ـ فكيف بمن ظُلم بمنع حقه الذي اتفق المسلمون على استحقاقه إياه؟

أو يذكر ظالمه على وجه القصاص من غير عدوان، ولا دخول في كذب، ولا ظلم الغير، وتركُ ذلك أفضلُ.

(ومنها) أن يكون على وجه النصيحة للمسلمين في دينهم ودنياهم: من الحديث الصحيح عن «فاطمة بنتِ قيس» لما استشارت النبي ﷺ مَنْ تنكح؟

وقالت: إنه خطبني «معاوية» و «أبو جهم» فقال:

«أما معاويةُ فصُعْلوكٌ لا مالَ لَهُ، وأمّا أبو جهم فرجلٌ ضرّابٌ للنِساء»، وروي: **«لا يضعُ عصاهُ عن عاتِقِهِ»**[2].

الدين النصيحة:

فبين لها أن هذا فقير قد يعجز عن حقك، وهذا يؤذيك بالضرب وكان هذا نُصحاً لها ـ وإن تضمن ذكر عيب الخاطب ـ وفي معنى هذا نصحُ الرجل فيمن يعامله، ومن يوكله، ويوصي إليه، ومن يستشهده، بل ومن يتحاكم إليه، وأمثال ذلك، وإذا كان هذا في مصلحة خاصة، فكيف بالنصح فيما يتعلق به حقوق عموم المسلمين من الأمراء والحكام والشهود والعمال أهل الديوان وغيرها؟ فلا ريب أن النصح في ذلك أعظم كما قال النبي ﷺ:

«الدينُ النصيحةُ، الدينُ النصيحَةُ، قالوا لمنْ يا رسولَ الله؟ قالَ: للّهِ، ولكتابِهِ، ولرسولِهِ، ولأئمةِ المسلمين وعامّتِهم»[3].

وقد قالوا «لعمر بن الخطاب»: في أهل الشورى أمِّرْ فلاناً وفلاناً، فجعل يذكر في حق كل واحد من الستة وهم أفضل الأمة ـ أمراً جعل مانعاً له من تعيينه. وإذا كان النصح واجباً في المصالح الدينية الخاصة والعامة مثل نَقَلَة الحديث الذين يغلطون أو يكذبون كما قال «يحيىٰ بن سعيد»: سألت «مالكاً» و «الثوري» و «الليث بن سعد» ـ أظنه ـ

(١) يقروه: يطعموه ويستضيفوه.
(٢) رواه مسلم والنسائي وابن ماجة وأبو داود.
(٣) رواه مسلم وأحمد والدارمي.

«والأوزاعي» عن الرجل يُتهم في الحديث أولاً يحفظ؟ فقالوا بيّن أمره[1]. وقال بعضهم «لأحمد بن حنبل» أنه يثقل عليّ أن أقولَ فلانٌ كذا وفلان كذا[2]، فقال: إذا سكتَّ أنت وسكتُّ أنا، فمتىٰ يعرف الجاهل الصحيح من السقيم!!؟

الجرح والتعديل بالحق واجب شرعاً:

ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل «لأحمد بن حنبل»: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك، أو يتكلم في أهل البدعة؟ فقال: [إذا قام وصلَّى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، وهذا أفضل]، فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله. إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فأن هؤلاء لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء.

وقد قال النبي ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ لا ينظرُ إلى صورِكُمْ وأموالكم، وإنما ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم»[3].

كما بين الله تعالى في القرآن الكريم حيث يقول:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾[4].

... فأخبر أنه أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنه أنزل الحديد كما ذكر، فقوام الدين بالكتاب الهادي، والسيف الناصر.

قال تعالىٰ:

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[5].

---

(١) أي جرحه أو تعديله، وهل هو ثقة يؤخذ حديثه، أم كذاب وضاع تُردّ روايته.
(٢) أي أن أجرِّح أشخاصاً لضعف حفظهم وسوء روايتهم.
(٣) رواه مسلم وابن ماجة.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣١.

والكتاب هو الأصل، ولهذا أول من بعث الله رسوله أنزل عليه الكتاب ومكث بمكة لم يأمره بالسيف حتى هاجر وصار له أعوان على الجهاد.

بيان حال المشركين والمبتدعين ليس بغيبة:

أعداء الدين نوعان: الكفار والمنافقون، وقد أمر الله نبيّه بجهاد الطائفتين في قوله تعالىٰ:

﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾(١).

في آيتين من القرآن.

فإذا كان أقوام منافقون يبتدعون بدعاً تخالف الكتاب ويلبسونها على الناس ولم تُبين للناس فَسَدَ أمر الكتاب وبُدّل الدين، كما فسد دين أهل الكتاب قبلنا بما وقع فيه من التبديل الذي لم يُنكر على أهله.

وإذا كان أقوام ليسوا منافقين لكنهم سمّاعون للمنافقين قد التبس عليهم أمرهم حتى ظنوا قولهم حقاً ـ وهو مخالف للكتاب ـ وصاروا دعاة إلى بدع المنافقين كما قال تعالىٰ:

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾(٢).

فلا بد أيضاً من بيان حال هؤلاء، بل الفتنة بحال هؤلاء أعظم، فإن فيهم إيماناً يوجب موالاتهم، وقد دخلوا في بدع من بدع المنافقين التي تفسد الدين، فلا بد من التحذير من تلك البدع، وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم، بل ولو لم يكن قد تلقوا تلك البدعة عن منافق لكن قالوها ظانّين أنها هدىً، وأنها خيرٌ، وأنها دِين، ولم يكن كذلك لوجب بيانُ حالهم، ولهذا وجب بيان حالِ من يغلط في الحديث والرواية، ومن يغلط في الرأي والفتيا، ومن يغلط في الزهد والعبادة، وإن كان المخطىء المجتهد مغفور له خطؤهُ، وهو مأجور على اجتهاده. فبيان القول والعمل الذي دل عليه الكتاب والسنة واجبٌ وإن كان في ذلك مخالفة لقوله وعمله. ومن عُلم منه الاجتهاد السائغ فلا يجوز أن يذكر على وجه الذم والتأثيم له، فإن الله غفر له خطأه، بل يجب لما فيه من الإيمان والتقوى موالاته ومحبته والقيام بما أوجب الله من حقوقه من ثناء ودعاء وغير ذلك، وإن عُلم منه النفاقُ كما عرف نفاق جماعة على عهد رسول الله ﷺ مثل «عبد الله بن أبي»

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

وذويه، كما علم المسلمون نفاق سائر الرافضة «عبد الله بن سبأ» وأمثاله مثل «عبد القدوس بن الحجاج». و «محمد بن سعيد المصلوب» فهذا يذكر النفاق.

وإن أعلن بالبدعة، ولم يُعلم هل كان منافقاً أو مؤمناً مخطئاً ذُكر بما يُعلم منه، فلا يحل للرجل أن يقفوَ ما ليس له به علم، ولا يحل له أن يتكلم في هذا الباب إلا قاصداً بذلك وجه الله تعالى، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، فمن تكلم في ذلك بغير علم أو بما يعلم خلافه كان آثماً، وكذلك القاضي والشاهد والمفتي كما قال النبي ﷺ.

«القضاةُ ثلاثةٌ: قاضيانِ في النارِ، وقاضٍ في الجنّة: رجل علم الحقّ وقضىٰ به فهوَ في الجنة، ورجل قضىٰ للناسِ على جهلٍ فهوَ في النارِ، ورجل علِمَ الحقّ فقضىٰ بخلافِ ذلكَ فهو في النار»[١].

وقال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[٢].

واللّيُّ: هو الكذب، والإعراض: كتمان الحق. ومثله ما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال:

«البيعان بالخيار ما لم يتفرّقا، فإنّ صَدَقَا وبيّنا بُورك لهما في بيعِهما، وإن كذَبا وكَتَمَا مُحقتْ بركةُ بيعِهما»[٣].

شروط غيبة المنافق والمبتدع:

ثم القائل في ذلك بعلم لا بد له من حسن النية، فلو تكلم بحق لقصدِ العلو في الأرض أو الفساد كان بمنزلة الذي يقاتل حميّة ورياء، وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصاً له الدين كان من المجاهدين في سبيل الله من ورثة الأنبياء خلفاء الرسل وليس هذا الباب مخالفاً لقوله: «الغيبةُ ذكركَ أخاكَ بما يكره»[٤]، فإن الأخ هو المؤمن وأخاً للمؤمن إن

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

ومُحقت البركة: زالت.

(٤) سبق تخريجه.

كان صادقاً في إيمانه لم يكْره ما قلتُه من هذا الحق الذي يحبه الله ورسوله، وإن كان فيه شهادة عليه وعلى ذويه، بل عليه أن يقوم بالقسط ويكون شاهداً لله ولو على نفسه أو والديه أو أقربيه، ومتى كره هذا الحق كان ناقصاً في إيمانه ينقص من أُخَوَّتِهِ بقدر ما نقص من إيمانه، فلم يعتبر كراهتهُ من الجهة التي نقص منها الإيمان، إذ كراهته لما يحبه الله ورسوله توجبُ تقديمَ محبة الله ورسوله كما قال الله تعالىٰ:

﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾[1].

ثم قد يقال: هذا لم يدخل في حديث الغيبة لفظاً ومعنى، وقد يقال: دخل في ذلك الذين خص منه، كما يخص العموم اللفظي والعموم المعنوي، وسواء زال الحكم لزوال سببه أو لوجود مانعه فالحكم واحد، والنزاع في ذلك يؤول إلى اللفظ إذ العلة قد يعني بها التامة، وقد يعني بها المقتضية والله أعلم وأحكم.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٢.

التواضع

ذم الفخر والبغي:

يقول الله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[1].

ويقول النبي ﷺ:

«الكبر بَطَر الحقِّ، وغمطُ الناس»[2].

فالفخر يشبه غمط الناس، لأن كلاهما تكبر على الناس. وأما بطر الحق: وهو جحده ودفعه، فيشبه الاختيار الباطل، فإنه تخيل أن الحق باطل بجحده ودفعه. ثم هنا وجهان:

الأول: أن يجعل الاختيال وبطر الحق من باب الاعتقادات، وهو أن يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً في ما يتعلق بتعظيم النفس وعلوّ قدرها، فيجحد الحق الذي يخالف هواها وعلوها، ويتخيل الباطل الذي يوافق هواها وعلوّها، ويجعل الفخر وغمط الناس من باب الإرادات، فإن الفاخر يريد أن يرفع نفسه ويضع غيره، وكذلك غامط الناس. يؤيد هذا ما رواه «مسلم» في صحيحه عن «عياض بن حمار المجاشعي» عن النبي ﷺ:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) رواه مسلم ورواه أبو داود والحاكم بلفظ قريب.
والغمط: الاستهانة والاستحقار. وقيل كفران النعمة وسترها.
وبطر الحق: أن يجعل ما جعله الله حقاً من توحيده وعبادته باطلاً، وقيل: يتكبر ويطغى عند سماع الحق فلا يقبله.

«أنه أوحي إليّ أنّ تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ»[1].

وقال في الخُيلاء التي يبغضها الله:

«الاختيالُ في الفخر والبغيِ»[2].

فكان في ذلك ما يدلّ على أن الاستطاعة على الناس إن كانت بغير حق فهي بغي، وإن البغي مجاوزة الحدّ، وإن كانت بحق فهي الفخر، لكن يقال على هذا: البغي يتعلق بالإرادة، فلا يجوز أن يجعل هو من باب الاعتقاد ونسميه من باب الإرادة، بل البغي كأنّه في الأعمال، والفخر في الأقوال، أو يقال: البغي: بطر الحق، والفخر: غمط الناس...

والثاني: أن يكونا جميعاً متعلقين بالاعتقاد والإرادة، لكن الخيلاء غمط الحق يعود إلى الحق نفسه الذي هو حق الله، وإن لم يكن يتعلق به حق آدمي، والفخر وغمط الناس يعود إلى حق الآدميين، فيكون التنويع لتمييز حق الآدميين مما هو حق لله لا يتعلق بالآدميين، بخلاف الشهوة في حال الزنا وأكل مال الغير.

فلما قال الله سبحانه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾[3].

والبخل منع النافع ـ قيد هذا بهذا.

أكبر الكبائر:

(إنّ أكبر الكبائر: الكفر والكبر)[4].

هذا حديث صحيح، فإن هذين الذنبين أساس كل ذلك في الإنس والجن، فإن إبليس هو الذي فعل ذلك أولاً وهو أصل ذلك.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة والبخاري في الأدب.

(٢) رواه أبو داود والنسائي وأحمد وابن حبان.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ٣٦ ـ ٣٧.

(٤) لم نعثر عليه بلفظه فيما رجعنا إليه من مصادر. ومعناه موجود في أحاديث كثيرة.

قال تعالىٰ:

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[2].

وفي «صحيح مسلم» عن «ابن مسعود» قال:

قال رسول الله ﷺ:

«لا يدخلُ النارَ من كانَ في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمان، ولا يدخلُ الجنةَ من في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْر»[3].

فجعل الكفر يضاد الإيمان.

وكذلك الشرك في مثل قوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾[4].

وقال «ابن مسعود»:

[من مات وهو لا يشركُ بالله شيئاً دخل الجنة][5].

قال: وأنا أقول: [من ماتَ وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار].

ثم من الناس من يجمع بينهما، ومن الناس من ينفرد له أحدهما.

والمؤمن الصالح عافاه الله منهما، فإن الإنسان إما أن يخضع لله وحده، أو يخضع لغيره مع خضوعه له، أو لا يخضع لله ولا لغيره، فالأول: هو المؤمن، والثاني: المشرك، والثالث: هو المتكبر الكافر وقد لا يكون كافراً في بعض المواضع، والنصارى آفتهم الشرك، واليهود آفتهم التكبر.

---

(١) سورة ص، الآية: ٧٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٣) رواه مسلم.

(٤) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٥) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد.

كما قال تعالى عن النصارىٰ:

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١).

وقال عن اليهود:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾(٢).

ولهذا عوقبت اليهود بضرب الذلة والمسكنة عليهم، والنصارى بالضلال والبدع والجهالة.

من يحمل أوزار الأتباع:

قال تعالىٰ:

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(٣).

فقوله تعالىٰ:

﴿**ومن أوزار الذين يضلونهم**﴾.

هي الأوزار الحاصلة لضلال الأتباع، وهي حاصلة من جهة الأمر ومن جهة المأمور الممتثل، فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال. فلهذا كان على هذا بعضه وعلى هذا بعضه، إلا أن كل بعض من هذين هو مثل وزر عامل كما دلت عليه سائر النصوص، مثل قوله ﷺ:

«**مَنْ دعا إلىٰ ضلالةٍ كانَ عليه وِزْرها ووزرَ مَنْ عملَ بها إلى يومِ القيامة**»(٤).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٢٢.
(٤) جزء من حديث رواه مسلم وأحمد في لفظ قريب.
والوزر: الإثم.

ومن هذا قوله تعالىٰ:

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

فأخبر سبحانه إن الأتباع دعوا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب كما أخبر عنهم بذلك في قوله تعالىٰ:

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾[2].

وأخبر سبحانه وتعالى أن لكل من المتبعين والأتباع تضعيفاً من العذاب ولكن لا يعلم الأتباع التضعيف، ولهذا وقع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى، وعظيم الذم واللعنة لأئمة الضلالة حتى روي في أثر لا يحضرني سنده:

[أنه ما من عذاب في النار إلا يُبدأ فيه بإبليس، ثم يصعدُ بعد ذلك إلىٰ غيره، وما من نعيمٍ في الجنةِ إلا يبدأ فيه بالنبي ﷺ ثم ينتقل إلى غيره].

فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم.

كما قال:

«أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخر، آدمُ ومَنْ دونَهُ تحتَ لوائي يوم القيامة ولا فخر»[4].

وهو شفيع الأولين والآخرين في الحساب بينهم، وهو أول من يستفتح باب الجنة.

اتباع سبيل الكافرين:

قال تعالىٰ في كتابه العزيز:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[4].

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.
(٣) رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد والطبراني وابن عساكر.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ١٢.

أخبر ـ تعالى ـ أن أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الأتباع شيئاً، وأخبر أنهم يحملون أثقالهم، وهي أوزار الأتباع من غير أن ينقص من أوزار الأتباع شيء، لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك، وفعلوا مقدورهم، فصار لهم جزاء كل عامل، لأن الجزاء على العمل يستحق مع الإرادة الجازمة وفعل المقدور منه.

وهو كما ثبت في الصحيحين من حديث «ابن عباس» رضي الله عنهما عن «أبي سفيان» رضي الله عنه أن النبي ﷺ كتب إلى «هرقل»:

«فإنْ توليْتَ فإن عليك إثم الأريسيين»[1].

فأخبر أن «هرقل» لما كان إمامهم المتبوع في دينهم أن عليه إثم الأريسيين، وهم الأتباع، وإن كان قد قيل: إن أصل هذه الكلمة من الفلاحين الأكرة، كلفظ الطاء بالتركي، فإن هذه الكلمة تقلب إلى ما هو أعم من ذلك.

ومعلوم أنه إذا تولىٰ عن أتباع الرسول كان عليه مثل آثامهم من غير أن ينقص من آثامهم شيءٌ، كما دل عليه سائر نصوص الكتاب والسنة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

التوكل على الله

وجوب التوكل على الله:

يقول تعالى في الحديث القدسي:

«يا عبادي كلكم جائعٌ إلا منْ أطعمتهُ، فاستطعموني أُطعمكم، وكلكُم عارٍ إلا من كسوتهُ، فاستكسوني أكسكم»[1].

يقتضي قوله تعالى أمرين عظيمين:

أحدهما: وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة، كالطعام ودفع المضرة كاللباس، وإنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة، وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال تعالىٰ:

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ ﴾[3].

فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله تعالىٰ:

﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾[4].

---

(١) رواه مسلم والترمذي والبيهقي في الآداب.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥.

(٤) سورة البلد، الآية: ١٤.

وقوله تعالىٰ:

﴿ وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾(١).

وقوله تعالىٰ:

﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾(٢).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾؟(٣).

فذم من يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القدر.

السبب المأمور به أو المباح لا ينافي التوكل:

ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب، بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب: إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب، ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سبباً إلا بمشيئة الله تعالى، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل، وأخلّ بواجب التوحيد، ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب، فمن رجا نصراً أو رزقاً من غير الله خذله اللَّهُ كما قال «علي» كرم الله وجههُ:

[لا يرجوَنَّ عبدٌ إلا ربَّهُ، ولا يخافنَّ إلا ذنبهُ].

وقد قال تعالىٰ:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٤).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٦.
(٢) سورة الحج، الآية: ٢٨.
(٣) سورة يس، الآية: ٤٧.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٢.

وقال تعالىٰ:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(1).

وقال تعالىٰ:

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(2).

وهذا كما أن من أخذ في التوكل تاركاً لما أمر الله به من الأسباب فهو أيضاً ظالم جاهل عاص لله بترك ما أمره، فإن فِعْلَ المأمور به عبادة لله.

وقد قال تعالىٰ:

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾(3).

وقال تعالىٰ:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(4).

وقال تعالىٰ:

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾(5).

وقال شعيب عليه السلام:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(6).

وقال تعالىٰ:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(7).

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ١٧.
(2) سورة الزمر، الآية: ٣٨.
(3) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(4) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(5) سورة الرعد، الآية: ٣٠.
(6) سورة هود، الآية: ٨٨.
(7) سورة الشورىٰ، الآية: ١٠.

وقال تعالىٰ:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾(١).

فليس من فعل شيئاً أُمر به وترك ما أمرنا من التوكل بأعظم ذنباً ممن فعل توكلاً ما أمر به، وترك فعل ما أمر به من السبب، إذ كلهما مخلٌ ببعض ما وجب عليه، وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألزم، وقد يكون الآخر، مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب.

وقد روى «أبو داود» في سننه أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه: حسبيَ اللَّهُ ونعمَ الوكيلُ.

فقال ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ يلومُ على العجز، ولكن عليك بالكَيْسِ، فإن غَلَبَكَ أمرٌ فقل: حسبيَ اللَّهُ ونعم الوكيل»(٢).

وفي صحيح «مسلم» عن «أبي هريـرة» رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ من المؤمنِ الضعيفِ، وفي كُلٍّ خيرٌ. أحرصْ على ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تعجز، فإنْ أصابَكَ شَيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قُلْ: قدَّر اللَّهُ ما شاء فعل، فإنّ لو تفتح عمل الشيطان»(٣).

ففي قوله ﷺ:

«احرصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز...».

أمرٌ بالتسبب المأمور به، وهو الحرص على المنافع، وأمر مع ذلك بالتوكل وهو

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
برآء: بريئون.
بدا: ظهر.

(٢) رواه أبو داود والطبراني.

(٣) رواه مسلم وأحمد في المسند.

الاستعانة بالله، فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين، ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس.

كما قال في الحديث الآخر:

«إنّ اللَّهَ يلومُ على العجزِ ولكن عليكَ بالكَيْس»[1].

وكما في الحديث:

«الكيّسُ من دانَ نفسَهُ وعمل لما بعد الموتِ، والعاجزُ من أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنّى على اللّهِ الأماني»[2].

فالعاجز في الحديث مقابل الكيس، ومن قال: العاجز هو مقابل البر، فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه، ومنه الحديث:

«وكلُّ شيءٍ بقَدَرٍ، حتىٰ العجزُ والكَيْس»[3].

ومن ذلك ما روى «البخاري» في «صحيحه» عن «ابن عباس» قال:

[كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس].

فقال تعالىٰ:

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[4].

غلط بعض الطوائف في موضوع التوكل واتباعهم الهوىٰ:

فمن فعل ما أمر به من التزود، فاستعان به على طاعة الله، وأحسن منه إلى أن يكون محتاجاً، كان مطيعاً لله في هذين الأمرين، بخلاف من ترك ذلك ملتفتاً إلى الجملة، لكن إذا كان التزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج، فقد يكون في تركه لما أُمر به في جنس هذا التارك لتزود المأمور به، وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف: طائفة تضعف أمر السبب المأمور به، فتعده نقصاً، أو قدحاً

---

(١) رواه أبو داود والطبراني.
(٢) رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد والحاكم والبيهقي.
ودان نفسه: حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة.
(٣) رواه مسلم وأحمد ومالك والبيهقي.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

في التوحيد والتوكل، وإن كان تركه من كمال التوكل والتوحيد وهم في ذلك ملبوس عليهم.

وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة، ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك، فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبةً ورهبةً، وإما أن يترُكوا - من أجل ما تبتّلوا له من الغلو في التوكلِ - واجباتٍ أو مستحبات أنفع لهم من ذلك، كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضِهِ بلا دواء، أو نيلِ رزقه بلا سعيٍ، فقد يحصل ذلك، لكن كانَ مباشرة الدواء الخفيف، والسعي اليسير، وصرف تلك الهِمة والتوجه في عمل صالح أنفع له، بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدرُهُ درهم أو نحوه.

وفوق كل هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضاً نقصاً وانقطاعاً عن الخاصة ظناً أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصة.

وقد قال في هذا الحديث:

«كلكمْ جائعٌ إلا من أطعمتُهُ، فاستطعموني أُطْعمكم»[(١)].

وقال:

«فاستكسُوني أكْسِكُمْ»[(٢)].

الله يطلب من عباده أن يسألوه كل شيء:

وفي «الطبراني» أو غيره عن النبي ﷺ قال:

«ليسألْ أحدُكُمْ ربّه حاجته كلّها حتى شِسْع نعلِهِ إذا انقطعَ، فإنه إن لم ييسرهُ اللَّهُ لم يتيسر»[(٣)].

وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضاً استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك. وقولهم: يوجب دفع المأمور به مطلقاً، بل دفع المخلوق والمأمور. وإنما غلطوا حيث ظنوا أن سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب المأمور به، كمن يتزندق[(٤)] فيترك الأعمال الواجبة بناءَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الترمذي والطبراني وأبو يعلىٰ والبزار.
والشسع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الإصبعين، ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام.

(٤) الزنديق: كلمة فارسية معربة. وتطلق على الذي لا يتمسك بالشريعة، وعلى الملاحدة.

على أن القَدَرَ قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة، ولم يعلم أن القدر سبق بالأمور على ما هي عليه: فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدّره الله تيسيرَه لعمل أهل السعادة، ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدّره إنه ييسره لعمل أهل الشقاء.

كما قد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال في حديث «علي بن أبي طالب» و «عمران بن حصين» و «سراقة بن جعشم» وغيرهم.

ومنه حديث «الترمذي»: حدثنا «ابن أبي عمر» حدثنا «سفيان» عن «الزهري» عن «أبي خزامة» عن أبيه قال:

«سألتُ النبي ﷺ فقلتُ: يا رسول اللَّهِ، أرأيتَ أدويةً نتداوىٰ به، ورُقىً نترقى بها، وتُقاة نتّقيها، هل تردُّ من قَدْرِ الله شيئاً؟ فقال: هي من قَدَرِ اللَّهِ»[1].

وطائفة تظن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل. وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك، وهذا ضلال مبين، بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، ومن تركها بالكلية فهو إما كافر، وإما منافق، لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة منهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات، ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك. وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علماً وعملاً بأقل لوماً من التاركين لما أُمروا به من أعمال ظاهرة، مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال، بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة، وإن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها، والأمور الظاهرة كما لها وفروعها التي لا تتم إلا بها.

هل التوكل والدعاء عبادة محضة:

من قال: إن التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة، وإنما هو عبادة محضة، وأن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض، فهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ فهو غلط أيضاً، وكذلك قول من قال: [إن الدعاء إنما هو عبادة محضة].

فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد وهو: أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة أيضاً تكون من العبد، ولم يعلم أن الله

(١) رواه الترمذي والحاكم.

سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم ولهذا كان قولهم يوجبُ تعطيل الأعمال بالكلية. وقد سُئل النبي ﷺ عن هذا الأصل مرات فأجاب عنه كما في الصحيحين عن «عمران بن حصين» قال:

«**قيل لرسولِ الله ﷺ: يا رسول الله، أَعُلِمُ أهلُ الجنة مِنْ أهل النار؟ قال: نعم، قالوا: ففيم العمل؟ قال: كُلٌّ مُسَيَّرٌ لما خُلقَ لَهُ**»[1].

وفي الصحيحين عن «علي بن أبي طالب» قال:

[كنا في جنازة فيما رسول الله ﷺ فجلس ومعه مخصرة، فجعل ينكتُ بالمخصرة في الأرضِ، ثم رفع رأسه وقال:

ما من نفسٍ منفوسةٍ إلا وقد كُتب مكانُها من النار، أو الجنة، إلا وقد كُتبت شقية أو سعيدة.

قال: فقال رجل من القوم: يا نبي الله أفلا نمكث على كتابنا وتدعُ العمل؟ فمن كانَ من أهلِ السعادة ليكوننَ إلى السعادةِ، ومن كان من أهل الشقاوة ليكوننّ إلى الشَقاوة. قال:

اعملوا فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق لَهُ، أما أهلُ السعادةِ فييسرونَ للسعادةِ، وأما أهل الشقاوة، فيُيسرون للشقاوة.

ثم قال نبي الله ﷺ:

«﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾»[2]][3].

وروى الترمذي أن النبي ﷺ سئل فقيل:

«**يا رسول الله أرأيت أدويةً نتداوىٰ بها، ورقىٰ نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: هي من قدر الله**»[4].

قال بعض السلف:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة الليل، الايات: ٤ ـ ١٠.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وأبو داود.
المخصرة: كالسوط ونحوه مما يمسكه الإنسان بيده من عصىً ونحوها.

(٤) رواه الترمذي والحاكم.
تقاة: ما يتقىٰ ويَحذر.

[من سرّه أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله].

وفي الصحيحين عن «عبد الله بن عمرو» أن ﷺ صفته في التوراة:

(انا أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة، ويعفو، ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، بأن يقولوا لا إله إلا الله).

ولهذا روي أن حملة العرش إنّمـا أطاقوا حمل العرش بقولهم: [لا حول ولا قوة إلا بالله] وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ:

«أنها كنز من كنوز الجنة»[1]

قال تعالىٰ:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[3].

إلى قوله:

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4].

وفي صحيح «البخاري» عن «ابن عباس» رضي الله عنه في قوله تعالىٰ:

﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[5].

(قالها إبراهيم الخليل حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ عندما قال لـه الناس إن الناس قد جمعوا لكم)[6].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٦) رواه البخاري.

ذم الحسد

أنواع الحسد:

من أمراض القلوب الحسد كما قال بعضهم في حده:

أنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء، فلا يجوز أن يكون الفاضل حسوداً، لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل. وقد قالت طائفة من الناس: إنه تمني زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها، بخلاف الغِبطة، فإنه تمني مثلها من غير حُبِّ زوالها عن المغبوط.

والتحقيق: أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان:

أحدهما: كراهة النعمة عليه مطلقاً، فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه لم يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضاً في قلبه، ويلتذ بروح النعمة عنه، وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه، ولكن ذلك الألم لم يَزُل إلا بمباشرة منه وهو راحة، وأشده كالمريض الذي عولج بما يسكن وجَعَهُ والمرضُ باقٍ، فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض، فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها، وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك الحسد.

والحاسد له غرض في شيء معين لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع ولهذا قال من قال: إنه تمني زوال النعمة، فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه.

النوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه، فيجبّ أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد، وهو الذي سموه بالغبطة، وقد سماه ﷺ حسداً في الحديث المتفق عليه من حيث حديث «ابن مسعود» و «ابن عمر» رضي الله عنهما أنه قال:

«لا حَسَدَ إلا في اثنتينِ: رجلٍ آتاهُ اللَّهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلِّمُها، ورجلٍ آتاهُ اللَّهَ مالاً وسلَّطه على هَلَكَتِهِ في الحقِّ»[1].

ولفظ ابن عمر:

«رجل آتاهُ اللَّهَ القرآنَ فهو يقومُ به آناءَ الليل والنهار، ورجل آتاهُ مالاً فهو ينفقُ منه في الحقِّ آناء الليل وأطراف النهار»[2].

رواه «البخاري» من حديث «أبي هريرة» ولفظه:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاهُ اللَّهُ القرآنَ فهو يتلوهُ الليلَ والنهارَ، فسمعه رجلٌ فقال: يا ليتني أُوتيت مثل ما أوتي هذا، فعملتُ فيه مثلَ ما يعملُ هذا، ورجلٍ آتاهُ اللَّهُ مالاً فهو يُهلكه في الحقّ».

فقال رجلٌ: يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا فعملتُ فيه مثلَ ما يعملُ هذا[3].

فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين، هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير، ويكرهَ أن يفضل عليه.

فإن قيل: إذاً لمَ سميّ حسداً وإنما أحب أن ينعم الله عليه؟ قيل: مبدأ هذا الحب هونظره إلى أنعامه على الغير، وكراهته أن يتفضل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسداً، لأنه كراهةٌ تتبعُها محبة وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع التفاته إلى أحوال الناس، فهذا ليس عنده من الحسد شيء، ولهذا يُبتلىٰ غالب الناس بهذا القسم الثاني وتسمى المنافسة، فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب، كلاهما يطلب أن يأخذه وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل على الآخر، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر، والتنافس ليس مذموماً مطلقاً، بل هو محمود في الخير قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[4].

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة والبيهقي.
(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة ومسلم.
(٣) رواه البخاري.
(٤) سورة المطففين، الآيات: ٢٢ ـ ٢٦.

فأمر التنافس أن ينافس في هذا النعيم لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل، وهذا موافق للحديث الذي قاله ﷺ الذي نهى فيه عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلمه، ومن أوتي المال فهو ينفقه، فأما من أوتي علماً، ولم يعملْ به، ولم يعلّمه، أو أوتيَ مالاً، ولم ينفقه في طاعة الله، فهذا لا يُحسد ولا يُتمنىٰ مثلُ حاله، فإنه ليس في خير يُرغب فيه، بل هو معرّض للعذاب، ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل أدى الأمانات إلى أهلها، وحكم بين الناس بالكتاب والسنة فهذا درجته عظيمة، لكن هذا في جهاد عظيم، كذلك المجاهد في سبيل الله.

والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم، فلهذا لم يذكره، وإن كان المَجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال، بخلاف المنفق والمعلم، فإن ليس لهم في العادة عدو من خارج فإن قدر أنهما عدو يجاهدانه، فذلك أفضل لدرجتهما، وكذلك لم يذكر النبي ﷺ المصلي والصائم والحاج، لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة من نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ويودُّونه ما يحصل بالتعليم والانفاق.

والحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير في السؤدد والرياسة، وإلا فالعاملُ لا يُحسد في العادة ـ ولو كان تنعمّه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره ـ بخلاف هذين النوعين، فإنهما يُحسدان كثيراً، ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد في مَنْ ليس كذلك، وكذلك في من له أتباع بسبب إنفاق ماله، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب، وهذا ينفعهم بقوة الأبدان، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا. ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين: مثلاً بهذا، ومثلاً بهذا.

فقال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾(١).

والمثلين ضربهما الله لنفسه المقدسة، ولما يعبد من دونه، فإن الأوثان لا تقدر على عمل ينفع، ولا على كلام ينفع، فإذا قدر عبد مملوك لا يقدر على شيء، وآخر قد رزقه الله رزقاً حسناً، فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوي هذا المملوك العاجز عن

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٥، ٧٦.

الإحسان، وهذا القادر على الإحسان المحسن إلى الناس سراً وجهراً؟؟ وهو سبحانه قادر على الإحسان إلى عباده، وهو محسن إليهم دائماً، فكيف يشبه به العاجز المملوك الذي لا يقدر على شيء حتى يشرك به معه؟؟ وهذا مثل الذي أعطاه مالاً، فهو ينفق منه آناء الليل والنهار.

والمثل الثاني: إذا قدر شخصاً أحدهما أبكم لا يقدر ولا يتكلم ولا يقدر على شيء، وهو مع هذا كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتِ بخير، فليس فيه من نفع قط، بل هو كلٌّ على كل من يتولى أمره، وآخر عالم عادل يأمر بالعدل، ويعمل بالعدل، فهو على صراط مستقيم وهذا نظير الذي أعطاه الله الحكمة هو يعمل بها ويعلمها الناس.

الغبطة ليست كالحسد:

كما حصل حسد الغبطة لموسى عليه السلام في حديث المعراج.

«لما تجاوزه النبي ﷺ فقيل له ما يبكيك؟ قال: أبكيْ لأنّ غلاماً بعدي يدخلُ الجنةَ مِنْ أمته، أكثرَ ممن يدخُلها من أمتي»[1].

أُخرج في الصحيحين.

وحصل «لعمر» عندما وضع نصف ماله وقال: [الآن أسبقُ أبا بكر] فوضع «أبو بكر» ماله كله، فقال «عمر» [والله لا أسبقه إلى خيرٍ أبداً].

وفي حديث رواه «أحمد» عن «أنس» في المسند:

[كنا جلوساً عند رسول الله فقال: **«يطلع عليكم الآن من هذا الفجّ رجلٌ من أهل الجنّةِ قال: فطلعَ رجلٌ من الأنصار تنطف لحيتُهُ من وضوء، وقد علّق نعليه في يده الشمال، فسلّم، فلما كانَ الغدُ، قال ﷺ مثل ذلك، فطلعَ ذلك الرجلُ على مثلِ حالِهِ، فلما كان اليوم التالي قال ﷺ مقالته، فطلع ذلك الرجل على مثل حالِهِ، فلما قامَ ﷺ اتبعه عبدُ اللّهِ بنُ عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال:**

«إني لأحببت أبي، فأقسمتُ أن لا أدخُلَ عليه ثلاثاً، فإن رأيتَ أن تؤوني إليك حتى تمضيَ الثلاثُ فعلتُ، قال: نعم قال أنس...»[2].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه أحمد.

وبهذا أثنى الله عز وجل على الأنصار فقال:

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1].

وكان بين «الأوس» و «الخزرج»[2] منافسة على الدين، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند رسول الله وعند الله أحب الآخرون أن يفعلوا ذلك، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله.

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[3].

الحسد المذموم:

أما الحسد المذموم كله، فقد قال الله تعالىٰ في حق اليهود:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾[4].

يودون: أي يتمنون ارتدادكم حسداً.

فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعدما تبين لهم الحق، لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل، بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم. وكذلك في الآية الأخرىٰ:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾[5].

وقال تعالىٰ:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) الأوس والخزرج: قبيلتان كانتا تسكنان المدينة المنورة قبل هجرة رسول الله ﷺ.

(٣) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(٥) سورة النساء، الآية: ٥٤.

﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾[1].

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها نزلت بسبب حسد اليهود لرسول الله ﷺ حتىٰ سحروه، سحره «لبيد بن الأعصم» اليهودي.

فالحاسد المبغض للنعمة على ما أنعم الله عليه بها ظالم معتد، والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله، فإذا أحب أن يعطي مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله، فهذا لا بأس به، وإعراض القلب عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل.

ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالماً معتدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب، وكان المحسود مظلوماً مأموراً بالصبر والتقوىٰ، فيصبر على أذىٰ الحاسد ويعفو ويصفح عنه.

كما قال تعالىٰ:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[2].

حسد يوسف عليه السلام:

وقد ابتلي يوسف بحسد إخوته له حيث قالوا:

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3].

فحسدوهما مع تفضيل الأب لهما.

ولهذا قال يعقوب ليوسف عليهما السلام:

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[4].

ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله، وإلقائهِ في الجب[5]، وبيعه رقيقاً لمن ذهب به إلى بلادالكفر فصار مملوكاً لقوم كفار.

---

(١) سورة الفلق، الآيات: ١ ـ ٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٥.
(٥) الجبّ: البئر المظلم...

ثم إن يوسُف ابتُلي بعد أن ظلم بمن يدعوه إلى الفاحشة، ويراوده عليها، ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك منه، فاستعصم، واختار السجن على الفاحشة، وآثر عذاب الدنيا على سخط الله عز وجل، فكان مظلوماً من جهة من أحبه لهواه وغرضه الفاسد.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

المؤمن مبتلىٰ:

وقد أوذي المؤمن على إيمانه، وطُلب منه الكفر، أو الفسوق، أو العصيان، وإن لم يفعل أوذي وعوقب، فاختار الأذىٰ والعقوبة على فراق دينه، إما الحبس، وإما الخروج من بلده، كما جرىٰ للمهاجرين، حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذَّبون ويؤذَون.

ابتلاء النبي ﷺ:

وقد أوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذىٰ، فكان يصبر عليها صبراً اختيارياً، فإنه إنما يؤذىٰ لئلا يفعل ما يفعله باختياره.

وكان هذا أعظم من صبر يوسف عليه السلام، لأن يوسف عليه السلام إنما طُلب منه الفاحشة، وإنما عوقب إذا لم يفعل بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طُلب منهم الكفر، وإذا لم يفعلوا طُلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون ما عوقب به الحبس، فإن المشركين حبسوه وبني «هاشم» بالشِّعب مدة، ثم لما مات «أبو طالب» اشتدوا عليه، فلما بايعت الأنصارُ وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج، ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك، ولم يكن أحدٌ يهاجر إلا سراً إلا «عمر بن الخطاب» ونحوه. فكانوا قد ألجأوهم إلى الخروج من ديارهم، ومع هذا منعوا من منعوه منهم عن ذلك وحبسوه، فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله، ولم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد، من جنس حبس يوسُف عليه السلام، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه.

وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم درجة، وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه، وتكفر عنه الذنوب بمصائبه، فإن هذا أصيب وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب، ويكتب له بها عمل صالح.

---

(1) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

قال تعالىٰ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

المبتلون يثابون على البلاء:

والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله، ويحدُثُ لهم بسبب ذلك حرج، ومرض، أو حبس، وفراق وطن، وذهاب مال وأهل، أو ضرب، أو شتم، أو نقص رياسة، أو مال، هم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجرين الأولين.

فهؤلاء يثابون على ما يؤذونه به، ويكتب لهم به عمل صالح، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب، وعلى غيظة الكفار.

وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعله يقوم به، لكنها متسببة عن فعله الاختياري، وهي التي يقال لها: متولدة.

وقد اختلف الناس، هل يقال: إنها فعل لفاعل السبب، أو لله، أو لا فاعل لها؟؟

والصحيح: أنها مشتركة بين فاعل السبب وسائر الأسباب، ولهذا كُتب له بها عمل صالح.

الحسد مرض نفسي غالب:

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا قليل من الناس، ولهذا يقال:

[ما خلا جسدٌ من حسدٍ، لكن اللئيم يبديهِ، والكريمَ يخفيه].

وقد قيل «للحسن البصري»:

أيحسد المؤمن؟؟

فقال: [ما أنساك إخوةَ «يوسُف» عليه السلام لا أبا لك!! ولكن عمهَ في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعِدْ به يداً، ولساناً].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

فمن وجد في نفسه حسداً لغيره، فعليه أن يستعمل معه التقوىٰ والصبر، فيكره ذلك في نفسه، وكثير من الناس عندهم دين لا يعتدون على المحسود فلا يعينون على ظلمه، ولكنهم أيضاً لا يقومون بما يجب في حقه، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه، ولا يذكرون محامده.

وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه، مفرطون في ذلك لا معتدون عليه، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم، فلا ينصفون أيضاً من مواضع، ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود، فأما من اعتدىٰ بقول أو بفعل فذلك يعاقب.

ومن اتقىٰ الله وصبر فلم يدخل في الظالمين نفعه الله بتقواه، كما جرىٰ «لزينب بنت جحش» رضي الله عنهما، فإنها كانت هي التي تسامي «عائشة» من أزواج النبي ﷺ.

حسد النساء:

وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزوج واحد، فإن المرأة تغار على زوجها لحظها منه، فإنه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها.

الحسد بين المتشاركين والنظراء:

وهكذا الحسد يقع كثيراً بين المتشاركين في رئاسة أو مال إذا أخذ بعضهم قسطاً من ذلك وفات الآخر، ويكون بين النظراء لكراهة أحدهما أن يفضل الآخر عليه، كحسد إخوة يوسف عليه السلام، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه، فإن حسده لكون أن الله تقبل قربانه، ولم يتقبل قربان هذا، فحسده على ما فضله الله من الإيمان والتقوىٰ - كحسد اليهود للمسلمين - وقتله على ذلك.

ولهذا قيل:

أول ذنب عُصيَ اللَّهُ به ثلاثة:

الحرص، والكبر، والحسد.

فالحرص من آدم.
والكبر من إبليس.
والحسد من «قابيل» حيث قتل «هابيل».

وفي الحديث:

«ثلاثٌ لا ينجو منهنّ أحدٌ: الحسدُ، والظنُّ، والطيرةُ، وسأحدثكم بما يخرجُ من

ذلك، إذا حسدتَ فلا تُبغض، وإذا ظننتَ فلا تحققْ، وإذا تطيرتَ فامضِ»[1].

رواه «ابن أَبي الدنيا» من حَديث «أَبي هريرة».

وفي السنن عن النبي ﷺ:

«دبَّ إليكُم داء الأمم قبلكم، الحسدُ والبغضاءُ، وهي الحالقةُ، لا أقول: تحلقُ الشعرَ، ولكن تحلق الدين»[2].

فسماه داء، كما سمىٰ البخل داء في قوله:

«وأيُّ داءٍ أدوأ من البخل»؟.

فعلم أن هذا مرض.

وقد جاء في حديث آخر:

«أعوذُ بك من منكرات الأخلاقِ، والأهواءِ، والأدواءِ»[3].

فعطف الأدواء على الأخلاق والأهواء.

فإن الخُلُق ما صار عادة للنفس وسجية.

قال تعالىٰ:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[4]

قال «ابن عباس» و «ابن عيينة» و «أحمد بن حنبل» رضي الله عنهم: [أي على دين عظيم].

وفي لفظ «ابن عباس»: [على دين الإسلام].

وكذلك قالت «عائشة» رضي الله عنها:

كان خلقه القرآن.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ في التوبيخ، والطبراني.

(٢) رواه الترمذي وأحمد والبزار والبيهقي.

(٣) رواه الترمذي والطبراني والحاكم.

(٤) سورة القلم، الآية: ٤.

وكذلك قال «الحسن البصري»: أدب القرآن هو الخلق العظيم.

داء الهوىٰ والبغضاء:

وأما الهوىٰ فقد يكون عارضاً، والداء هو المرض، وهو تألم القلب، والفساد فيه.

وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء، لأن الحاسد يكره أولاً فضل ذلك الغير، ثم ينتقل إلىٰ بغضه، فإن بغض اللازم يقتضي بغض الملزوم.

فإن نعمة الله إذا كانت لازمة، وهو يحب زوالها، وهي لا تزول إلا بزواله أبغضه وأحب عدمه.

والحسدُ يوجب البغي، كما أخبر الله تعالىٰ عمن قبلنا: أنهم اختلفوا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم.

فلم يكن اختلافاً لعدم العلم بل على الحق، ولكن بغىٰ بعضهم على بعض كما يبغي الحاسد على المحسود.

وفي الصحيحين:

عن «أنس بن مالك» رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«لا تحاسَدوا، ولا تباغَضوا، ولا تدابَروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عبادَ اللَّهِ إخواناً، ولا يحلُّ لمسلم أن يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ ليالٍ، يلتقيانِ فيصدُّ هذا، ويصدُّ هذا، وخيرهما الذي يبدأُ صاحبَهُ بالسلام»[1].

وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته من رواية «أنس» أيضاً:

«والذي نفسي بيده لا يؤمنُ أحدُكم حتىٰ يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[2].

من هم المبطئون:

وقد قال تعالىٰ:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) سورة النساء، الآية: (٧٢، ٧٣).

فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها، بل أحبوا أن يكون لهم منها حظٌ، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم، أو شر دنيوي ينصرف عنهم، إذ كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم، وأحبوا ما وصل إليهم من فضله، وتألموا بما يصيبهم من المصيبة.

ومن لم يسرُّه ما يسر المؤمن، ويسوؤه ما يسوء المؤمنين فليس منهم.

ففي الصحيحين عن «عامر» قال: سمعت «النعمان بن بشير» يخطب ويقول:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مثلُ المؤمنين في توادهم، وتراحِمهم، وتعاطفهم مثلُ الجسدِ الواحِد إذا اشتكىٰ منه شيءٌ تداعىٰ له سائر الجسد بالحمىٰ والسهر»[1].

وفي الصحيحين عن «أبي موسىٰ الأشعري» رضي الله عنه قالَ:

قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً، وشبكَ بين أصابعه»[2].

علاقة الشح بالحسد:

والشح مرض، والبخل مرض، والحسد شر من البخل.

كما في الحديث الذي رواه «أبو داود» عن النبي ﷺ:

«الحسدُ يأكل الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ، والصدقةُ تطفىءُ الخطيئةَ كما يطفىءُ الماءُ النارَ»[3].

وذلك أن البخيل يمنع نفسه، والحسود يكره نعمة الله على عباده، وقد يكون من الرجل لمن يعينه على أعراضه، وحسد لنظرائه، وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره، والشح أصل ذلك.

قال تعالىٰ:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه أبو داود وابن ماجة.

(٤) سورة التغابن، الاية: ١٦.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال:

«إياكم والشحَّ، فإنهُ أهلكَ من كان قبلكُمْ، أمرهُمْ بالبخلِ فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهُمْ بالقطيعَةِ فقطعوا»[1].

وكان «عبد الرحمن بن عوف» يكثر من الدعاء في طوافه يقول:

[اللهم قني شحَّ نفسي].

فقال له رجل: ما أكثر ما تدعو بهذا، فقال:

[إذا وُقيت شحّ نفسي وُقيت الظلم، والبخل، والقطيعة].

والحسد يوجب الظلم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

الهجرة إلى الله ورسوله

الهجرة مشتقة من الهجر، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

«المهاجرُ من هجرَ ما نهىٰ اللَّهُ عنه، والمجاهدُ من جاهدَ نفسَهُ في ذات اللَّهِ»(١).

كما قال:

«المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ من لسانه ويده، والمؤمنُ من أمنَهُ الناسُ على دمائِهم وأموالهم»(٢).

وهذا بيان منه لكمال مسمىٰ هذا الاسم.

كما قال:

«ليس المسكين بهذا الطواف»(٣).

قد يشبه هذا قوله:

«ما تعدونَ المفلس فيكم؟ قالوا: من ليسَ له درهمٌ ولا دينارٌ، قال: ليسَ هذا المفلس، ولكن المفلسَ من يأتي يوم القيامةِ بحسنات أمثالِ الجبال، ويأتي وقد ضربَ هذا، وشتم هذا، وأخذ مالَ هذا، فيُعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم يبقَ له حسنةٌ أخذ من سيئاتهم، فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار»(٤).

---

(١) لم نجد الحديث بلفظه. وعند أحمد في المسند: المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه، والشطر الثاني من الحديث رواه مفرداً الترمذي وابن حبان.

(٢) روا أحمد والترمذي والنسائي والحاكم.

(٣) جزء من حديث رواه بلفظ قريب أحمد في المسند، والبخاري ومسلم والنسائي وأبو داود.

(٤) رواه مسلم وأحمد والترمذي وأبو داود.

وقال:

«ما تعدّون الرقوبَ فيكم؟ قالوا: من لا يُولدُ له، قال: الرقوبُ من لم يقدم من ولده شيئاً»[1].

ومثله قوله:

«ليس الشديدُ بالصُّرَعَة، وإنما الشديدُ الذي يملك نفسَهُ عندَ الغضبِ»[2].

لكن في هذه الأحاديث مقصود وبيان ما هو أحق بأسماء المدح والذم عما يظنونه، فإن الإفلاس حاجة، وذلك مكروه، فبيّن أن حقيقة الحاجة إنما تكون يوم القيامة.

وكذلك عدم الولد تكرهه النفوس لعدم الولد النافع، فبيّن أن الانتفاع بالولد حقيقة إنما يكون في الآخرة لمن قدم أولاده بين يديه، وكذلك الشدة والقـوّة محبوبة، فبيّن أن قوة النفوس أحق بالمدح من قوة البدن، وهذا يهلك نفسه عند الغضب.

كما قيل لبعض سادات العرب:

[ما بال عبيدكم أصبر منكم عند الحروب، وعلى الأعمال، قال: هم أصبر أحساداً، ونحن أصر نفوساً].

وقال رسول الله ﷺ:

«فمن كانت هجرتُه إلىٰ اللّهِ ورسولِهِ، فهجرته إلى الله ورسولِه»[3].

فقوله ﷺ ليس تحصيل حاصل، لكنه إخبار بأن من نوىٰ بعمله شيئاً، فقد حصل له ما نواه.

أي: من قصد بهجرته الله ورسوله حصل له ما قصده، ومن كان قصده بها الهجرة إلى دنيا أو امرأة فليس له إلا ذلك.

فهذا تفصيل لقوله:

«إنما الأعمالُ بالنيات»[4].

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد.
والصُّرَعة: المُبالغ في الصراع الذي لا يُغلب، واستعملت في الحديث الذي يغلب نفسه عند الغضب ويقهرها، فإنه إذا ملكها كان قد قهر أقوىٰ أعدائه وشر خصومه.

(٣) و (٤) جزءان من حديث واحد بدايته (إنما الأعمال بالنيات).
وقد رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجة.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الصــلاح

الشرك أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الإصلاح ولهذا قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

إلى أن ختتم السورة بقوله:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾[3].

وقال تعالىٰ:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[4].

وقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[5] بغير الحق.

(١) سورة القصص، الآية: ٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٢.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

فـأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد الشرك والكفر، كما قال سبحانه وتعالىٰ عن المنافقين:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾(١).

وذلك أن صلاح كل شيء في أن يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذي يُراد منه ولهذا يقول الفقهاء:

[العقد الصحيح ما ترتب عليه أثَرُهُ، وحصل به مقصودُهُ، والفاسدُ من لم يترتَبْ عليه أثره، ولم يحصل به مقصودُه] والصحيح المقابل للفاسد في اصطلاحهم هو الصالح، وكان يكثر في كلام السلف: [هذا لا يصلح، أو يصلح] كما كثر في كلام المتأخرين [يصح، ولا يصح] واللَّهُ إنما خلق الإنسان بعبادته، وبَدَنُهُ تبع لقلبه كما قال ﷺ:

«ألا إنّ في الجَسَدِ مضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ سائرُ الجَسَدِ، وإذا فَسَدَتْ فسد سائر الجسدِ، ألا وهي القلبُ»(٢).

وصلاح القلب في أن يحصل له وبه المقصود الذي خُلق له من معرفة الله ومحبته وتعظيمه، وفسادُه في ضد ذلك، فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط. والقلب له قوتان: العلم والقصد.

كما أن للبدن: الحس والحركة الإرادية، فكما أنه متى خرجت قوىٰ الحسِّ والحركة عن الحال الفطري الطبيعي فسدت، فإذا خرج القلب عن الحال الفطرية التي يولد عليها كل مولود؛ وهي إما أن يكون مقراً لربِّهِ، مريداً له، فيكون هو منتهى قصده وإرادته، وتلك هي العبادة، إذ العبادة كمال الحب بكمال الذل، فمتى لم تكن حركة القلب، ووجهه، وإرادته لله تعالى كان فاسداً، إما بأن يكون معرضاً عن الله وعن ذكره، غافلاً عن ذلك مع تكذيب أو بدون تكذيب، أو بأن يكون له ذكر وشعور، ولكن قصده وإرادته غيره، يكون الذكر ضعيفاً لم يجتذب القلب إلى إرادته، ومحبته، وعبادته، وإلا فمتى قوي عملُ القلب وذكره أوجب قصده وعلمه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١ ـ ١٢.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأبو داود والنسائي.

قال تعالىٰ:

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[1].

فأمر نبيه بأن يعرض عمن كان معرضاً عن ذكر الله ولم يكنْ له مرادٌ إلا ما يكون في الدنيا.

وهذه حال من فسد قلبه، ولم يذكر ربَّه، ولم ينب إليه، فيريد وجهه ويخلص له الدين.

ثم قال:

﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[2].

فأخبر أنهم لم يحصل لهم علم فوق ما يكون في الدنيا، فهي أكبر همِّهم، ومبلغُ علمهم، وأما المؤمن فأكبر همه هو الله، وإليه انتهى علمه وذكره، وهذا الآن باب واسع عظيم قد تكلمنا عليه في موضعه.

وإذا كان التوحيدُ أصل صلاح الناس، والإشراكُ أصلَ فسادهم، والقسطُ مقرون بالتوحيد، إذ التوحيدُ أصل العدل، وإرادة العلو مقرونة بالفساد، إذ هو أصل الظلم فهذا مع هذا، وهذا مع هذا.

كالملزوزين[3] في قَرَنٍ، فالتوحيد ما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل، ولهذا كان الرجل الصالح هو القائم بالواجبات، وهو البر، وهو العدل، والذنوب التي فيها تفريط أو عدوان في حقوق الله تعالى وحقوق عباده هي فساد وظلم، ولهذا سمي قطاع الطرق مفسدين، وكانت عقوبتهم حقاً لله تعالى لاجتماع الوصفين.

والذي يريد العلوّ على غيره من أبناءِ جنسه هو ظالم باغ، إذ ليس كونك عالياً عليه بأولى من كونه عالياً عليك، وكلاكما من جنس واحدة. فالقسط والعدل أن يكونوا إخوة، كما أوصى الله المؤمنين بذلك. والتوحيد وإن كان أصل الصلاح فهو أعظم العدل.

ولهذا قال تعالىٰ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٠.
(٣) أي الملتصقين.

﴿شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(1).

ولهذا كان تخصيصه بالذكر في مثل قوله:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾(2).

لا يمنع أن يكون داخلاً في القسط، كما أن ذكر العمل الصالح بعد الإيمان لا يمنع أن يكون داخلاً في الإيمان.

كما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ . . .﴾(3).

هذا إذا قيل: إن اسم الإيمان يتناوله مرتين، أو قيل: بل عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هنا، وإن كان داخلاً فيه منفرداً، كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين، وأمثال ذلك مما تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران، لكن المقصود: أن كل خير فهو داخل في القسط والعدل، وكل شر فهو داخل في الظلم، ولهذا كان العدل أمراً واجباً في كل شيء، وعلى كل أحد، والظلم محرماً في كل شيء، ولكل أحد.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(2) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(3) سورة الأحزاب، الآية: ٧.

الزهد

الزهد المشروع:

هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله.

فأما ما ينفع في الدار الآخرة فالزهد فيه ليس من الدين، بل صاحبه داخل في قوله تعالىٰ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(١).

كما أن الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع، فإن اشتغل بها عن فعل واجب، أو فعل محرم، كان عاصياً، وإلا كان منقوصاً عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين.

اشتغال العبد بالدنيا وشهواتها:

يقول رسول الله ﷺ:

«إن اللَّهَ يحمي عبدَهُ المؤمنَ الدنيا، كما يحمي أحَدُكُم مريضَهُ الطعامَ والشرابَ»(٢)، وفي مناجاة موسى المأثورة عن «وهب» التي رواها الإمام «أحمد» في كتابه «الزهد» يقول تعالىٰ:

«إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها، كما يذود الراعي الشفيق إبله

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٧.

(٢) رواه أحمد والحاكم.

عن مراعي الهلكة، وإني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرّة، وما ذلك لهوانهم عليّ، ولكن ليستعملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفوراً، لم تكلمه الدنيا، ولم يطفئه الهوى»[1].

وإنما شفاء المريض بزوال مرضه، بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه.

قا ﷺ:

«تعِسَ عبدُ الدرهم، تعسَ عبدُ الدينار، تعس عبدُ القطيفَةِ، تعسَ عبدُ الخميصَةِ، تعس وانتكسَ، وإذا شيك فلا انتقش، إن أُعطي رضيَ، وإن مُنعَ سخط»[2].

فسماه ﷺ عبد المال، وعبد الدنيا، وعبد الخميصة، وعبد القطيفة، وذكر ما فيه دعاء وخير وهو قوله:

«تعس وانتكسَ، وإذا شيكَ فلا انتقش»[3].

والنقش: إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش: ما يخرج به الشوكةَ، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عَبَدَ المال، وقدَ وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضيَ، وإذا مُنع سَخِطَ، كما قال الله تعالىٰ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[4].

فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله.

---

(١) رواه أحمد في الزهد.
ومعنى: أذود: أبعد، ومبارك الغرّة: أماكن الغفلة.
تكلمه: تجره فتنقصه. يطفؤه: يذهب بهجته.

(٢) رواه البخاري وابن ماجة.
تعس: دعا عليه بالهلاك.
القطيفة: نوع من الثياب.
الخميصة: ثوب من خز أو صوف.
شِيك: دخل في جسمه شوكة.
انتقش: الانتقاش إخراج الشوكة من الجسم.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥٨.

وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي وإن لم يحصل سخط، فهذا عبدُ ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رقّ القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلب واستعبَدَهُ فهو عبدُهُ، ولهذا يقال:

العبـد حـرٌ مـا قنِـعَ   والحـرُّ عبـدٌ مـا طِمـعَ

وقال قائل:

أطعـت مطـامعي فـاستعبـدتْني   ولـو أنـي قنعـتُ لكنـتُ حـراً

ويقال:

[الطمع غلٌّ في العنق، قيدٌ في الرجل، فإن زال الغلُّ من العنق، زال القيد من الرجل].

يروى عن عمر بن الخطاب:

[الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكُمْ إذا يئس من شيءٍ استغنىٰ عنه]، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه.

فإن الأمر الذي لا ييأس منه، ولا يطلبه، ولا يطمع به، ولا يبقى قلبه فقيراً إليه، ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه تعلق قلبه به، فصار فقيراً إلى حصوله، وإلى من يظن أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك.

قال الخليل ﷺ[1]:

«فابتغوا عند الله الرزق، واعبدوه، واشكروا له، وإليه ترجعون»، فالعبد لا بدّ له من رزق، وهو محتاج إلىٰ ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله فقيراً إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه.

الانحراف في طريقة الزهد:

من الناس من ينحرف في طريقة الزهد:

فيزهد في موجب الشهوة والغضب، كما يفعل ذلك من يفعله من عبّاد المشركين وأهل الكتاب كالرهبان وأشباههم، وهؤلاء يريدون الجهاد نقصاً، لما فيه من قتلِ النفوس، وسبيِ الذرية، وأخذ الأموال، ويرون أن الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد «داَود» لأنه جرى على يديه سفك الدماء. ومنهم من لا يرى ذبح شيء من الحيوان

(١) الخليل هو إبراهيم عليه السلام.

كما عليه البراهمة، ومنهم من لا يحرم ذلك لكنه هو يتقرب إلى الله بأنه لا يذبح حيواناً، ولا يأكل لحمه، ولا ينكح النساء، ويقول مادحه: فلانٌ ما نكح ولا ذبح!!.

وقد أنكر النبي ﷺ في الصحيحين عن «أنس».

(أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواجَ النبي ﷺ عن عملِهِ في السرِّ، فقال بعضهم: لا أتزوجُ النساء، وقال بعضُهم: لا آكلُ اللحمَ، وقال بعضهم: لا أنام على فراشٍ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمدَ الله وأثنى عليه وقال:

«ما بال أقوامٍ قالوا كذا وكذا، لكني أصلّي وأنامُ، وأصومُ وأفطرُ، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فَمَنْ رغبَ عن سنتي فليسَ مني»[1].

وقد قال تعالىٰ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[2].

نزلت في «عثمان بن مظعون[3] وطائفة معه كانوا قد عزموا على التبتل ونوع من الترهب».

وفي الصحيحين عن «سعد» قال:

رد رسول الله ﷺ على «عثمان بن مظعون» التبتل ولو أُذن له لاختصينا[4].

الزهد النافع المشروع:

والزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد في ما لا ينفع في الآخرة، فأما ما ينفع في الاخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد من نوع من عبادة الله وطاعته، والزهد إنما يراد لأنه زهد في ما يضر، أو زهدٌ في ما لا ينفع، فأما الزهد في النافع: فجهل وضلال كما قال ﷺ:

«احرصْ على ما ينفعُك، واستعنْ بالله ولا تعَجْز»[5].

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله، وكل ما صدّه عن ذلك فإنه ضار

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٧.
(٣) صحابي جليل.
(٤) اختصينا: أزلنا الخصيتين، أي منعنا أنفسنا إنجاب الأولاد، وابتعدنا عن الزواج. والحديث رواه البخاري ومسلم.
(٥) جزء من حديث رواه مسلم وابن ماجة وأحمد.

لا نافع، ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له، وإن أدى الفرائض وفعل مباحاً لا يعينه على الطاعة، فقد فعل ما ينفعُه، وما لا ينفعه ولا يضره.

ومن لم يراعِ ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد، وما يكرهه من ذلك، وإلا فقد يضيعَ واجباتَ ويفعل محرمات، مثلَ مَنْ يَدَعُ ما يحتاج إليه من الأكل، أو أكل الدسم، حتى يفسد عقله، أو تضعف قوته عما يجب عليه من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده، أو يدعُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله لما في فعل ذلك من أذى بعض الناس والانتقام منهم، حتى يستولي الكفار والفجار على الصالحين الأبرار، فلا ينظر المصلحة الراجحة في ذلك.

وقد قال تعالىٰ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(١).

يقول سبحانه وتعالىٰ: وإن كان قتل النفوس فيه شرٌّ، فالفتنة الحاصلة بالكفر وظهور أهله أعظم من ذلك، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهم. وكذلك من يدع ذبح الحيوان أو يرى أن في ذبحه ظلماً له هو جاهل، فإن هذا الحيوان لا بد أن يموت، فإذا قُتل لمنفعة الآدميين وحاجتهم كان خيراً من أن يموت موتاً لا ينفع به أحد، والآدمي أكمل منه، ولا تتم مصلحته إلا باستعمال الحيوان في الأكل والركوب ونحو ذلك... لكن ما نهى ﷺ عليه تعذيبُه وأوجبَ اللّهُ إليه الإحسان.

«إنّ اللّهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ فإذا قتلتُم فأحسنوا القتلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليحدّ أحدُكُمْ شفرتَهُ وليرِحْ ذبيحتَهُ»(٢).

الزهد في الإرادات:

وهؤلاء الذين زهدوا في «الإرادات» حتى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات بإزائهم «طائفتان».

١ ـ طائفة رغبت في ما كره الله ورسوله الرغبة فيه من الكفر والفسوق والعصيان.

٢ ـ وطائفة رغبت في ما أمر الله ورسوله، لكن لأهواء أنفسهم لا لعبادة الله تعالىٰ،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد.

وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات، كما في الصحيحين أنه قيل لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتلُ حميّة، ويقاتل رياءً فأي ذلك في سبيل الله؟

فقال:

«من قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العليا، فهوُ في سبيلِ اللَّهِ»(١).

قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢).

قال «الشيخ عبد القادر الجيلاني»:

إن كنت في حال الحقيقة وهي حال الولاية: فخالفْ هواك، واتبع الأمرَ في الجملة. واتباع الأمر على قسمين:

أحدهما: أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس، وتترك الحظّ، وتؤدي الفرائض، وتشتغل بترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن.

الثاني: ما كان بأمر باطن، وهو أمر الحق تبارك وتعالى، يأمر عبده وينهاه، وإنما يتحقق هذا الأمر في المباح الذي ليس حكماً في الشرع. على معنى أنه ليس من قبيل النهي، ولا من قبيل الواجب، بل هو عمل ترك العبد يتصرف منه باختياره فسمي مباحاً.

قال رسول الله ﷺ في «الترمذي»:

«ليسَ الزهدُ في الدنيا بتحريمِ الحلالِ، ولا إضاعَةِ المالِ ولكنّ الزهدَ أنْ تكونَ بما في يدِ اللَّهِ أوثق بما في يدك، وأنْ تكونَ في ثوابِ المصيبةِ إذا أصبتَ أرغبَ منك فيها لو أنها بقيتْ»(٣).

فـإن الله تعالى يقول:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(٤).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

فهذا صفة القلب.

وأما الظاهر فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك.

كما قال «الإمام أحمد»:

[إنما هو طعام دون طعام، ولباسُ دونَ لباس، وصبرُ أيام قلائل].

وجماع ذلك خُلُق رسول الله ﷺ كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول:

«خيرُ الكلامِ كلامُ اللّهِ، وخيرُ الهديِ هديُ محمدٍ، وشرُّ الأمورِ محدثاتُها، وكلُّ بدعَةٍ ضَلالة»[١].

وقال رسول الله ﷺ:

«فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٢].

فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس ما يحبه الله ورسوله ولا هو من دين الأنبياء بل قد قال الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[٣].

والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجباً تارة، ومستحباً تارة أخرى، فكيف ترك الواجب أو المستحب من الدين؟!.

---

(١) رواه مسلم والنسائي.

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

الطاعة

الطاعة في القرآن الكريم:

قال العلماء في قوله تعالىٰ:

﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(١).

أقوالاً تجمع العلماء والأمراء، ولهذا نص الإمام «أحمد» وغيره على دخول الصنفين في هذه الآية، إذا كل منها تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله. وكان نواب رسول الله في حياته «كعلي» و «معاذ» و «أبي موسى» و «عتاب بن أسيد» و «عثمان بن أبي العاص» وأمثاله يجمعون الصنفين، وكذلك خلفاؤه من بعده «كأبي بكر» و «عمر» و «عثمان» و «علي» ونوابهم.

ولهذا كانت السنة أن يصلي بالناس صاحبُ الكتاب، والذي يقوم بالجهاد صاحبُ الحديد، إلى أن تفرق الأمر بعد ذلك، فإذا تفرق صار كل من قام بأمر الحرب من جهاد الكفار وعقوبات الفجار يجب أن يطاع في ما يأمر به من طاعة الله في ذلك.

وكذلك من قام لجمع الأموال وقَسْمها يجب أن يُطاع فيما يأمر به من طاعة الله في ذلك، وكذلك من قام بالكتاب بتبليغ أخباره، وأوامره، وبيانها يجب أن يُصدَّق ويطاع فيما أخبر به من الصدق في ذلك، وفيما يأمر به من طاعة الله في ذلك.

قال الله عز وجل عن النصارى:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١.

وقال «عدي بن حاتم» للنبي ﷺ:

«ما عبدوهم؟؟ قال: أحلّوا الحرام فأطاعوهم، وحرَّموا عليهم الحلالَ فأطاعوهم، فكانتْ تلكَ عبادتُهم إياهم»[1].

قال تعالىٰ:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[2].

طاعة رسول الله وأولي الأمر:

قال تعالىٰ:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[3].

فالرسول وجبت طاعته لأنه:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[4].

فالحلال ما حلّله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه.

ومَنْ سِوىٰ الرسول من العلماء، والمشايخ، والأمراء، والملوك، إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة الله، وهم ما أمر الله ورسوله بطاعتهم، فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول.

قال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[5].

فلم يقل: وأطيعوا الرسول، وأطيعوا أولي الأمر منكم، بل جعل طاعة أولي الأمر

---

(١) رواه الترمذي والطبراني والبيهقي في السنن وابن سعد وابن المنذر وأبو الشيخ.
(٢) سورة الشورىٰ، الآية: ٢١.
(٣) سورة الفرقان، الآيات: (٢٧ ـ ٢٩).
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٥) سورة النساء، الآية: ٥٩.

داخلة في طاعة الرسول ﷺ، وأعاد الفعل في طاعة أولي الأمر فإنه:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[1].

فليس لأحد إذا أمره الرسول بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا؟؟ بخلاف أولي الأمر، فإنهم قد يأمرون بمعصية الله.

فليس كل من أطاعهم مطيعاً لله، ب لا بد في ما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصيةً لله، وينظرُ هـل أمر الله به أم لا؟ سواء كان أولي الأمر من العلماء أو الأمراء.

ويدخل في هذا التقليد العلماءُ وطاعة أمراء السرايا وغير ذلك وبهذا يكون الدين كله لله.

قال تعالىٰ:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[2].

وقال النبي ﷺ لما قيل له: يا رسولَ الله الرجلُ يقاتلُ شجاعةً، ويقاتلُ حميّة، ويقاتلُ رياءً فأي ذلك في سبيل الله فقال:

«من قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العُليا، فهوَ في سبيلِ اللَّهِ»[3].

ثم إن كثيراً من الناس يحبُّ خليفة، أو عالماً، أو شيخاً، أو أميراً، فيجعله نداً لله، وإن كان قد يقول إنه يحبه لله.

فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهي عنه ـ وإن خالف أمر الله ورسوله ـ فقد جعله نداً، وربما صنع كما صنعت النصارى بالمسيح.

طاعة الله دون تحقيق التوكل عليه:

هناك طائفة من الناس قد يقصدون طاعة الله ورسوله، ولكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به، فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم، وعلى طاعتهم، ولكنهم مخذولون فيما يقصدونه، إذا لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.
(٣) سبق تخريجه.

يقول الله عز وجل:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

ويقول:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾[2].

وعبادته طاعة أمره، وأمرُه لنا ما بلّغه الرسول عنه، فالكمالُ في كمال طاعة الله ورسوله باطناً وظاهراً. ومن كان لا يعرف ما أمر الله به فترك هواه واستسلم للقدر، أو اجتهد في الطاعة، فأخطأ فعل المأمور به إلى ما اعتقده مأموراً به، أو تعارضت عنه الأدلة، فتوقف عما هو طاعة في نفس الأمر، فهؤلاء مطيعون لله، مثابون على ما أحسنوه من القصد لله واستفرغوه من وسعهم في طاعة الله، وما عجزوا من علمه فأخطأوه إلى غيره فمغفور لهم.

الثواب الجزيل لمن أطاع الله:

حدثني أبي عن «محي الدين بنِ النحاس» وأظني سمعتها منه أنه رأى الشيخ «عبد القادر» في منامه وهو يقول إخباراً عن الحق تعالىٰ:

[من جاءنا تلقَّيناه من البعيد، ومن تصرف بحولِنا ألَنّا له الحديدَ، ومن اتبع مرادَنا زدنا ما يُريد، ومن ترك مِنْ أجلنا أعطيناه فوقَ المزيد].

قلت: هذا من جهة الربِّ تبارك وتعالىٰ.

فالأولتان: العبادة والاستعانة، والآخرتان: الطاعة والمعصية. قوله:

[من اتبع مرادنا].

يعني المراد الشرعي:

كقوله تعالىٰ:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[3].

---

(١) سورة ص، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

وقوله تعالىٰ:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[1].

وقوله تعالىٰ:

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾[2].

هذا هو طاعة أمره وقد جاء في الحديث:

«وأنت يا عُمر، لو أطعتَ اللّهَ لأطاعكَ».

وفي الحديث الصحيح:

«لئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذَ بي لأُعيذنّهُ»[3].

وقد قال تعالىٰ:

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾[4].

وقوله:

[ومن تَرَكَ من أجلنا أعطيناه فوقَ فوقَ المزيد].

يعني ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله، ورجاء، ومحبة، وخشية، أعطيناه فوق المزيد.

الأجر على قدر الطاعة، فقد تكون الطاعة لله والرسول في عمل ميسر، كما يسر الله على أهل الإسلام «الكلمتين» وهما أفضل الأعمال. ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«كلمتان خفيفتانِ علىٰ اللسانِ، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰـن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٣) رواه أحمد وأبو يعلىٰ وأبو نعيم في الطب والطبراني والبيهقي في الزهد وابن أبي الدنيا.
(٤) سورة الشورىٰ، الآية: ٢٦.
(٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وابن ماجة وابن حبان.

أقسام الناس:

والناس أقسام:

أصحاب دنيا محضة: وهم المُعرضون عن الآخرة.

وأصحاب «دين فاسد»: وهم الكفار والمبتدعة الـذين يتدينون بما لم يشرعه الله من نوع من أنواع العبادات.

القسم الثالث: وهم أهل الدين الصحيح أهل الإسلام، المتمسكون بالكتاب والسنة والجماعة، (والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق).

[إنما الدنيا لأربعة:

رجل آتاهُ الله علماً ومالاً، فهو يعملُ فيه بطاعة الله، فقال رجل: لو أنّ لي مثل فلانٍ لعملتُ بعمله.

فقال النبي ﷺ فهما في الأجر سواءٌ»[1].

وقد رواه الترمذي مطولاً وقال: حديث حسن صحيح.

فهذا التساوي مع الأجر والوِزْر هو في حكاية حال من قال ذلك وكان صادقاً فيه، وعلم اللَّهُ منه إرادة جازمةً لا يتخلف عنها الفعل إلا لفوات القدرة، فلهذا استويا في الثواب والعقاب.

التحذير من عصيان الله سبحانه:

قال «أبو عثمان النيسابوري»:

[من أمّر السُّنة على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطقَ بالحكمة، ومن أمرَّ الهوى على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالبدعة].

لأن الله تعالى يقول:

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[2].

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٤.

وفي آخر السورة يقول الله تعالىٰ؛

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

ويقول الله تعالىٰ:

﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[2].

ويقول تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾[3].

ويقول تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

ويقول تعالىٰ:

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[5].

ويقول أيضاً:

﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[6].

ويقول أيضاً:

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[7].

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.
(٤) سورة الصف، الآية: ٥، ٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٨.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

ويقول أيضاً:

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[1].

ويقول أيضاً:

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[2].

ويقول أيضاً:

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾[3].

ويقول الله تعالىٰ:

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[4].

ويقول في حق هذا:

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥، ٢٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٢.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ
أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1].

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٠، ٢٣.

الرضا(*)

تعريف أبي سليمان الداراني للرضا:

فيما ذكره الأستاذ «أبو القاسم القشيري»(1) في باب الرضا، عن الشيخ «أبي سليمان الداراني» رحمه الله(2) أنه قال: [الرضا أن لا تسأل الله الجنةَ، وتستعيذَ به من النّار].

تعليق الإمام ابن تيمية على التعريف:

فإن الناس تنازعوا في هذا الكلام، فمنهم من أنكره ومنهم من قبله. والكلام على هذا الكلام من وجهين:

أحدهما: من جهة ثبوته عن الشيخ «أبي سليمان». **والثاني:** من جهة صحته في نفسه وفساده.

أما المقام الأول: فينبغي أن يُعلم أن الأستاذ «أبا القاسم القشيري» لم يذكره عن الشيخ «أبي سليمان» بإسناد، وإنما ذكره مرسلاً عنه في «رسالته»، عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين والمشايخ وغيرهم، تارةً يذكره بإسناد وتارةً يذكره مرسلاً. وكثيراً ما يقول في «الرسالة»: وقيل عنه: كذا. ثم الذي يذكره الأستاذ «أبو القاسم» بالإسناد تارة يكون إسناده صحيحاً، وتارة يكون ضعيفاً بل موضوعاً. وما يذكره مُرسلاً ومحذوفاً لقائل

(*) أخذ هذا الموضوع من كتاب الاستقامة لابن تيمية: ٢/ ٦٥.

(١) أبو القاسم القشيري: هو عبد الكريم بن هوازن، أصله عربي، ولد ونشأ بخراسان، توفي عام (٤٦٥ هـ) وهو صاحب «الرسالة القشيرية» التي تعد مرجعاً من المراجع الكبرىٰ في التصوف وعلوم الصوفية وأخبارهم.

(٢) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العبسي، ينسب إلى داريا من قرىٰ دمشق، وهو من جلّة علماء التصوف، وله كلام بديع في الزهد والورع والرجاء... إلخ. توفي سنة (٢١٥ هـ).

أوْلى، وهذا كما يوجد ذلك في مصنفات الفقهاء، فإن فيها من الأحاديث والآثار ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف، ومنها ما هو موضوع. فالموجود في كتب الرقائق والتصوف من الآثار المنقولة فيها الصحيح، وفيها الضعيف. وفيها الموضوع.

وهذا أمر متفق عليه بين جميع المسلمين، لا يتنازعون في أن هذه الكتب فيه هذا وفيها هذا. بل نفس الكتب المصنَّفة في الحديث والآثار فيها هذا وهذا. وكذلك الكتب المصنَّفة في التفسير فيها هذا وهذا، مع أن أهل الحديث أقرب إلى معرفة المنقولات، وفي كتبهم هذا وهذا، فكيف غيرهم؟

والمصنِّفون قد يكونون أئمةً في الفقه أو التصوف أو الحديث، ويروون هذا تارة لأنهم لم يعلموا أنه كذب، وهو الغالب على أهل الدين، فإنهم لا يحتجُّون بما يعلمون أنه كذب. وتارة يذكرونه وإن علموا أنه كذب، إذ قصدهم رواية ما رُوي في ذلك الباب.

ورواية الأحاديث المكذوبة، مع بيان أنها كذب، جائز، وأما روايتها مع الإمساك عن ذلك رواية عمل فإنه حرام عند العلماء، لما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«من حدّثَ عنّي بحديثٍ ـ وهو يَرىٰ أنّه كذبٌ ـ فهو أحدُ الكاذبين»(١).

وقد فعل ذلك كثير من العلماء متأوِّلين أنهم لم يكذبوا، وإنما نقلوا ما رواه غيرهم، وهذا يسهل إذ رووه ليعرف أنه رُوي، لا لأجل العمل به والاعتماد عليه.

والمقصود هنا أن ما يوجد في «الرسالة» وأمثالها من كتب الفقه والتصوف والحديث من المنقولات عن النبي ﷺ وغيره من السلف فيه الصحيح، وفيه الضعيف، وفيه الموضوع. فالصحيح الذي قامت الدلالة على صدقه، والموضوع الذي قامت الدلالة على كذبه، والضعيف الذي رواه من لم يُعلم صدقة: إما لسوء حفظه وإما لاتهامه، ولكن يمكن أن يكون صادقاً فيه، فإن الفاسق قد يصدق، والغالط قد يحفظ.

وغالب أبواب «الرسالة» فيه الأقسام الثلاثة، ومن ذلك باب «الرضا» فإنه ذكر فيه عن النبي ﷺ حديثاً صحيحاً في أثناء الباب، وهو حديث «العباس بن عبد المطلب» عن النبي ﷺ أنه قال:

«ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَنْ رضيَ باللّه ربّاً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمّدٍ نبياً»(٢).

وهذا الحديث رواه «مسلم» في صحيحه، وإن كان الأستاذ لم يذكر أن «مسلماً»

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، وابن ماجة والترمذي وأحمد في المسند.
(٢) رواه مسلم والترمذي.

رواه، لكن رواه بإسناد صحيح، وذكر في أول هذا الباب حديثاً ضعيفاً، بل موضوعاً، وهو حديث «جابر الطويل»، الذي رواه من حديث «الفضل بن عيسى الرقاشي»، عن «محمد بن المنكدر»، عن «جابر»، فهو وإن كان أول حديث ذكره في الباب، فإن حديث «الفضل بن عيسى» من أوهى الأحاديث وأسقطها، ولا نزاع بين الأئمة أنه لا يُعتمد عليها ولا يُحتج بها، فإن الضعف ظاهر عليها، وإن كان هو لا يتعمد الكذب، فإن كثيراً من الزهّاد والفقهاء لا يُحتج بحديثهم لسوء الحفظ لا لاعتماد الكذب، وهذا «الرقاشي» اتفقوا على ضعفه كما يعرف ذلك أئمة هذا الشأن، حتى قال «أيوب السختياتي»: [لو ولد فضلٌ أخرسُ لكان خيراً له]. وقال «سفيان بن عيينة»: [لا شيء]. وقال الإمام «أحمد» و «النَّسائي»: [هو ضعيف]، وقال «يحيى بن معين»: [رجل سوء]، وقال «أبو حاتم» و «أبو زرعة»: [منكر الحديث].

وكذلك ما ذكره من الآثار، فإنه قد ذكر آثاراً حسنة بأسانيد حسنة، مثل ما رواه عن الشيخ «أبي سليمان الداراني» أنه قال: [إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راضٍ] فإنّ هذا رواه عن شيخه «أبي عبد الرحمن السُّلَمي»[1] بإسناده، والشيخ «أبو عبد الرحمن» كانت له عناية بجمع كلام هؤلاء المشايخ وحكاياتهم، وصنَّف في الأسماء كتاب الطبقات: طبقات الصوفية» وكتاب «زهَّاد السلف» وغير ذلك، وصنَّف في الأبواب كتاب «مقامات الأولياء» وغير ذلك ومصنفاته تشتمل على الأقسام الثلاثة.

تعريف النصرأباذي للرضا:

وذكر عن الشيخ «أبي عبد الرحمٰن» أنه قال: [سمع النصر أباذي[2] يقول: من أراد أن يبلغ محلّ الرضا فيلزم ما جعل الله رضاه فيه].

فإن هذا الكلام في غاية الحسن، فإنه من لزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه، لا سيما إذا قام بواجبها ومستحبها، يرضي الله عنه، كما أنه من لزم محبوبات الله أحبه الله كما في الحديث الصحيح الذي رواه «البخاري»:

«من عادىٰ لي وليّاً فقدْ بارزني بالمحاربة، وما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد الأزدي، شيخ الصوفية، وصاحب تاريخهم، وطبقاتهم، وتفسيرهم، توفي عام (٤١٢ هـ).
(٢) هو إبراهيم بن محمد، أبو القاسم النصرأباذي، شيخ خراسان في وقته، كان عالماً بالحديث، كثير الرواية. توفي عام (٣٦٧ هـ).

افترضتُ عليه، ولا يزالُ عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببتُه... الحديث»[1].

نوع الرضا:

ذلك أن الرضا نوعان: أحدُهما الرضا بفعل ما أُمر به وترك ما نُهي عنه، ويتناول ما أباحه الله من غير تعدٍّ إلى المحظور.

كما قال تعالىٰ:

﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[3].

فهذا الرضا واجب.

وكذلك ذم من تركه بقوله:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[4].

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب: كالفقر والمرض والذل، فهذا الرضا مستحب في أحد قولَيْ العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب. والصحيح أن الواجب هو الصبر، كما قال «الحسن البصري»[5] رحمه الله: [الرضا عزيز، ولكن الصبر معوّل المؤمن].

وقد روي في حديث «ابن عباس» أن النبي ﷺ قال له:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٩.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥٨.

(٥) هو الحسن بن يسار البصري، من التابعين، ومن أكابرهم فضلاً وعلماً وزهداً، كان كلامه يشبه كلام الأنبياء.

«إن استطعتَ أن تعملَ للّهِ بالرضا مع اليقينِ فافعل، فإنْ لم تستطعْ فإنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»[1].

الرضا بالكفر والفسوق والعصيان:

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان، فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه، كما قال تعالىٰ:

﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[3].

وقال تعالىٰ:

﴿ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[4].

وقال تعالىٰ:

﴿ فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[5].

وقال تعالىٰ:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾[6].

وقال تعالىٰ:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾[7].

وقال تعالىٰ:

﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾[8].

---

(١) نسبه العراقي في تخريج الإحياء إلى الترمذي.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٩٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ٩٣.
(٦) سورة محمد، الآية: ٢٧.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٦٨.
(٨) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

وقال تعالىٰ:

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾[1].

فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه بل يسخطه ذلك، وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم، فكيف يسوغ للمؤمن أن يرضى ذلك، وأن لا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه؟

وإنما ضل هنا فريقان من الناس: قوم من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة في مناظرة القدرية، ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافاً للقدرية، وقالوا: هو أيضاً لها مريد لها، ثم أخذوا يحرّفون الكلم عن مواضعه، فقالوا: لا يحب الفساد، بمعنى لا يريد الفساد، أي لا يريده للمؤمنين، ولا يرضى لعباده الكفر، بمعنى لا يريده، أي لا يريده للمؤمنين.

وهذا غلط عظيم، فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال: لا يحب الإيمان ولا يرضى لعباده الإيمان، بمعنى لا يريده للكافرين ولا يرضاه للكافرين.

وقد اتفق أهل الإسلام على أن ما أمر الله به فإنه يكون مستحباً يحبه، ثم قد يكون مع ذلك واجباً، وقد يكون مستحباً ليس بواجب، سواء فُعل أو لم يفعل، والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والفريق الثاني من غالطي المتصوفة شربوا من هذه العين، فشهدوا أن الله ربُّ الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدَّر كل شيء وشاءه، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتىٰ يرضَوْا بكل ما يقدّره الله ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قال بعضهم: المحبةُ نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب. قالوا: والكون كله مراد المحبوب. وضل هؤلاء ضلالاً عظيماً، حيث لم يفرّقوا بين الإرادة الدينية والكونية، والإذن الديني والكوني، والأمر الديني والكوني، والبعث الكوني، والإرسال الكوني والديني، كما بسطناه في غير هذا الموضع.

وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يفرّقوا بين المحظور والمأمور، وأولياء الله، والأنبياء والمتقين، ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ويجعلون المتقين كالفجّار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويعطّلون الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والشرائع.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

وربّما سمّوا هذا حقيقة، ولعمري إنه حقيقة كونية، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عُبَّاد الأصنام.

كما قال تعالىٰ:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾(١).

وقال تعالىٰ:

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٢).

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مُقرّين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان غايته أن يكون كعبّاد الأصنام.

والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله، وبتصديقهم فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، واتّباع ما يرضاه الله ويحبه، دون ما يقضيه ويقدّره من الكفر والفسوق والعصيان، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب، لا بما فعله من المعايب، فهو من الذنوب يستغفر، وعلى المصائب يصبر.

كما قال تعالىٰ:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾(٣).

فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب، كما قال تعالىٰ:

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾(٤).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾(٥).

وقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٨٤، ٨٥.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

والقصد هنا أن ما ذكره «القشيري» عن «النصرأباذي» من أحسن الكلام، حيث قال: [من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه].

أقوال العلماء في الرضا:

وكذلك قول الشيخ «أبي سليمان»: [إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راضٍ] وذلك أن العبد إنما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها، فإذا لَم يحصل سخط، فإذا سلا عن شهوات نفسه رَضِي بما قسم الله له من الرزق.

وكذلك ما ذكره عن «الفُضيل بن عياض» أنه قال «لبشر الحافي»: [الرضا أفضلُ من الزهدِ في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته] كلام حسن، لكن أشكُّ في سماع «بشر الحافي» من «الفُضيل».

وكذلك ما ذكره معلّقاً، قال: وقيل: قال «الشبلي» بين يَدَي «الجنيد»: [لا حول ولا قوة إلا بالله] فقال «الجنيد»: [قولك ذا ضيقُ صدرٍ، وضيقُ الصدرِ لتركِ الرضا بالقضاء]. فإن هذا من أحسن الكلام.

وكان «الجنيد» رضي الله عنه سيد الطائفة، ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً، وذلك أن هذه الكلمة هي كلمة استعانة، لا كلمة استرجاع. وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً.

«فالجنيد» أنكر على «الشبلي» حاله في سبب قوله لها، إذ كانت حالاً ينافي الرضا، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه.

وفيما ذكره آثار ضعيفة، مثل ما ذكره معلّقاً. قال، وقيل: قال «موسى» عليه السلام: [إلٰهي، دلّني على عملٍ إذا عملتُه رضيتَ عني. فقال: إنك لا تطيقُ ذلك، فخرّ موسى ساجداً، متضرعاً، فأوحى الله إليه: يا ابن عمران: رضائي في رضائك عنّي].

فهذه الحكاية الإسرائيلية فيها نظر؛ فإنه قد يقال: لا يصلح أن يُحكى مثلها عن موسى عليه السلام. ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد، ولا تقوم بها حجة في شيء من الدين، إلا إذا كانت منقولة لنا نقلاً صحيحاً، مثل ما ثبت عن نبينا ﷺ، أنه حدثنا به عن بني إسرائيل، ولكنه منه ما يُعلم كذبه مثل هذه؛ فإن موسى عليه السلام من أعظم أولي العزم وأكابر المرسلين، فكيف يُقال: إنه لا يطيق أن يعمل ما يرضى الله به عنه؟! والله تعالى رضي عن السابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان، أفلا يرضى عن «موسى بن عمران» كليم الرحمٰن؟!

وقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾(1).

ومعلوم أن موسى عليه السلام من أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثم إن الله خصَّ موسى بمزية فوق الرضا حيث قال:

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾(2).

ثم إن قوله له في الخطاب: «يا ابن عمران» يخالف ما ذكره الله من خطابه له في القرآن حيث قال: يا موسى، وذلك الخطاب فيه نوع غضٍّ منه كما يظهر.

ومثل ما ذكره عن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أنه كتب «لأبي موسى الأشعري»: [أما بعدُ، فإن الخيرَ كلَّه في الرضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر].

فهذا الكلام كلام حسن، وإن لم يعلم إسناده.

وإذا تبين أن فيما ذكره مسنداً ومرسلاً ومعلّقاً ما هو صحيح، فهذه الكلمة لم يذكرها عن «أبي سليمان» إلا مرسلة. وبمثل ذلك لا تثبت عن «أبي سليمان» باتفاق الناس، فإنه وإن قال بعض الناس: إن المرسل حجة، فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف. فأما إذا عرف ذلك فلا تبقى حجة باتفاق العلماء، كمن علم أنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه.

عود على تعريف الداراني للرضا والتعليق عليه:

والكتب المسندة في أخبار هؤلاء المشايخ وكلامهم، مثل كتاب «حلية الأولياء» «لأبي نُعيم»، و «طبقات الصوفية» للشيخ «أبي عبد الرحمنٰ»، و «صفوة الصفوة» «لابن الجوزي»، وأمثال ذلك، لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ «أبي سليمان»، وقد ذكروا فيها عن الشيخ «أبي سليمان» الأثر الذي رواه عنه مسنداً حيث قال «لأحمد بن أبي الحواري»: [يا أحمدُ لقد أوتيتُ من الرضا نصيباً لو ألقاني في النار لكنتُ بذلك راضياً].

فهذا الكلام مأثور عن «أبي سليمان» بالإسناد، ولهذا أسنده عنه «القشيري» من

---

(1) سورة البينة، الآيتان: ٧ ـ ٨.

(2) سورة طه، الآية: ٣٩.

طريق شيخه «أبي عبد الرحمٰن»، بخلاف تلك الكلمة فإنها لم تُسند عنه، فلا أصل لها عن الشيخ «أبي سليمان».

ثم إن «القشيري» قرن هذه الكلمة الثابتة، عن «أبي سليمان» بكلمة أحسن منها، فإنه قبل أن يرويها قال: [وسئل أبو عثمان ـ يعني «أبا عثمان الحيري النيسابوري» ـ عن قول النبي ﷺ: أسألُكَ الرضا بعدَ القضاء][1]، فقال: [لأنَّ الرضا بعد القضاء هو الرضا] فهذا الذي قاله الشيخ «أبو عثمان» كلام حسن سديد.

ثم أسند بعد هذا عن الشيخ «أبي سليمان» ليس هو رضى، وإنما هو عزم على الرضا، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء، وإذا كان هذا عزماً على الرضا فالعزم قد يدوم وقد ينفسخ، وما أكثر انفساخ عزائم الناس خصوصاً الصوفية. ولهذا قيل لبعضهم: بمَ عرفتَ الله؟ قال: بفسخ العزائمِ، ونقضِ الهمم.

وقال قال تعالىٰ لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ:

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[3].

وفي «الترمذي» أنّ بعض الصحابة قالوا للنبيّ ﷺ: لو علمنا أيَّ العمل أحبُّ إلىٰ الله لعملناه. فأنزل الله هذه الآية.

وقد قال تعالىٰ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ ﴾[4].

فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما ابتلوا به كرهوه وفروا منه، وأين ألم الجهاد من ألم النار، وعذاب الله الذي لا طاقة لأحدٍ به. . .؟

---

(١) الحديث رواه النسائي وأحمد.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٣.
(٣) سورة الصف، الآيات: ٢ ـ ٤.
(٤) سورة النساء، الآية: ٧٧.

كلام سمنون عن الرضا والتعليق عليه:

ومثل هذا يذكر عن «سمنون المحب»[1] أنه كان يقول:

وليس لي في سواك حظٌّ فكيف ما شئت فاختبرني

فأخذه الأسْر من ساعته أي: حُصِر بوله، فكان يدور على المكاتب ويفرِّق الجوز على الصبيان، ويقول: [ادعوا لعمكم الكذَّاب].

وحكىٰ «أبو نعيم الأصبهاني» عن «أبي بكر الواسطي» أنه قال: [قال سمنون: يا رب قد رضيتُ بكلِّ ما تقضيه عليّ] فاحتبس بوله أربعة عشر يوماً، فكان يتلّوى كما تتلوى الحية على الرمل، يتلوىٰ يمينا وشمالاً، فلما أطلق بوله قال: [يا ربِّ تبتُ إليك].

قال «أبو نعيم»: فهذا الرضا الذي ادعى «سمنون» ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى. هذا مع أن «سمنون» كان يُضرب به المثل في المحبة، وله مقام مشهور، حتى روي عن «إبراهيم بن فاتك» أنه قال: [رأيت سمنوناً يتكلم على الناس في المسجد الحرام، فجاء طائر صغير فقرب منه، ثم قرب، فلم يزل يدنو منه حتى جلس على يده، ثم لم يزل يضرب بمنقاره الأرض حتى سقط منه دم ومات الطائر].

قال: [ورأيته تكلم يوماً في المحبة فاصطفقت قناديل المسجد، وكسر بعضها بعضاً].

وقد ذكر «القشيري» في باب «الرضا» عن «رويم المقري» رفيق «سمنون» حكاية تناسب هذا حيث قال: قال «رويم»: [الرضا: أن لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل الله ن يحولها عن يساره]. فهذا يشبه قول «سمنون»: [فكيف ما شئت فامتحنّي]، وإذا لم يطق الصبر على عسر البول، أفيطيق أن تكون جهنم عن يمينه؟؟

«والفضيل بن عياض» كان أعلى طبقة من هؤلاء، وابتُلي بعُسر البول، فغلبه الألم حتى قال: [بحبي لك إلاّ فرَّجت عني] فانفرج عنه.

و «رويم»، وإن كان من رفقاء «الجنيد»، فليس هو عندهم من هذه الطبقة، بل الصوفية يقولون: [إنه رجع إلى الدنيا وترك التصوف]، حتى رُويَ عن «جعفر الخلدي»

---

(١) هو سمنون بن حمزة، أبو الحسن، وقيل أبو القاسم الخواص، وأصل تسميته بالمحب أنه كان يتكلم في المحبة، وأقواله أغلبها يدور على الصد والهوىٰ والجفا والصبر والوجد والعتاب والعذاب والصبابة... إلخ توفي سنة (٢٩٨ هـ) تقريباً.

صاحب «الجنيد» أنه قال: [من أراد أن يستكتم سرّاً فليفعل كما فعل «رويم»؛ كتم حب الدنيا أربعين سنة. فقيل: وكيف يُتصور ذلك؟ قال: وَلِيَ «إسماعيل بن إسحق القاضي» قضاء بغداد، وكانت بينهما مودة أكيدة، فجذبه إليه، وجعله وكيلاً على بابه، فترك لبس التصوف، ولَبِسَ الخزَّ والقصب والديبقي، وأَكَلَ الطيّبات، وبنى الدُّور، وإذا هو كان يكتم حب الدنيا ما لم يجدها، فلما وجدها أظهر ما كان يكتم من حبها]. هذا مع أنه رحمه الله، كان له من العبادات ما هو معروف، وكان فقيهاً على مذهب «داود».

وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها، لا تُجعل طريقة ولا تتخذ سبيلاً، ولكن قد يُستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ونحو ذلك، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق، وما يَقْدِر عليه من التقوى والصبر، وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر.

والرسل ـ صلوات الله عليهم ـ أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً خطئاً محروماً، وإن لم يكن عاصياً أو فاسقاً أو كافراً.

ويشبه هذا الأعرابي الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو مريض كالفرخ، فقال: هل كنت دعوت الله بشيء؟ فقال، كنت أقول: اللهم ما كنت معذِّبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا، فقال: (**سبحانَ اللَّهِ لا تستطيعُهُ ـ أو لا تطيقُهُ ـ هلاَّ قلتَ: ربّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذابَ النار**»[1].

فهذا أيضاً حمله خوفُه من عذاب الآخرة، ومحبته لسلامة عاقبته، على أن يطلب تعجيل ذلك في الدنيا، وكان مخطئاً في ذلك غالطاً، والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته، وصلاح الرجل وفضله ودينه، وزهده وورعه وكراماته ـ كثير جداً، فليس من شرط وليِّ الله أن يكون معصوماً من الخطأ والغلط، بل ولا من الذنوب.

وأفضل أولياء الله بعد الرسل «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال له لما عبّر رؤيا: (**أصبتَ بعضاً، وأخطأتَ بعضاً**)[2].

تعليق آخر على تعريف الداراني للرضا:

ويشبه ـ والله أعلم ـ أن «أبا سليمان» لما قال هذه الكلمة: [لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضياً] أن يكون بعض الناس حكاه بما فهمه من المعنى أنه قال: [الرضا أن

(١) رواه مسلم وأحمد.
(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة وأحمد في المسند.

لا تسألَ الله الجنةَ ولا تستعيذه من النار].

وتلك الكلمة التي قالها «أبو سليمان»، مع أنها لا تدل على رضاه بذلك، ولكن تدل على عزمه بالرضا بذلك. ونحن نعلم أن ذلك العزم لا يستمر بل ينفسخ، وأن مثل هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها، وأنها مستدركة كما استدركه دعوى «سمنون» و«رويم» وغير ذلك. فإن بين هذه الكلمة وبين تلك فرقاً عظيماً، فإن تلك الكلمة مضمونها أن من سأل الله الجنة واستعاذه من النار لا يكون راضياً، وفرق بين من يقول: [أنا إذا فُعلَ بي كذا كنتُ راضياً]، وبين من يقول: [لا يكونُ راضياً إلا من لا يطلب خيراً، ومن لا يهربُ من شرٍ].

وبهذا وغيره يُعلم أن الشيخ «أبا سليمان» كان أجلَّ من أن يقول مثل هذا الكلام، فإن الشيخ «أبا سيمان» من أجلاء المشايخ وساداتهم، ومن أتبعهم للشريعة، حتى إنه كان يقول: [إنه ليمر بقلبي النكتةَ من نكتِ القوم فلا أقبلُها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة] فمن لا يقبل نكت قلبه إلا بشاهدين يقول مثل هذا الكلام؟!

وقال الشيخ «أبو سليمان» أيضاً: [ليسَ لمن أُلهم شيئاً من الخير أن يفعله حتى يسمعَ فيه بأثرٍ، فإذا سمع فيه بأثر كان نوراً على نور]. بل صاحبه «أحمد بن أبي الحواري» كان من أتبعِ المشايخ للسنة، فكيف «أبو سليمان»؟!

وتمام تزكية «أبي سليمان» من هذا الكلام يظهر بالكلام في المقام الثاني. وهو قول القائل ـ كائناً من كان ـ: [الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار]. ونقدم قبل ذلك مقدمة يتبين بها أصل ما وقع في مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب. وذلك أن قوماً كثيراً من الناس: من المتفقهة والمتصوفة والمتكلمة وغيرهم ـ ظنوا أن الجنة ليست إلا التنعم بالمخلوق، من أكل وشرب، ولباس ونكاح، وسماع أصوات طيبة، وشم رواح طيبة، ولم يدخلوا في مسمَّى الجنة نعيماً غير ذلك، ثم صاروا حزبين: حزباً أنكروا أن يكون للعباد نعيم غير تنعمهم بهذه الأمور المخلوقة وأشباهها، ثم من هؤلاء من أنكر أن يكون المؤمنون يرون ربهم، كما ذهب إلى ذلك الجهمية من المعتزلة وغيرهم.

أقوال العلماء في رؤية الله سبحانه:

ومنهم من أقرَّ بالرؤية: إما الرؤية التي أخبر بها النبي ﷺ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، وإما برؤية فَسَّرَهَا بزيادة كشف أو علم، أو جَعَلَهَا بحاسة سادسة، ونحو ذلك من الأقوال التي ذهب إليها «ضِرار بن عمرو» وطوائف من أهل الكلام المنتسبين إلى

نصر أهل السنة في مسألة الرؤية، وإن كان ما يثبتونه من جنس ما نفته المعتزلة والضِّرارية. والنـزاع بينهم لفظي، ونزاعهم مع أهل السنة معنوي. ولهذا كان «بشر المريسي» وأمثاله يفسرون الرؤية بنحو من تفسير هؤلاء.

والمقصود هنا أن مثبتة الرؤية منهم من أنكر أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤيته ربه. قالوا: [لأنه لا مناسبة بين المحدث والقديم]. كما ذكر ذلك الأستاذ «أبو المعالي الجويني] في «الرسالة النظامية»، وكما ذكره «أبو الوفاء بن عقيل» في بعض كتبه.

ونقلوا عن «ابن عقيل» أنه سمع قائلاً يقول: [أسألُك لذةَ النظر إلى وجهك]. فقال: [يا هذا هَبْ أن له وجهاً، أله وجه يُتلذذ بالنظر إليه]؟

وذكر «أبو المعالي» أن الله يخلق لهم نعيماً ببعض المخلوقات مقارناً للرؤية، فأما التنعم بنفس الرؤية فأنكره وجعل هذا من أسرار التوحيد.

وأكثر مثبتي الرؤية يقرون بتنعم المؤمنين برؤية ربهم، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها ومشايخ الطريق.

كما جاء في الحديث الذي رواه «النسائي» وغيره عن النبي ﷺ:

«اللهم بعلمِكَ الغيبَ، وبقدرتكَ على الخلق، أحيِني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي. وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي. اللهمّ إني أسألكَ خشيتَك في الغيبِ والشهادة، وأسألكَ كلمةَ الحقِّ في الغضبِ والرِضا، وأسألك القصدَ في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفَدْ، وقرةَ عينٍ لا تنقطعُ، وأسألُك الرضا بعد القضاءِ، وأسأل بردَ العيش بعد الموت، وأسألك لذةَ النظرِ إلى وجهك، وأسألكَ الشوقَ إلى لقائك، في غيرِ ضرّاءَ مضرّةٍ، ولا فتنة مضلّة. اللهم زيِّنّا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداةً مهتدين»[١].

وفي صحيح «مسلم» عن «صهيب» عن النبي ﷺ قال:

«إذا دخلَ أهلُ الجنة الجنة نادىٰ منادٍ: يا أهلَ الجنةِ إنّ لكُمْ عندَ الله موعداً يريد أن ينجزكُمُوه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيِّض وجوهنا، ويثقلْ موازينَنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟. قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه»[٢].

وكلما كان الشيء أحب كانت اللذة بنَيْله أعظم. وهذا متفق عليه بين السلف

---

(١) رواه النسائي وأحمد.

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة.

والأئمة ومشايخ الطريق. كما رُوي عن «الحسن البصري» أنه قال: [لـو علمَ العابدون أنهم لا يَروْن ربهم في الآخرة لذابتْ نفوسُهم في الدنيا شوقاً إليه]. وكلامهم في ذلك كثير.

أقوال العلماء في المحبة:

ثم هؤلاء الذين وافقوا السلف والأئمة والمشايخ على التنعم بالنظر إلى الله تعالى، وتنازعوا في مسألة المحبة التي هي أصل ذلك، فذهب طوائف من المتكلمين والفقهاء إلى أن الله لا تُحَبُّ نفسُه، وإنما المحبة محبة طاعته وعبادته. وقالوا: هو أيضاً لا يحب عباده المؤمنين، وإنما محبته إرادته للإحسان إليه ولإثابتهم.

ودخل في هذا القول من انتسب إلى نصر السنة من أهل الكلام، حتى وقع فيه طائفة من أصحاب «مالك» و«الشافعي» و«أحمد» «كالقاضي أبي بكر»، و «القاضي أبي يعلى»، و «أبي المعالي الجويني»، وأمثال هؤلاء.

وهذا في الحقيقة شعبة من التجهم والاعتزال، فإن أول من أنكر المحبة في الإسلام «الجعد بن درهم» أستاذ «الجهم بن صفوان»، فضحّى به «خالد بن عبد الله القسري»، وقال [أيها الناس: ضحوا، تقبّل الله ضحاياكم، فإن مضحٍّ «بالجعد بن درهم». إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلّم موسى تكليماً]. ثم نزل فذبحه.

والذي دل عليه الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وجميع مشايخ الطريق: أن الله يُحِب ويُحَب، ولهذا وافقهم على ذلك من تصوف من أهل الكلام، «كأبي القاسم القشيري» و «أبي حامد الغزالي» وأمثالهما، ونصر ذلك «أبو حامد» في «الإحياء» وغيره، وكذلك «أبو القاسم» ذكر ذلك في «الرسالة» على طريق الصوفية، كما في كتاب «أبي طالب المكّي» المسمّى «بقوت القلوب».

وأبو حامد ـ مع كونه تابع في ذلك الصوفية ـ استند في ذلك لما وجده من كتب الفلاسفة من إثبات نحو ذلك، حيث قالوا: [يَعشق ويُعشق].

وقد بسطتُ الكلام على هذه المسألة العظيمة في القواعد الكبار بما ليس هذا موضعه.

وقال الله تعالىٰ:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾(١).

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

وقال تعالىٰ:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[2].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال:

«ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأن يَكْرهَ أن يَرجعَ في الكفر بعد أن أنقذه اللَّهُ منه كما يَكْرَهُ أن يُقذف في النار»[3].

والمقصود هنا أن هؤلاء المتجهمة من المعتزلة ومن وافقهم، الذين ينكرون حقيقة المحبة، يلزمهم أن ينكروا التلذذ بالنظر إليه، ولهذا ليس في الحقيقة عندهم إلا التنعم بالأكل والشرب ونحو ذلك. وهذا القول باطل بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومشايخها.

فهذا أحد الحزبين الغالطين.

والحزب الثاني: طوائف من المتصوفة والمتفقّرة والمتنسّكة، وافقوا هؤلاء على أن المحبة ليس إلا هذه الأمور التي يتنعم بها المخلوق، ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله، والتنعم بالنظر إليه، وأصابوا في ذلك، وصاروا يطلبون هذا النعيم وتسْمو همتهم إليه، ويخافون فواته. وصار أحدهم يقول: [ما عبدتُكَ شوقاً إلى جنتكَ، ولا خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك، أو إجلالاً لك]، وأمثال هذه الكلمات ومقصودهم بذلك طلب ما هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق، ولكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة، وقد يغلطون أيضاً في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظٍّ ولا إرادة، وأن كل ما يُطلب منه فهو حظ النفس وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة.

وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلّقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تغنيه عن نفسه،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها، فيظن أنه يفعل بغير مراد، والذي طلبه وعلّق به همته هو غاية مراده ومحبوبه ومطلوبه.

وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين وأرباب الأحوال والمقامات، يكون لأحدهم وجدٌ صحيح، وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبيّن مراده، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده. وإن كان من الناس من يقع منه غلط في مراده واعتقاده، فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام، إذا عنوا به طلب رؤية الله تعالى، أصابوا في ذلك، لكن أخطأوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجاً عن الجنة، فأسقطوا حرمة اسم الجنة، ولزم من ذلك أمور منكرة.

ونظير ذلك ما ذكره عن «الشبلي» رحمه الله أنه سمع قارئاً يقرأ:

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾(١).

فصرخ وقال: [أين مَنْ يريد الله]؟؟. فيُحمد منه كونه أراد الله، ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله.

وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه في أحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا الله، أفيريد الله من دونهم «كالشبلي» وأمثاله؟!

ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشايخ أنه سُئل مرة عن قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾(٢).

قال: فإذا كانت الأنفس والأموال في ثمن الجنة، فالرؤية بمن تُنال؟. فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال.

والواجب أن نعلم أن كل ما أعده الله لأوليائه من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك فهو في الجنة، كما أن كل ما توعد به أعداءه هو في النار، وقد قال تعالىٰ:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(٣).

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ:

«يقول الله: أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٣) سورة السجدة، الآية: ١٧.

قلبِ بشر. بَلْهَ ما اطّلعتُم عليه»؟[1].

وكذلك في قوله في حديث «ابن عمر» عن النبي ﷺ:

«إن أدنى أهل الجنة منزلةً مَنْ ينظر في مُلْكه من مسيرةِ ألفِ عام، وإن أعلاهم منزلة من ينظر إلى وجه الله بكرةً وعشياً»[2].

وقوله في حديث «صهيب»:

«إذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ نادى منادٍ: يا أهلَ الجنةِ إن لكم عند الله موعداً الحديث... ثم قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه»[3].

وإذا علم أن جميع ذلك وأمثاله داخل في الجنة، فالناس على درجات متفاوتة، كما قال تعالىٰ:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[4].

وكل مطلوب للعبد بعبادة وقربة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة، هو في الجنة.

طلب الجنة والاستعاذة من النار:

وطلب الجنة والإستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أولياء الله السابقين المقرَّبين وأصحاب اليمين، كما في السنن أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه.

«كيف تقول في دعائك؟ قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار. أما إني لا أحسنُ دَنْدَنَتَكَ ولا دندنة معاذ. فقال النبي ﷺ: حَوْلَها نُدَنْدِنُ»[5].

فقد أخبر أنه هو ﷺ و «معاذ» وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي ﷺ إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قول أحدٍ فوق قول رسول الله ﷺ و «معاذ»، ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟

ولو طلب هذا العبد ما طلب كان في الجنة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد في المسند.
(٢) رواه الإمام أحمد في المسند وأبو يعلىٰ والترمذي والحاكم والطبراني.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢١.
(٥) رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد في المسند.

أهل الجنة نوعان:

وأهل الجنة نوعان: سابقون مقرَّبون، وأبرار أصحاب يمين.

قال تعالىٰ:

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾[1].

قال «ابن عباس»: [تُمزج لأصحاب اليمين مزجاً، ويشربها المقرّبون صرفاً].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«إذا سمعتمُ المؤذنَ، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه من صلَّى عليَّ مرة صلَّى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبدُ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت عليه شفاعتي يوم القيامة»[2].

فقد أخبر أن الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله، ورجا أن يكون هو ذلك العبد هي درجة في الجنة، فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجاً عن الجنة يصلح للمخلوقين؟.

وثبت في الصحيح أيضاً في حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس في مجالس الذكر، قال:

«فيقولون للرب تعالىٰ: وجدناهم يسبّحونك ويحمدونك ويكبِّرونك. قال: فيقول: وما يطلبون؟ قالوا: يطلبون الجنةَ. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا قال: فيقول: فكيفَ لو رأوْها؟ قال: فيقولون: لو رأَوْها لكانوا أشدَّ لها طلباً. قال: ومما يستعيذون؟ قالوا: يستعيذون من النار. قال: فيقول: فهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا،

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ١٨ ـ ٢٨.

(٢) رواه مسلم والنسائي والترمذي وأحمد في المسند.

قال: فيقولُ: فكيفَ لو رأوها؟ قالوا: لو رأوها لكانوا أشدَّ منها استعاذةً، قال فيقول: أُشهدُكم أني قد أعطيتُهم ما يطلبونَ، وأعذتُهم مما يستعيذونَ أو كما قال، قال: فيقولون: فيهم فلان الخطَّاء جاءَ لحاجةٍ فجلسَ معهم. قال: فيقول: هُمُ القومُ لا يشقىٰ بهم جليسُهم»(١).

فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله، كان مطلوبهم الجنة ومهربهم من النار.

وأيضاً فالنبي ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة ـ وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الـذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم ـ قالوا للنبي ﷺ:

اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك. قال: «أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسَكُم وأهليكم، وأشترطُ لأصحابي أن تواسوهم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لَنَا؟ قال: لكم الجنة. قالوا: امددْ يدك، فواللَّهِ لا نقيلك ولا نستقيلك وقد قالوا له في أثناء البيعة: إن بيننا وبين القوم حبالاً وعهوداً، وإنا ناقضوها»(٢).

فهؤلاء الذين بايعوه هم من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله، على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين، قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة. فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه. لكنهم علموا أن في الجنة كل محبوب ومطلوب، بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه، فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور فما لا يحسه إنسان ولا يتصوره ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده.

والجنة فيها هذا وهذا، كما قال تعالىٰ:

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾(٣).

وقال تعالىٰ:

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾(٤).

ففيها كل ما يشتهونه، وفيها مزيد على ذلك، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه، كما قال ﷺ:

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد في المسند.
(٢) رواه أحمد في المسند، وابن سعد في طبقاته، وابن كثير في السيرة.
(٣) سورة قٓ، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

«ما لا عين رأت، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر»[1].

عود على تعريف الداراني للرضا:

فإذا عرفت هذه المقدمة فقول القائل: [الرضا أن لا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار] - إن أراد بذلك أن لا تسأل الله ما هو داخل في مسمَّى الجنة الشرعية، فلا تَسأله النظر إليه، ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء، وأنك لا تستعيذ به: لا من احتجابه عنك، ولا من تعذيبك في النار - فهذا الكلام، مع كونه مخالفاً لجميع الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين، فهو متناقض في نفسه، فاسد في صريح المعقول.

وذلك أن الراضي الذي لا يسأل، إنما لا يسأله لرضاه عن الله. ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به، ومحبته له. فإذا قُدِّر أنه حُجب فرضي بزوال كل نعيم، فرضي بزوال رضاه عن الله وبزوال محبته لله، وإذا لم يبقَ معه رضا عن الله ولا محبة لله، فكأنه قال: يرضى أن لا يرضى، وهذا جمع بين النقيضين.

ولا ريب أنه كلام من لم يتصور ما يقول ولا عَقَلَهُ.

يوضح ذلك: أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته، فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يحتمل ألماً ومرارة، فكيف يتصور أن يكون راضياً، وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره؟.

وإنما هذا من جنس كلام السكران والفاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا، فظن أن هذا يبقى معه على أي حالٍ كان. وهذا غلط عظيم منه، كغلط «سمنون»، كما تقدم.

وإن أراد بذلك أن لا يسأل التمتع بالمخلوق، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك، فقد غلط من وجهين: من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة، وهو أعلى نعيم الجنة. ومن جهة أنه أيضاً أثبت أنه طالب مع كونه راضياً، فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب، فلا ينافي طلباً آخر إذا كان محتاجاً إلى مطلوبه.

ومعلوم أن تنعمه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار، وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر، وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب، فيكون طلبه للنظر طلباً للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة، ولا دفع المضرة عنه، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار، ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر، فتبين تناقض قوله.

وأيضاً فإذا لم يسأل الله الجنة، ولم يستعذ به من النار، فإما أن يطلب من الله ما هو

---

(١) سبق تخريجه.

دون ذلك مما يحتاج إليه من جلب منفعة ودفع مضرة، وإما أن لا يطلبه، فإن طَلَبَ ما هو دون ذلك، واستعاذ مما هو دون ذلك، فطلبه للجنة أَوْلى، واستعاذته من النار أَوْلى.

وإن كان الرضا أن لا يطلب شيئاً قط ولو كان مضطراً إليه، ولا يستعيذ من شيء قط ولو كان مضرّاً به، فلا يخلو إما أن يكون ملتفتاً بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك، وإما أن يكون معرضاً عن ذلك، فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله.

ولا فرق بين الطلب بالحال والقال، بل هو بهما أكمل وأتم، فلا يعدل عنه. وإن كان معرضاً عن جميع ذلك فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقى إلا بما يقيم حياته ويدفع مضاره، فذلك الذي به يحيا من طلب جلب المنافع ودفع المضار، إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحدٍ، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده، فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله، كان مشركاً مذموماً، فضلاً على أن يكون محموداً.

وإن قال: لا أحبه ولا أطلبه ولا أريده لا من الله، ولا من خلقه!!.

قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي يمتنع عليه أن لا يحب ما به يبقى. وهذا أمر معلوم بالحس، ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يُوصف بالرضا، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة، إذ الرضا مستلزم لذلك، فكيف يُسلب عنه ذلك كله؟

فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام في العقل.

الرضا في سبيل الله ودينه وطريقه:

وأما الرضا في سبيل الله وطريقه ودينه فمن وجوه:

أحدها: أن يقال: الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله، وإلا فكيف يكون راضياً عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله، وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله. ويسخطه ويذمه وينهى عنه؟

وبيان هذا أن الرضا المحمود: إما أن يكون الله يحبه ويرضاه، وإما أن لا يحبه ويرضاه. فإن لم يكن يحبه ويرضاه، لم يكن هذا الرضا مأموراً به: لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب، فإن من الرضا ما هو كفر، كرضا الكفار بالشر وقتل الأنبياء وتكذيبهم، ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه.

قال تعالىٰ:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾(١).

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٨.

فمن اتبع ما يسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله.

وقال النبي ﷺ: «إن الخطيئةَ إذا عُملت في الأرض كانَ من غابَ عنها ورَضِيَها كمن شهِدَها، ومن شهِدَها وسخِطَها كان كمن غابَ عنها وأنكرها»[1].

وقال ﷺ:

«سيكون بعدي أمراءٌ تعرفون وتُنكرونَ، فمن أنكر فقد بريء، ومن كَرِه فقد سَلِمَ، ولكن مَنْ رضي وتابع»[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[3].

فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يرضى عنهم.

وقال تعالىٰ:

﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[4].

فهذا رضىً قد ذمه الله.

قا تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾[5].

فهذا أيضاً مذموم.

وشواهد هذا كثيرة.

فمن رضي بكفره، وكفر غيره وفسقه، وفسق غيره، ومعاصيه ومعاصي غيره، فليس هو متبعاً لرضا الله، ولا هو مؤمن بالله، بل هو مسخط لربه، وربه غضبان عليه، لا لاعن له، ذامٌّ له، متوعد له بالعقاب.

---

(١) رواه أبو داود والطبراني.
(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وأحمد.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٨.
(٥) سورة يونس، الآية: ٧.

وطريق الله، التي يأمر بها الشايخ المهتدون، إنما هي الأمر بطاعة الله والنهي عن معصيته. فمن أمر أو استحبَّ أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه وينهي عنه ويعاقب أصحابه، فهو عدو لله لا وليٌّ لله وهو يصد عن سبيل الله وطريقه، وليس بسالك لسبيله وطريقه.

وإذا كان الرضا الموجود في بني آدم: منه ما يحب الله، ومنه ما يكرهه ويسخطه، ومنه ما هو مباح لا من هذا ولا من هذا، كسائر أعمال القلوب من الحب والبغض وغير ذلك، كلها ينقسم إلى محبوب لله ومكروه لله ومباح، فإذا كان الأمر كذلك، فالراضي الذي لا يسأل الله الجنة ولا يستعيذه من النار، يُقال له: سؤال الله الجنة واستعاذته من النار: إما أن تكون واجبة، وإما أن تكون مستحبة، وإما أن تكون مباحة، وإما أن تكون محرَّمة، وإما أن تكون مكروهة، ولا يقول مسلم: إنها محرَّمة ولا مكروهة، وليست أيضاً مباحة مستوية الطرفين، ولو قيل: إنها كذلك، ففعل المباح المستوي الطرفين لا ينافي الرضا، إذ ليس من شرط الراضي أن لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفعل أمثال هذه الأمور، فإذا كان ما يفعله من هذه الأمور لا ينافي رضاه، أينافي رضاه دعاءٌ وسؤالٌ هو مباح؟

وإذا كان الدعاء والسؤال كذلك واجباً أو مستحباً، فمعلوم أن الله يرضى بفعل الواجبات والمستحبات، فكيف يكون الراضي الذي هو من أولياء الله لا يفعل ما يرضاه الله ويحبه، بل يفعل ما يسخطه ويكرهه؟، وهذه صفة أعداء الله لا أولياء الله.

تعريف الإمام القشيري للرضا:

و «القشيري» قد ذكر هذا في أوائل باب الرضا فقال: **[اعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله الذي أُمِر بالرضا به؛ إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب على العبد الرضا به، كالمعاصي وفنون مِحَن المسلمين].**

وهذا الذي قاله قاله قبله وبعده وغيره ومعه غير واحد من العلماء، «كالقاضي أبي بكر»، و «القاضي أبي يعلى»، وأمثالهما، لما احتج عليهم بعض القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به، فلو كانت المعاصي بقضاء الله لكنا مأمورين بالرضا بها، والرضا بما نهى الله عنه لا يجوز.

فأجابهم أهل السنة عن ذلك بثلاثة أجوبة:

أحدها: وهو جواب هؤلاء وجماهير الأئمة: أن هذا العموم ليس بصحيح، فلسنا مأمورين أن نرضى بكل ما قُضِيَ وقُدِّر، ولم يجيء في الكتاب والسنة أمر بذلك، ولكن علينا أن نرضى بما أُمرنا بالرضا به، كطاعة الله ورسوله، وهذا هو الذي ذكره «أبو القاسم».

والجواب الثاني: أنهم قالوا: إنَّا نرضى بالقضاء الذي هو صفة الله أو فعله، ولا نرضى بالمقضي الذي هو مفعوله. وفي هذا الجواب ضعف قد بيّنّاه في غير هذا الموضع.

الثالث: أنهم قالوا: إن هذه المعاصي لها وجهان: وجه إلى العبد من حيث هي فعله وصنعه وكسبه، ووجه إلى الرب من حيث أنه خلقها وقضاها وقدَّرها، فنرضى من الوجه الذي يُضاف به إلى الله، ولا نرضى من الوجه الذي يُضاف به إلى العبد، إذ كونها شرّاً وقبيحة ومحرَّمة وسبباً للعذاب والذم ونحو ذلك، إنما هو من جهة كونها مضافة إلى العبد، وهذا مقامٌ فيه من كشف الحقائق والأسرار ما قد ذكرنا منه ما ذكرنا في غير هذا الموضع، ولا يحتمله هذا المكان، فإن هذا متعلق بمسائل الصفات والقدر، وهو من أعظم مطالب الدين، وأشرف علوم الأوَّلين والآخرين وأدقها على عقول أكثر العالمين.

والمقصود هنا أن مشايخ الصوفية، وغيرهم من العلماء، قد بيَّنوا أن من الرضا أن يكون جائزاً، ومنه ما لا يكون جائزاً، فضلاً عن كونه مستحباً أو من صفات المقرَّبين، وأنَّ «أبا القاسم» ذكر في «الرسالة» ذلك أيضاً.

فإن قيل: هذا الذي ذكرتموه أمر بيّن واضح، فمن أي غلط من قال: [الرضا أن لا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار] وغلط من يستحسن مثل هذا الكلام، كائناً من كان؟

قيل: غلطوا في ذلك لأنهم رأوا أن الراضي بأمر لا يطلب غير ذلك الأمر، فالعبد إذا كان في حالٍ من الأحوال، فمن رضاه أن لا يطلب غير تلك الحال. ثم إنهم رأوا أن أقصى المطالب الجنة، وأقصى المكاره النار، فقالوا: ينبغي أن لا يطلب شيئاً ولو أنه الجنة، ولا يكره شيئاً ولو أنه النار، فهذا وجه غلطهم.

ودخل الضلال عليهم من وجهين:

أحدهما: ظنهم أن الرضا بكل ما يكون أمر يحبه الله ويرضاه، وأن هذا من أعظم طرق أولياء الله، فجعلوا الرضا بكل حادثٍ وكائن، أو بكل حال يكون فيها العبد، طريقاً إلى الله، فضلُّوا ضلالاً مبيناً. والطريق إلى الله إنما هي أن ترضيه بأن تفعل ما يحبه ويرضاه، لا أن ترضى بكل ما يحدث ويكون، فإنه هو لم يأمرك بذلك ولا رضيه ولا أحبه، بل هو سبحانه يكره ويسخط ويبغض على أعيانٍ أو أفعال موجودة لا يحصيها إلا هو.

وولاية الله موافقته بأن تحب ما يحب، وتبغض ما يبغض، وتكره ما يكره، وتسخط ما يسخط، وتوالي من يوالي، وتعادي من يعادي، فإذا كنت تحب وترضى ما يسخطه

ويكرهه، كنت عدوه ولا وليّه، وكان كل ذمٍّ نالَ مَنْ رضِيَ ما أسخط اللَّهُ قد نالك.

فتدبر هذا، فإنه تنبيه على أصل عظيم ضَلَّ فيه من طوائف النسّاك والصوفية والعبّاد والعامة من لا يحصيهم إلا الله.

الوجه الثاني: أنهم لم يفرّقوا بين الدعاء الذي أُمر به أمر إيجاب وأمر استحباب، وبين الدعاء الذي نُهُوا عنه أو لم يؤْمروا به ولم ينهوا عنه، فإن دعاء العبد لربه ومسألته إياه ثلاثة أنواع:

نوع أُمر به العبد، إما أمر إيجاب وإما أمر استحباب، مثل قوله:

﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[1].

ومثل دعائه في آخر الصلاة، كالدعاء الذي كان النبي ﷺ يأمر به أصحابه فقال:

«إذا قعدَ أحدُكم في التشهد فليستعذْ بالله من أربعٍ: من عذاب جهنَّم، وعذابِ القبرِ، وفتنةِ المحيا والممات، وفتنةِ المسيح الدجال»[2].

فهذا دعاء أمر به النبي ﷺ الصحابة أن يدعو به في آخر صلاتهم، وقد اتفقت الأمة على أنه مشروع يحبه الله ورسوله ويرضاه، وتنازعوا في وجوبه، فأوجبه «طاووس» وطائفة، وهو قول في مذهب «أحمد»، والأكثرون قالوا: هو مستحب.

والأدعية التي كان النبي ﷺ يدعو بها، أو يعلّم أصحابه أن يدعوا بها، لا تخرج عن أن تكون واجبة أو مستحبة، وكل واحد من الواجب والمستحب، فالله يحبه ويرضاه، ومن فعله رضي الله عنه وأرضاه، فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه؟

ونوع من الدعاء يُنهى عنه كالاعتداء في الدعاء: مثل أن يسأل الرجل ما لا يصلح له مما هو من خصائص الأنبياء وليس هو بنبي، وربما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى، مثل أن يسأل لنفسه الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد من عباده، أو يسأل الله أن يجعله أفضل من أولياء الله، حتى يكون أفضل من «أبي بكر» و«عمر»، أو يسأل الله أن يجعله بكل شيء عليم، أو على كل شيء قدير، أو يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب، وأمثال ذلك، أو مثل من يدعوه ظاناً أنه محتاج إلى عباده، وأنهم يبلغون ضرّه ونفعه، فيطلب منه ذلك الفعل، ويذّكر أنه قال إذا لم يفعله حصل له ضير من الخلق.

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وأحمد في المسند.

فهذا ونحوه جهل بالله واعتداء في الدعاء، وإن وقع في نحو ذلك طائفة من الشيوخ.

ومثل أن يقول: [اللهم اغفر لي إن شئت]، فيظن أن اللَّهَ قد يفعل الشيء مختاراً، وقد يفعله مكرهاً، كالملوك، فيقول: اغفر لي إن شئت.

وقد نهى النبي ﷺ قال:

«لا يقل أحدُكم: اللهمّ اغفرْ لي إن شئتَ، اللهمّ ارحمني إن شئت، ولكن ليعزمْ المسألة، فإن الله لا مكره له»[1].

ومثل أن يقصد السجع[2] في الدعاء ويتشهّق[3] ويتشدّق[4]، وأمثال ذلك.

فهذه الأدعية ونحوها منهيٌّ عنها. ومن الدعاء ما هو مباح، كطلب الفضول التي لا معصية فيها.

والمقصود أن الرضا الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب ولا ترك مستحب، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضا، كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع، ولا فعل المحرمات من الرضا المشروع.

فقد تبين غالط هؤلاء من جهة ظنهم أن الرضا مشروع بكل مقدور، ومن جهة أنهم لم يميِّزوا بين الدعاء المشروع إيجاباً أو استحباباً والدعاء غير المشروع، وقد عُلم بالاضطراب من دين الإسلام أن طلب الجنة من الله والاستعاذة به من النار هو من أعظم الأدعية المشروعة لكل أحد من المرسلين والنبيين، وجميع الصدِّيقين والشهداء والصالحين. وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجباً أو مستحباً، وطريق أولياء الله التي يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات، إذ ما سوى ذلك محرّم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه في الدين.

ثم إنه مما أوقع هؤلاء من هذا الغلط أنهم وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ودفع المضار، حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار، من جهة كون ذلك

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد في المسند.
(٢) السجع: الكلام المقفىٰ، ويقال سجع الرجل: إذا نطق بكلام له فواصل.
(٣) شهق: تردد البكاء في صدره.
(٤) تشدق: لوىٰ جانب فمه للتفصح في الكلام.

عبادة وطاعة وخيراً، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده، وأن لا يكون لأحدهما إرادة أصلاً، بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر كائناً من كان، وهذا هو الذي أدخل كثير منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به، فإنهم رأوا العامة تعدُّ هذه الأمور عبادة بحكم الطبع والهوى والعادة. ومعلوم أن الأفعال التي تقع على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة، فرأى أولئك أن الطريق إلى الله ترك هذه الأمور لأنها من الطبيعيات والعادات، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبّات، وفعل مكروهات ومحرّمات.

وكلا الأمرين غير محمود ولا مأمور به ولا طريق إلى الله: طريق المفرِّطين الذين فعلوا هذه الأمور المحتاج إليها على غير وجه العبادة والقربة إلى الله، وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال، بل المشروع أن تُفعل بنية التقرّب إلى الله، وأن يُشكر الله.

قال تعالىٰ:

﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾[١].

وقال تعالىٰ:

﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ ﴾[٢].

فأمر بالأكل والشكر، فمن أكل ولم يشكر كان مذموماً، ومن لم يأكل ولم يشكر كان مذموماً.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن الله ليرضى عن العبدِ أن يأكلَ الأكلةَ فيحمدَهُ عليها، ويشربَ الشربة فيحمده عليها»[٣].

وقال ﷺ:

«إنك لن تُنفقَ نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلا ازددت بها درجةً ورفعة، حتى اللقمة ترفعها إلى فِي امرأتك»[٤].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.
(٣) رواه مسلم والترمذي وأحمد في المسند.
(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد في المسند.

وقال ﷺ:

«إذا أنفقَ الرجلُ على أهلِهِ يحتسبُها فهو له صدقة»[1].

فكذلك الأدعية: هَبْ أن من الناس من يسأل الله جلب المنفعة له ودفع المضرة عنه طبعاً وعادة لا شرعاً وعبادة، فليس من المشروع لي أن أَدَعَ الدعاء مطلقاً لأجل تقصير هذا وتفريطه، بل أفعله أنا شرعاً وعبادة.

ثم اعلم أن الذي يفعله شرعاً وعبادة إنما يسعى في مصلحة نفسه وطلب حظوظه المحمودة، فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته، بخلاف الذي يفعله طبعاً، فإنه إنما يطلب مصلحة دنياه فقط. كما قال تعالىٰ:

﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[2].

وحينئذ فطالب الجنة والمستعيذ من النار إنما يطلب حسنة الآخرة فهو محمود.

ومما يبين الأمر في ذلك أن يرد قول هؤلاء بأن العبد لا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً، فلا يصلي، ولا يصوم، ولا يتصدق، ولا يحج ولا يجاهد، ولا يفعل شيئاً من الخير، فإن ذلك إنما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب. فإذا كان هو لا يطلب حصول الثواب، الذي هو الجنة، ولا دفع العقاب، الذي هو النار، فلا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً، ويقول أنا راضٍ بكل ما يفعله بي وإن كفرت وفسقت وعصيت، بل يقول: أنا أكفر وأفسق وأعصي حتى يعاقبني وأرضى بعقابه، فأنال درجة الرضا بقضائه. وهذا قول من هو أجهل الخلق وأحمقهم وأضلهم وأكفرهم.

أما جهله وحمقه فلأن الرضا بذلك ممتنع متعذر، ولأن ذلك مستلزم الجمع بين النقيضين. وأما كفره، فلأنه مستلزم لتعطيل دين الله الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه.

ولا ريب أن ملاحظة القضاء والقدر أوقعت كثيراً من أهل الإرادة من المتصوفة في أن تركوا من المأمور وفعلوا من المحظور ما صاروا به إما ناقصين محرومين، وإما عاصين، وإما فاسقين، وإما كافرين. وقد رأيت من ذلك ألواناً:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[3].

---

(1) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد في المسند.

(2) سورة البقرة، الآيات ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

(3) سورة النور، الآية: ٤٠.

التناقض بين القدرية والمعتزلة في القدر:

وهؤلاء والمعتزلة ونحوهم من القدرية في طرفي نقيض.

هؤلاء يلاحظون القدر ويعرضون عن الأمر، وأولئك يلاحظون الأمر ويعرضون عن القدر. والطائفتان تظن أن ملاحظة الأمر والقدر متعذر، كما أن طائفة تجعل ذلك مخالفاً للحكمة والعدل.

وهذه الأصناف الثلاثة هي: القدرية المجوسية، والقدرية المشركية، والقدرية الإبليسية، وقد بسطنا الكلام على هذه الفرق في غير هذا الموضع.

وأكثر ما يُبتلى به السالكون أهل الإرادة والعامة في هذا الزمان هي القدرية المشركية، فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر، كما قال فيهم بعض العلماء: [أنت عند الطاعة قَدَرِيٌّ، وعند المعصية جبريٌّ، أيَّ مذهب وافقَ هواك تمذهبتَ به]. وإنما المشروع العكس، وهو أن يكون عند الطاعة يستعين الله عليها قبل الفعل، ويشكره عليها بعد الفعل، ويجتهد أن لا يعصي، فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار.

كما في الحديث:

«سيدُ الاستغفار أن يقولَ العبدُ: أبوءُ لك بنعمتك عليّ وأبوءُ بذنبي فاغفر لي»[١].

وجاء في الحديث القدسي:

«يا عبادي إنما أعمالُكُم أُحْصيها لكم، ثمّ أوفيكم إياها، فَمَنْ وجد خيراً فليحمدِ الله، ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومنّ إلا نفسَهُ»[٢].

ومن هذا الباب دخل قوم من أهل الإرادة في ترك الدعاء، وآخرون جعلوا التوكل والمحبة ونحو ذلك من مقامات العامة. وأمثال هذه الأغاليط التي قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع، وبيَّنّا الفرق بين الصواب والخطأ في ذلك، ولهذا ـ وأمثاله يوجد في كلام أئمة هؤلاء المشايخ الوصيّة باتّباع العلم والشريعة، كقول «سهل بن عبدالله التستري» رحمه الله: [العمل بلا اقتداء عيش النفس، والعمل بالاقتداء عذابٌ على النفس]، وقال: [كلُّ وجْدٍ لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل]. وقال «الجنيد بن محمد»: [من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الشأن، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة]. وقال «أحمد بن أبي الحواريّ»: [من عمل عملاً بلا اتّباع سنة رسول الله ﷺ فباطل عمله].

---

(١) رواه البخاري وأبو داود وابن ماجة وأحمد في المسند.

(٢) رواه مسلم والترمذي والبيهقي في الآداب.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿هدىً للمتقين﴾	٢	١٨٩
﴿ومما رزقناهم ينفقون	٣	٤٠ ـ ٢٠٢
﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم﴾	١٠	٧٩ ـ ١٢٨
﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾	١١ ـ ١٢	٢٥٦
﴿وأنزل من السماء ماء	٢٢	٤٠
﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾	٣٠	٢٥٥
﴿إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾	٣٤	٢٢٧
﴿وقالوا قلوبنا غلق﴾	٨٨	٢٧٢
﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم﴾	١٠٩	٢٤٤
﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارىٰ حتى تتبع ملتهم	١٢٠	٦٣
﴿استعينوا بالصبر والصلاة	١٥٣	١٣٦
﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً﴾	١٥٤	٧٤
﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة. . .﴾	١٥٥ ـ ١٥٦	١٣٧
﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾	١٦٥	٢٩٠
﴿كلوا من طيبات من رزقناكم﴾	١٧٢	٢٠٢
﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾	١٧٧	١٥٢
﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم	١٧٧	٢٦٩
﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾	١٨٥	٢٦٩
﴿وإذا سلك عبادي عني فإني قريب﴾	١٨٦	١٦٤ ـ ١٧٣
﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة	١٩٣	٢٦٨

﴿فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه	١٩٤	٢٠٧
﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوىٰ	١٩٧	٤٢ ـ ٢٣٥
﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة...﴾	٢٠٠ ـ ٢٠٢	٣٠٣
﴿والله لا يحب الفساد﴾	٢٠٥	٢٧٩
﴿حتىٰ يقول الرسول والذين آمنوا معه	٢١٤	٢٠٩
﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم	٢١٦	٤٣
﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾	٢١٧	٢٦٣
﴿من يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر﴾	٢١٧	١١٤
﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾	٢٣٣	٢٣١
﴿وإذ كروا نعمة الله عليكم﴾	٢٣١	١٩٩
﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسىٰ	٢٤٦	٥٤
﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾	٢٤٩	٢٠٦
﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾	٢٥٧	١٨٨
﴿فبهت الذين كفروا الله لا يهدي القوم﴾	٢٥٨	٢٧٢
﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾	٢٦٣	٣٢
﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس﴾	٢٦٤	٢٧
﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾	٢٧٣	١٤٩
﴿واتقوا ا ويعلمكم الله﴾	٢٨٢	٤١
﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾	٢٨٤	١١١
﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾	٢٨٦	١٨٤

سورة آل عمران

﴿هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين﴾	١٣	٣٥
﴿والمستغفرين بالأسحار﴾	١٧	١١٠
﴿واذكر ربك﴾	٤١	١٧١
﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء﴾	٦٤	٢٥٨
﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم﴾	٨١	١٢٨
﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل﴾	٩٣	٥٢
﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾	١٠٤	٥٥
﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾	١٠٨	١٨١
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾	١١٨	١٣١ ـ ١٣٤

﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم﴾	١٢٠	١٣٤ ـ ١٣٠
﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾	١٢٠	٢٨١
﴿بلىٰ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم﴾	١٢٥	١٣٤ ـ ١٣١
﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾	١٣٦ ـ ١٣٣	١٤٤
﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾	١٣٥	١٤٥
﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾	١٤٣	٢٨٤
﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾	١٥٢	٢٩١
﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقىٰ الجمعان﴾	١٥٥	٢٧٢
﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾	١٦٩	٧٤
﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم	١٧٣	٢٣٩
﴿ولا تحسبن الذين يبخلون﴾	١٨٠	٢٠٤
﴿كل نفس ذائقة الموت﴾	١٨٥	٧٤
﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾	١٨٦	١٣٤ ـ ١٣١
﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾	١٨٦	٢٨ ـ ٤٤
سورة النساء		
﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾	٥	٢٣١
﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء﴾	١٧	١١٧
﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾	٢٧	٨٥
﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾	٢٨	٢٧٠
﴿إن تجتبوا كبائر ما تنهون عنه﴾	٣١	١٠٩
﴿واسألوا الله من فضله﴾	٣٢	١٥١
﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا﴾	٣٦	١٤٠
﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾	٣٧	٢٠٢
﴿الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾	٣٨	٣٣ ـ ٢٨
﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾	٤٠	١٨١
﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾	٤٨	٢٢٧
﴿ألم ترى إلى الذين يزكون أنفسهم﴾	٤٩	٧٨
﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم﴾	٥٤	٢٤٤
﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول﴾	٥٩	٢٦٧
﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾	٦٦	٣٣

﴿وإن منكم لمن ليبطئن. . .﴾	٧٢ ـ ٧٣	٢٥٠
﴿فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾	٧٤	٩٤
﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير﴾	٧٧	١٨١
﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا﴾	٧٧	٢٨٤
﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾	٧٩	١٢٩
﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾	٧٩	١٢٩
﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾	٨٠	٢٦٧
﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه﴾	٩٣	٢٧٩
﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾	١١٦	١٠٣
﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾	١١٧	١٦٧
﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا﴾	١٢٩	١٨٥
﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾	١٣٥	٢٢٣
﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾	١٤٢	٢٦٤
﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾	١٤٨	٢١٩
﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾	١٥٥	٢٧٢
﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم﴾	١٦٠	٥٢
﴿لئلا يكون للناس على الله حجة﴾	١٦٥	١٩٥

سورة المائدة

﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾	٣	٥٣
﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾	٦	٢٧٠
﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا﴾	٨	١٤٠
﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾	٢١	٥٤
﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل﴾	٣٢	٢٥٥
﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين﴾	٤١	١٢٤
﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾	٤٢	١٢٤
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارىٰ﴾	٥١	٢١٨
﴿إنما وليكم الله ورسوله. . .﴾	٥٥ ـ ٥٦	٢١٧
﴿يحبهم ويحبونه﴾	٥٤	٢٨٩
﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾	٦٣	١٢٥

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات﴾	٦٨	٢٧٣
﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾	٧٧	٦٣
﴿ولا تتبعوا أهواء قوم﴾	٧٧	٨٦ ـ ٩٩
﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم﴾	٨٠	٢٧٩
﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا﴾	٨٢	٢٧٣
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات﴾	٨٧	٢٥٩ ـ ٢٦٢
﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾	١٠٥	٥٧

سورة الأنعام

الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض﴾	١	١١٩
﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا﴾	٣٤	٢١٠
﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له﴾	٣٨	٢٣٣
﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾	٥٢	١٦١
﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾	٥٣	١٦١
﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام﴾	٥٤	١١٨
﴿وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت﴾	٧٠	١٨٥
﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾	٨٨	١٦٣
﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾	١٠٨	١١٧
﴿وما يشعر كم أنها جاءت لا يؤمنون﴾	١٠٩	٢٧٢
﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾	١١٩	٦٢
﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾	١٢٢	١٨٦
﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن تؤمن﴾	١٢٤	١٦٠
﴿يا معشر الجن والإنس﴾	١٣٠	١٩٥
﴿وكذلك زين لكثير من المشركين﴾	١٣٧	١١٧
﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾	١٥١	١٧٢
﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾	١٥٢	١٨٥

سورة الأعراف

﴿ما نهاكم ربكما عن هذه الشجرة﴾	٢٠	١١٦
﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾	٢٣	١٧٦
﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بهذا﴾	٢٨	١٥٧

﴿قل أمرر بي بالقسط	٢٩	٢٥٨
﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت﴾	٣٨	٢٢٩
﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾	٤٣	٨٤
﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾	٥٥	١٦٨ ـ ١٧١
﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾	٥٦	١٦٥
﴿أتجادلونني في أسماء سمعتموها أنتم وآباؤكم﴾	٧١	١٠٨
﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم﴾	٨٠	١٠٨
﴿قال الملأ الذين استكبروا...﴾	٨٨ ـ ٨٩	١١٢
﴿ولو أن أهل القرىٰ آمنوا﴾	٩٦	٣٨
﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض﴾	١٤٦	١٥٩ ـ ٢٢٨
﴿وفي نسختها هدىً ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾	١٥٤	٣٥
﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا﴾	١٥٥	١٧٩
﴿ورحمتي وسعت كل شيء...﴾	١٥٦ ـ ١٥٧	١٧٣
﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾	١٥٧	٥١
﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾	١٨٦	١٩٩
﴿إن الذين آمنوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾	٢٠١	٣٦ ـ ١٨٧

سورة الأنفال

إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾	٩	١٧٢
﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة﴾	١٢	٢٧٣
﴿ومن يوليهم يومئذ دبره إلا متحرفا﴾	١٦	٢٠٥
﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾	٢٣	١٩٤
﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول﴾	٢٤	١٨٦
﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾	٣٨	١١٥
﴿فاصبر آن وعد الله خق﴾	٣٨	١٠٦
﴿وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة﴾	٣٩	٧٠ ـ ٢٠٧

سورة التوبة

﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾	١٤	٧٩
﴿إنما يعمر مساجد الله﴾	١٨	٢٨
﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾	٢٤	٢٩٠

﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم...﴾	٢٥ ـ ٢٦	٢٧٣
﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾	٣١	٢٢٨
﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم...﴾	٣٨ ـ ٣٩	٢٠٦
﴿أرضيتم بالحياة الدنيا﴾	٣٨	٢٩٧
﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم﴾	٤٧	٢٢٢
﴿ومنهم من يقول ائذن لي في الفتنة﴾	٤٩	٧٠
﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات﴾	٥٧	٢٠٥
﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات	٥٨	٢٧٨
﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾	٥٩	٢٧٨
﴿والله ورسوله أحق أن يرضون﴾	٦٢	٢٧٨
﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾	٧١	٥٣ ـ ٢٨٨
﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾	٧٦	٢٠٤
﴿فأعقبتهم نفاقاً في قلوبهم﴾	٧٧	١٢٨
﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾	٩٦	٢٩٧
﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضىٰ﴾	٩٦	٢٧٩
﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾	١٠٢	٩٣
﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة﴾	١١٠	١٤٧
﴿إن الله اشترىٰ من المؤمنين﴾	١١١	٢٩١
﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين﴾	١١٧	١١٣
﴿ذلك بأنه لا يصيبهم ظمأ ولا نصب﴾	١٢٠	٢٤٧

سورة يونس

﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾	٧	٢٩٧
﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم﴾	١٨	١٦٥
﴿يخرج الحي من الميت﴾	٣١	١٨٦
﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء﴾	٥٧	٧٩
﴿إلا أن أولياء الله لا خوف...﴾	٦٢ ـ ٦٣	١١٦
﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك	١٠٦	١٦٥
﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله﴾	١٠٩	١٣٥

سورة هود

آلر كتاب أحكمت آياته...﴾	١ ـ ٣	١٠٧

﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾	٣	١٠٧
﴿وما من دابة في الأرض إلا علم الله﴾	٦	٣٧
﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح﴾	٣٤	٨٥
﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك﴾	٤٧	١٧٦
﴿قيل يا نوح اهبط بسلام﴾	٤٨	١٤٢ ـ ٢٠٧
﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾	٤٩	١٤٢ ـ ٢٠٧
﴿وإلى عاد أخاهم هوداً...﴾	٥٠ ـ ٥٢	١٠٨
﴿فاستغفروه ثم توبوا﴾	٦١	١٠٨
﴿أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾	٨٥	١٠٩
﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾	٨٨	٢٣٣
﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا﴾	١١٤	١٣٦
﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾	١١٤	٩٤
﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾	١١٥	٦٧ ـ ١٣٦
﴿فاعبده وتوكل عليه﴾	١٢٣	٣٩ ـ ٢٣٣

سورة يوسف

﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾	٥	١٧٠ ـ ٢٤٥
﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا﴾	٨	٢٤٥
﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾	١١	٢١٠
﴿ولقد همت به وهم بها﴾	٢٤	١٨٨
﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً﴾	٢٢	٣٦
﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾	٢٤	٣٠ ـ ٣١ ـ ٩٥ ـ ١٤٣
﴿رب السجن أحب إلي﴾	٣٣	١٦٣
﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾	٥٣	٧١ ـ ٨٦
﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾	٨٦	١٣٢ ـ ١٥٢
﴿أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا﴾	٩٠	١٣٤
﴿إنه من يتقي ويصبر﴾	٩٠	٤٤ ـ ٢٤٦ ـ ٢٨١
﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله﴾	١٠٨	١٧٢
﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾	١١٠	٢٠٩
﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾	٤٢	١٦٣

سورة الرعد

﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾	٣٨	٢٦٥

سورة إبراهيم

﴿لتخرِج الناس من الظلمات﴾	١	١٨٨
﴿وذكرهم بأيام الله﴾	٥	٢٠٠
﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾	٥	١٢٩
﴿وقال الذين كفروا لرسلهم...﴾	١٣ ـ ١٤	١١٢

سورة الحجر

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾	٤٢	٣١ ـ ٢٦٩
﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾	٧٥	٤٩

سورة النحل

﴿إلّهكم إله واحد...﴾	٢٢ ـ ٢٥	٢٢٨
﴿وله ما في السمٰوات والأرض﴾	٥٢	١١١
﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾	٥٣	١٢٣
﴿وضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً...﴾	٧٥ ـ ٧٦	٢٤٢
﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى﴾	٩٧	١١٤
﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾	٩٩	١٦٢
﴿وما ظلمناهم...﴾	١١٨	١٨٠

سورة الإسراء

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾	٧	١٨٤
﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾	٤	٢٥٥
﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها﴾	١٩	١١٣
﴿انظر كيف فضلنا﴾	٢١	٢٩٢
﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾	٢٢	١٦٣
﴿وقضىٰ ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾	٢٣	١٧٣
﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا﴾	٤٥	١٥٩
﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾	٦٥	٩٥ ـ ١٤٣
﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾	٧٨	١٦٦
﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة﴾	٨٢	٧٩
﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾	١١٠	١٩٦

سورة الكهف

﴿إنهم فتية﴾	١٣	٤١
﴿واصبر نفسك﴾	٢٨	١٤٦
﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه﴾	٢٨	١١٦
﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾	٤٩	١٨٠
﴿أفتتخذونه وذريته أولياء﴾	٥٠	٢١٨

سورة مريم

﴿إذ نادىٰ ربه نداء خفيا﴾	٣	١٦٨
﴿واذكر في الكتاب إبراهيم...﴾	٤١ ـ	١٠٩
﴿واذكر في الكتاب إبراهيم﴾	٤١	١٩٩
﴿واذكر في الكتاب موسىٰ﴾	٥١	٢٠٠
﴿واذكر في الكتاب إسماعيل﴾	٥٤	٢٠٠
﴿واذكر في الكتاب إدريس﴾	٥٦	٢٠٠
﴿فخلف من بعدهم خلف﴾	٥٩	١٥٧
﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا﴾	٦٣	١١٦
﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه﴾	٦٧	٢٠٠

سورة طه

﴿فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾	١٤	٤٥
﴿فقولا له قولاً ليناً﴾	٤٤	١٩٧
﴿لعله يتذكر أو يخشىٰ﴾	٤٤	١٩١
﴿ربنا الذي أعطىٰ﴾	٥٠	٩٦
﴿ومن يعمل من الصالحات﴾	١١٢	١٦١ ـ ١٨١ ـ ١٨٣
﴿يا آدم هل أدلك على شجرة...﴾	١٢٠ ـ ١٢١	١١٦
﴿فمن اتبع هداي فلا يضل﴾	١٢٣	٨٥

سورة الأنبياء

﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾	٢	١٩٤
﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾	٣٥	١٣٠
﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾	٥٠	١٧٤

﴿بل فعله كبيرهم﴾	٦٣	٢١٢
﴿إني مسني الضر﴾	٨٣	١٧٨
﴿لا إله إلا أنت سبحانك﴾	٨٧	٣٢
﴿إني كنت من الظالمين﴾	٨٧	١٧٦
﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾	٩٨	١٦٧

سورة الحج

﴿ومن يهن الله فما له من مكرم﴾	١٨	٩٨
﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾	٢٨	٢٣٢
﴿وأطعموا القانع والمقتر﴾	٣٦	٢٣٢
﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم﴾	٦٦	٧٤

سورة المؤمنون

﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾	٥٢	٤٨
﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت﴾	٧١	٨٦
﴿قل لمن ما في السمٰوات ومن فيها...﴾	٨٤ ـ ٨٥	٢٨١
﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾	٥٢	٤٨

سورة النور

﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾	٢	٢١٩
﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم أنىٰ...﴾	١٦	٢١١
﴿ولولا فضل الله ورحمته﴾	٢١	٧٦
﴿وإن قيل لكم ارجعوا﴾	٢٨	٧٦ ـ ٨٩
﴿ويحفظوا فروجهم ذلك أزكىٰ لهم﴾	٣٠	٧٦ ـ ٨٨
﴿وتوبوا إلى الله﴾	٣١	١٥٢
﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً﴾	٣٣	١٨٧
﴿الله نور السموات والأرض﴾	٣٥	١٨٧
﴿والذين كفروا أعمالهم...﴾	٣٩ ـ ٤٠	١٨٧
﴿ومن لم يجعل الله له نوراً﴾	٤٠	١٦٤ ـ ٣٠٣
﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى﴾	٥٢	٤٨
﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن﴾	٥٤	٣٦
﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾	٥٤	٢٧١
﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾	٦٣	٢٧٢

سورة الفرقان

﴿ويوم يعض الظالم على يديه...﴾	٢٨ ـ ٢٩	٢٦٧
﴿وكفىٰ بربك هادياً ونصيراً﴾	٣١	٢٢١
﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾	٤٣	٤٩
﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾	٥٨	١٥٢
﴿كل ما يعبأ بكم ربي﴾	٧٧	١٦٦

سورة الشعراء

﴿أولم يروا إلى الأرض كم﴾	٧	٩٧
﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾	٧٨	٩٦
﴿إلا من أتىٰ الله بقلب سليم﴾	٨٩	٨٢
﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون﴾	٩٢	١٦٧
﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾	٢١٣	١٦٣
﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين...﴾	٢٢١ ـ ٢٢٣	١٢٥
﴿ألم ترى أنهم في كل وادٍ يهيمون﴾	٢٢٥	١٤١

سورة القصص

﴿إن فرعون علا في الأرض﴾	٤	٢٥٥
﴿ولما بلغ أشده واستوىٰ﴾	١٤	٣٦
﴿قال ربِ إني ظلمت نفسي﴾	١٦	١٧٩
﴿إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾	٢٤	١٧٩
﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾	٤٩	٦٢
﴿ومن أضل﴾	٥٠	٩٩
﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىٰ﴾	٥٠	٥٠ ـ ٦١ ـ ٨١
﴿إذ قال له قومه﴾	٧٦	١٤٠
﴿تلك الدار الآخرة﴾	٨٣	٢٥٥

سورة العنكبوت

﴿ووصينا الأنسان بوالديه حسناً﴾	٨	١٢٣
﴿وقا الذين كفروا للذين آمنوا...﴾	١٢ ـ ١٣	٢٢٩
﴿فآمن له لوط وقال﴾	٢٦	١١٢
﴿إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء﴾	٤٥	٣٠

سورة الروم

﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم﴾	٢٩	٦٢ ـ ٨١
﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾	٣٠	٤٧

سورة لقمان

﴿وإن جاهداك على أن تشرك﴾	١٥	١٢٣
﴿وأمر بالمعروف وانه المنكر﴾	١٧	٦٦
﴿ولئن سلتهم من خلق السمٰوات والأرض﴾	٢٥	٢٨١

سورة السجدة

﴿تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع﴾	١٦	١٧٤
﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾	١٧	١ ٢

سورة الأحزاب

﴿وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾	٧	١٤٥ ـ ٢٥٨
﴿ثم سئلوا الفتنة لأتوها﴾	١٤	٩٢
﴿إذ يقول المنافقون والذين﴾	١٢	٨٠
﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾	٣٢	٧٩
﴿إنما يريد الله ليذهب﴾	٣٣	٨٤
﴿لئن لم ينته المنافقون الذين﴾	٦٠	٨٠
﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا﴾	٦٧	٢٢٩
﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾	٧٠	٣٦
﴿ليعذب الله المنافقين﴾	٧٣	١١٠ ـ ١١٢

سورة سبأ

﴿اعملوا آل داود شكرا﴾	١٣	١٢٠

سورة فاطر

﴿الحمد لله فاطر السمٰوات والأرض﴾	١	١١٩
﴿ما يفتح الله من رحمة فلا ممسك لها﴾	٢	١٢٠ ـ ٢٣٢
﴿أفمن زين له سوء عمله﴾	٨	١١٧
﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾	٢٨	١٩١

﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه﴾	٣٧	١٩٩
سورة يس		
﴿لينذر من كان حياً﴾	٧	١٨٦
﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾	١١	١٩٣
﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمٰن﴾	١١	١٩٠
سورة الصافات		
﴿ماذا تعبدون. ائفكاً الهة...﴾	٨٥ ـ ٨٧	١٠٩
﴿إني سقيم﴾	٨٩	٢١٢
﴿أتعبدون ما تنحتون﴾	٩٥	١٠٩
﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾	١٠٣	١٦١
سورة صٓ		
﴿وألوا استقاموا على الطريقة﴾	١٦	٣٨
﴿يا داود إنا جعلناك﴾	٢٦	٦٢ ـ ٦٤
﴿أم نجعل الذين آمنوا﴾	٢.	٢١٩
﴿إلا إبليس استكبر﴾	٧٤	٢٢٧
﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾	١٧	٢٠٠
﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق﴾	٤٥	٢٠٠
﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرىٰ﴾	٤٦	٢٠٠
﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾	٨٢	٢٦٩
﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾	٨٧	٤ج١
سورة الزمر		
﴿فاعبد الله مخلصاً...﴾	٢ ـ ٣	٢،
﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا...	٣	١٦٧
﴿ولا يرضىٰ لعباده الكفر﴾	٧	٢٧٩
﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾	١٤	٢٧
﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾	٣٠	٧٤
﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله﴾	٣٨	٢٣٣

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا﴾	٥٣	١٠٣
﴿ولقد أوحي إليك....﴾	٦٤ ـ ٦٥	١٦٣

سورة غافر

﴿ذلك بأنه إذا دعي...﴾	١٢ ـ ١٣	١٩٧
﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾	١٤	١٦٨
﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾	٣١	١٨١
﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك﴾	٥٥	٢٨١
﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾	٥٥	١٣٦
﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾	٦٠	١٦٦
﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾	٦٥	١٢٢

سورة فصلت

﴿فاستقيموا واستغفروه﴾	٦	١٠٧
﴿ويل للمشركين الذين لا يؤتون﴾	٧	٧٧ ـ ٨٩
﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا﴾	٣٥	١٣٧
﴿قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء﴾	٤٤	٣٥ ـ ٧٩
﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾	٤٦	١٨٤
﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾	٤٦	١٨٠
﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾	٤٨	١٦٧

سورة الشورىٰ

﴿شرع لكم من الديني ما وصى﴾	١٣	٤٨
﴿فلذلك فادع واستقم﴾	١٥	٦٩
﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم﴾	٢١	٢٦٧
﴿ترىٰ الظالمين مشفقين مما كسبوا﴾	٢٢	١٩١
﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾	٢٦	٢٧٠
﴿ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾	٣٠	١٦١
﴿ما كنت تدري ما الكتاب﴾	٥٢	١١١

سورة الزخرف

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾	٣٦	١١٧
﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾	٤٤	١٩٣
﴿فلما أسفونا انتقمنا منهم﴾	٥٥	٢٨٠
﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس﴾	١	٢٩٤

سورة الجاثية

﴿وسخر لكم ما في السمٰوات والأرض﴾	١٣	١٢٣
﴿ولا تتبعوا أهواء الذين لا يعلمون﴾	١٨	٨٦

سورة الأحقاف

﴿فاصبر كما صبر أولو العزم﴾	٣٥	١٤٥

سورة محمد

﴿الذين كفروا وصدوا. . .﴾	١ ـ ٣	٣٦
﴿من زين له سوء عمله﴾	١٤	٨٦
﴿والذين اهتدوا زادهم هدىً﴾	١٧	٤١
﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر﴾	١٩	١٠٦ ـ ١١١
﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾	٢٠	٢٠٥
﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾	٢٧	٢٧٩
﴿فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل﴾	٣٨	٢٠٦
﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾	٣٨	٢٠٤

سورة الفتح

﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك﴾	٢	١٠٦
﴿وعدكم الله مغانم كثيرة﴾	٢٠ ـ ٢٣	٢٧٤

سورة الحجرات

﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾	١	٣٣ ـ ٦٣
﴿إنما المؤمنون إخوة﴾	١٠	٢١٩
﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾	١١	٢١٤
﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً	١٢	٢١٣

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم﴾	١٣	٢١٦
﴿قالت الأعراب آمنا﴾	١٤	١٢٧
﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا﴾	١٥	١٢٧

سورة قٓ

﴿هذا ما توعدون لكل أواب. . .﴾	٣٢ ـ ٣٤	١٩٠
﴿لهم ما يشاؤون فيها	٣٥	٢٩٤
﴿إن في ذلك لذكرىٰ﴾	٣٧	١٩٢
﴿وأزلفت الجنة. . .﴾	٣١ ـ ٣٣	١٩١
﴿فاصبر على ما يقولون	٣٩	١٣٦
﴿فذكر بالقرآم من يخاف	٤٥	١٨٩ ـ ١٩٠ ـ ١٩٣

سورة الذاريات

﴿فتول عنهم فما أنت بملون﴾	٥٤ ـ ٥٥	١٩٦
﴿وذكر فإن الذكرى﴾	٥٥	١٩٨
﴿وما خلقت الجن والإنس﴾	٥٦	٢٠٨

سورة الطور

﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم﴾	٢١	٤٢
﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾	٢١	١٨٤
﴿قالوا إنا كنا قبل في أهلنا﴾	٢٦	١٩٠

سورة النجم

﴿والنجم إذا هوىٰ. . .﴾	١ ـ ٢	١٤١
﴿فأعرض عن من تولىٰ﴾	٢٩	٢٥٧
﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾	٣٠	٢٥٧
﴿فلا تزكو أنفسكم﴾	٣٢	٧٧
﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾	٧٣	١٦٧

سورة الحديد

﴿لا يستوي منكم من أنفق﴾	١٠	٢٠٦
﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾	٢٣	١٣٨

﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا﴾	٢٣	٢٦٤
﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾	٢٤	٢٠٢
﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾	٢٥	٢٢١
﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾	٢٨	٣٥ ـ ٤٠
﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا﴾	٢٨	١٨٨
سورة المجادلة		
﴿لا تجد قوماً يؤمنون﴾	٢٢	٢١٨
سورة الحشر		
﴿هو الذي أخرج الذين كفروا. . .	٢ ـ ٤	٢٧٣
﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا﴾	٨	١٢٧
﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾	٩	١٠١
﴿ومن يوق شح نفسه﴾	٩	٤٥١
﴿ولا يجدون في أنفسهم حاجة﴾	٩	٢٤٤
سورة الممتحنة		
﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم﴾	١	٢١٨
﴿قد كانت لكم أسوة﴾	٤	٢٣٤
﴿ربنا عليك توكلنا﴾	٤	٣٩
﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه﴾	١٢	٢١١
سورة الصف		
﴿يا أيها الذين آمنوا. . .﴾	٢ ـ ٤	٢٥٤
﴿فلما زاغوا أزاغ﴾	٥	١٦٠
﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾	٨٣	٣١
سورة التغابن		
﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾	١٦	٦١
سورة الطلاق		
﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. . .﴾	٢	٣٧ ـ ٣٩

﴿ومن يتوكل على الله﴾	٣	٢٣٩

سورة التحريم

﴿جاهد الكفار والمنافقين	٩	٢٢٢

سورة الملك

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾	٢	٦٤
﴿لو كنا نعقل أو نسمع ما كنا في أصحاب السعير﴾	١٠	١٩٢

سورة القلم

﴿وإنك لعلىٰ خلق عظيم﴾	٤	٢٤٩
﴿هماز مشاء بنميم﴾	١١	٢١٤
﴿فاصبر لحكم ربك﴾	٤٨	٦٧

سورة المعارج

﴿إن الإنسان خلق هلوعاً. . .﴾	١٩ ـ ٢١	١٣٥

سورة نوح

﴿إنا أرسلنا نوحاً. . .﴾	١ ـ ٤	١٠٨

سورة المزمل

﴿وتبتل إليه تبتلا﴾	٨	٣٣
﴿واصبر على ما يقولون﴾	١٠	٦٦
﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا﴾	١٠	٤٦
﴿واستغفروا الله إن الله﴾	٢٠	١١٠

سورة المدثر

﴿يا أيها المدثر. . .﴾	١ ـ ٧	٦٦
﴿وما هي إلا ذكرىٰ للبشر﴾	٣١	١٩٤
﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾	٣٨	١٨٥
﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾	٤٩	١٩٦
﴿هو أهل التقوىٰ﴾	٥٦	١١١

سورة النبأ

﴿إن للمتقين مفازاً...﴾	٣١ ـ ٣٢	٩٧

سورة النازعات

﴿فقل هل لك إلى أن تزكى	١٨	٧٧ ـ ٩٢
﴿هل لك إلى أن تزكىٰ﴾	١٨	١٩٧
﴿إنما أنت منذر﴾	٤٥	١٨٩

سورة عبس

﴿وما يدريك لعله يزكىٰ﴾	٣	٧٧
﴿أو يذكر فتنفعه الذكرىٰ﴾	٩	١٩٨
﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه...﴾	٢٣ ـ ٣٢	٩٧
﴿يسألونك عن الساعة...﴾	٤٢ ـ ٤٥	١٩٠

سورة التكوير

﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾	٢٧	١٩٣

سورة الانفطار

﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾	١٣ ـ ١٤	١٢٦

سورة المطففين

﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين...﴾	١٨ ـ ٢٨	٢٩٣
﴿إن الأبرار لفي نعيم...﴾	٢٢ ـ ٢٦	٢٤١
﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾	٢٦	٢٤٤

سورة الأعلى

﴿الذيين خلق فسوىٰ...	٢ ـ ٣	٩٦
﴿فذكر إن نفعت الذكرىٰ﴾	٩	١٩٦
﴿سيذكر من يخشىٰ﴾	١٠	١٨٩ ـ ١٩٧
﴿قد أفلح من تزكى﴾	١٤	٧٦ ـ ٩١

سورة الغاشية

﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾	٢١	٢٩٣

سورة الفجر

﴿فأما الإنسان...﴾	١٥ ـ ١٦	٣٧
﴿يا أيتها النفس...﴾	٢٧ ـ ٣٠	٦٩

سورة الشمس

﴿قد أفلح من زكاها﴾	٩	٧٦

سورة الليل

﴿فأما من أعطىٰ واتقى...﴾	٤ ـ ١٠	٢٣٨
﴿وسيجنبها الأتقىٰ﴾	١٧ ـ ٢١	٥٠

سورة الإنشراح

﴿فإذا فرغت فانصب...﴾	٧ ـ ٨	١٥١

سورة العلق

﴿اقرأ وربك الأكرم﴾	٣ ـ ٥	٩٦ ـ ٩٨

سورة التكاثر

﴿لتسألن يومئذ عن النعيم﴾	٨	٨٠

سورة الماعون

﴿فويل للمصلين﴾	٤ ـ ٦	٢٧
﴿فويل للمصلين الذين...﴾	٤ ـ ٧	٢٠٥

سورة الهمزة

﴿ويل لكل همزة لمزة﴾	١	٢١٤

سورة البينة

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا﴾	٥	٢٧
﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾	٧ ـ ٨	٢٨٣

سورة البلد

﴿أو إطعام في يوم...﴾	١٤ ـ ١٦	٢٣١

﴿وتواصوا بالصبر﴾	١٧	١٣٦

سورة الكافرون

﴿لا أعبد ما تعبدون﴾	٢	١٦٨

سورة المسد

﴿سيصلىٰ ناراً ذات لهب﴾	٣	١٩٥

سورة الفلق

﴿قل أعوذ. . .﴾	١ ـ ٥	٢٤٥

فهرس الحديث

الحديث	رقم الصفحة
الآن بردت جلدته	٩٣
اتقوا فراسة المؤمن	٤٩
اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم	١٨٦
اربعوا على أنفسكم	١٦٩
استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة	٢٨
اللهم إليك أشكو ضعف قوتي	١٣٣
اللهم إني خلقت نفسي وأنت تتوفاها	٧٥
اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك	٢٨٨
اللهم طهرني بالماء والبرد والثلج	٩٢
اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر	٦٩
أحلوا الحرام فأطاعوهم	٢٦٧
أدوا إليهم حقوقهم وسلوا الله حقوقكم	٥٩
إذا أنفق الرجل على أهله	٣٠٣
إذا حضرت الصلاة فأذنا وأقيما	٧٢
إذا دخل أهل الجنة الجنة	٢٨٨
إذا رأيتم الرجل يعاد المساجد فاشهدوا	٢٨
إذا سألت فاسأل الله	١٣٣
إذا قعد أحدكم في التشهد	٣٠٠
إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه	٤٧
أسألك الرضا بعد القضاء	٢٨٤
الإسلام يجب ما قبله	١١٤

الإسلام يهدم ما كان قبله ١٣٩
اشترط رسول الله على النساء في البيعة أن لا ينحن ١٣٩
اشترط لنفسي أن تنصروني ٢٩٤
أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً ٢٨٦
أصدق الأسماء حارث وهمام ٦٥
أصدق كلمة قالها لبيد ٨٣
أعوذ بك من منكرات الأخلاق ٢٤٩
أفضل الدعاء الحمد لله ١٧٠
أفضل الدعاء يوم عرفة ١٧٧
أفضل الذكر لا إله إلا الله ١٧٥
إلا أن أوليائي المتقون ٢١٧
إلا وإن في الجسد مضغة ٢٥٦
أما معاوية فصعلوك لا مال له ٢٢٠
إن استطعت أن تعمل لله بالرضا ٢٧٩
إن الله أذهب عنكم عبية ٢١٧
إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ٦٦
إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ٦٦
إن الله كتب الإحسان على كل شيء ١٣٩ ـ ٢٦٣
إن الله كتب على ابن آدم حظه ٩٤ ـ ١٢٦
إن الله لا ينظر إلى صوركم ٢٢١
إن الله ليرضىٰ عن العبد ٢٥٩
إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ١٣٩
إن الله يحمي عبده المؤمن ٢٥٩
إن الله يرضىٰ عن العبد ١٢٠
إن الله يغار ١٥٥
إن الله يلوم على العجز ٢٣٤
إن آل أبي فلان ليس لي ٢١٧
إن أدنىٰ أهل الجنة منزلة ٢٩٢
إن أعف الناس قتلة أهل الإيمان ١٤
إن أكبر الكبائر ٢٢٦
إن الخطيئة إذا عملت ٢٩٧

إن خليلي أمرني أن لا أسأل	١٥١
إن الدعاء هو العبادة	١٦٥
إن السيد لا يكون بخيلاً	٢٠٣
إن شفاء العي السؤال	٨٠
إن كنت لأبرهم وأصدقهم	٢١٣
إن من الخيلاء	٣٣
إن من الغيرة	١٥٥
إن النائحة إذا لم تتب	١٣٩
إن الناس إذا رأوا المنكر	٥٩
إن النبي بايع	١٥١
أنا بريء من الحالقة	١٣٩
أنا سيد ولد آدم ولا فخر	٢٢٩
إنك لن تنفق نفقة	٣٠٣
إنما الأعمال بالنيات	٢٤
إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق	٥٢
إنما الدنيا لأربعة	٢٧١
إنما مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل	٥٢
إنما مهيت عن صوتين أحمقين	١٣٨
إنه أوحي إلى أن تواضعوا	٢٢٦
إنه لا فضل على عربي على عجمي	٢١٧
إنها كنز من كنوز الجنة	٢٣٩
إنهم خيروني بين أن يسألوني	٢٠٤
إني أسأل الله الجنة وأعوذ	١٧٥
إني خلقت عبادي حنفاء	٤٨
إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا	٢٥٩
أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان	١٤٨
إياكم والشح فإن الشح	١٠٠
إياكم والظن	٢٠٩
إياكم وكرائم أموالهم	٩٨
باسمك اللهم أموت وأحيا	٧٥
بعثت بجوامع الكلم	٢٦

بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ٥٩
البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ٢٣٣
تعجبون من غيرة سعد ١٥٤
تعرض الفتنة على القلوب عرض الحصير ٥٨
تعس عبد الدرهم ٢٦٠
ثلاثة منجيات ٦٢ ـ ٨٧
ثلاث من كن فيه ٢٩٠
ثلاث مهلكات ٦٢
ثلاث لا ينجو منهن أحد ٢٤٨
حدثني فصدقني ووعدني فوفاني ١٥٧
الحرب خدعة ٢١٣
الحسد يأكل الحسنات كما تأكل ٢٥١
الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا ٧٥
الحمد لله الذي رد عليّ روحي ٧٥
الحمد لله رأس الشكر ١٢٠
الحياء من الإيمان ٧٣
الحياء والعي شعبتان من الإيمان ٧٣
خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف ٢١٩
خير الكلام كلام الله ٢٦٥
دب إليكم داء الأمم قبلكم ٢٤٩
دخلت الجنة فرأيت امرأة ١٥٥
دعوة أخي ذي النون ١٧٦
الدين النصيحة ٢٢٠
ذاك الله ٢٠٨
ذاق طعم الإيمان من رضي ٢٧٦
ذكرك أخاك بما يكره ٢١١
رأس الأمر الإسلام ١٤٣
ربنا ولك الحمد، ملء السموات ١٢٢
رد رسول الله على عثمان بن مظعون التبتل ٢٦٢
سبحان الله، لا تستطيعه ٢٨٦
١١٣

سبحانك اللهم وبحمدك
سبعة يظلهم الله في ظله ٢٩
سيد الاستغفار ٥٥
سيكون بعدي أمراء ٢٩٧
سيكون في هذه الأمة ٢٧٢
شر ما في يالمرء شح هالع ١٠٢ ـ ١٤٦
عليكم بسنتي وسنة الخلفاء ١٤١
عليكم بالصدق فإن الصدق ١٢٦
قرأ علينا رسول الله الرحمة حتىٰ ختمها ١٢١
القضاة ثلاثة ٢٣٣
قل اللهم ظلمت نفسي ١٧٨
قل هو الله أحد تعدل ٥١
كان إذا أراد غزوة ورىٰ بغيرها ٢١٣
الكبر بطر الحق وغمط الناس ٢٢٥
كل شيء بقدر ٢٣٥
كل عمل ابن آدم له ٨٧
كل مسير لما خلق له ٢٣٨
كل مولود يولد على الفطرة ٤٧
كلمتان خفيفتان على اللسان ٢٧٠
كلوا غارت أمكم ١٥٦
الكيس من دان نفسه ٢٣٩
لأن يأخذ أحدكم حبله [illegible]
لا تحاسدوا [illegible]
لا تحل المسألة إلا الذي [illegible]
لا تزال المسألة بأحدكم [illegible]
لا تزرموه ١٠٤
لا تسموا العنب الكرم ٩٧
لا تمثلوا ولا تغدروا ١٤٠
لا تمنعوا إماء الله ١٥٦
لا حسد إلا في اثنين ١٥٨

لا شيء أغير من الله ١٥٥٥
لا يجتمع غبار في سبيل الله ١٠١
لا يجتمع في النار مسلم قتل كافراً ١٠١
لا يجتمعان في قلب عبد ١٠١
لا يحل لثلاثة يكونون في سفر ٧٢
لا يدخل الجنة ديوث ١٥٥
لا يدخل النار من كان في قلبه ٢٢٧
لا يقضي للمؤمن قضاء ١٤٤
لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي ٣٠١
لئن سألني لأعطينه ٢٧٠
لم يكذب إبراهيم ٢١٢
لما تجاوز النبي ﷺ ٢٤٣
لو أخذ الناس كلهم ٣٩
لي الواجد يحل عرضه ٢١٩
ليس أحد أحب إليه العذر ١٥٤
ليس بالكاذب الذي يصلح ٢١٢
ليس التزهد في الدنيا ٢٦٤
ليس الشديد بالصرعة ٩٥
ليس الغني عن كثرة العرف ١٥٢
ليس المسكين بهذا الطواف ٢٥٣
ليس منا من لطم الخدود ١٣٨
ليس وراء ذلك من ازيمان ٥٨
ليسأل أحدكم ربه حاجته ٢٣٦
ما أتاك من هذا المال ١٥٠
ما أحد أغير من الله ١٥٤
ما أصاب عبداً قط هم ١٨٢
كا بال أقوام قالوا كذا وكذا ٢٦٢
ما بال رجال يتنزهون ٢١٦
ما بال رجال يشترطون ٢١٦
ما بال رجال يقول أحدهم ٢١٦

ماتعدون الرقوب فيكم	١٣٧
ما تعدون المفلس فيكم	١٥٣
ما تغرب إلي عبدي	٤٣
ما كان الرفق في شيء	٦٦
ماكان من العين والقلب	١٣٩
مالي أراكم سكوتاً	١٠١
مثل البيت الذي يذكر فيه	١٨٦
مثل المؤمن مثل الخامة	١٦٢
مثل المؤمن في توادهم	٢٥١
المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله	٩٤
المسلم من سلم المسلمون	٢٥٣
المصاب من حرب الثواب	١٣٠
من أحسن منكم في الإسلام	١١٥
من أكثر من الاستغفار	٣٨
من حدث بحديث	٢٧٦
من دعا إلى ضلالة	٢٢٨
من رأى منكم منكراً	٤٦ ـ ٥٦
من رآه بديهة هابه	٩٩
من رغب عن سنتي	٢٦٥
من سأل الناس وله	١٥٠
من سيدكم	٢١٦
من طلب الماء استغناء	١٤٨
من قال لا إله إلا الله	٣١
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا	٢٦
من لا يشكر الناس	١٢٢
من مات وهو لا يشرك	٢٢٧
من يستعفف يعفه الله	١٥٣
من يستغن يغنه الله	١٤٨
من ينح عليه فإنه	١٣٩
المؤمن القوي خير وأحب	٢٥١

المؤمن للمؤمن كالبينات ٢٥١
المهاجر من هجر السيئات ٩٤
نحن من ماء ٢١٣
هلا سألوا إذا لم يعلموا ٨٠
هم الذين لا يكتوون ٥٥
هي من قدر الله ٢٣٧
والذي نفسي بيده لا يقضي ٣٨
والذي نفسي بيده لا يؤمن ٢٥٠
وأي داء أدوىٰ من البخل ٢٤٩
وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ٢٩٣
ورجل ارتبطها تغنياً وتعففاً ١٤٨
يا ابن آدم: إنما هي أربعة ١٧٣
يا أمة محمد ما أحد أغير من الله ١٥٥
يا عبادي إنبي حرمت الظلم ١٨٠
يا عمرو: أما علمت ١٠٦
يرحم الله لوطاً لقد كان ٢٠٩
يطلع عليكم الآن ٢٤٣
يقول الله تعالىٰ: أهددت لعبادي ٢٩١
يقول الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء ٦٤
يقول الشيطان؛ أهلكت الناس بالذنوب ٣٢

فهرس الأعلام

١ ـ الكنى

اسم العلم	رقم الصفحة
أبو الأحوص	٩١
أبو بكر الصديق	٥٠ ـ ٥٨ ـ ٦٩ ـ ١٧٨ ـ ٢٠٣ ـ ٢١٣ ـ ٢٤٣ ـ ٤٦٦ ـ ٢٨٦ ـ ٣٠٠
أبو بكر القاضي	٢٨٩ ـ ٢٩٨
أبو بكر الواسطي	٢٨٥
أبو ثعلبة الخشني	٥٩
أبو جهم	٢٢٠
أبو حامد الأسفراييني	١٠٠
أبو حامد الغزالي	٢٨٩
أبو حنيفة	٢٦ ـ ٣٠
أبو خزامة	٢٣٧
أبو داود	١٧١ ـ ٢٣٤ ـ ٢٥١
أبو الدرداء	٢٠٢
أبو ذر الغفاري	٣٨ ـ ١٨٠
أبو زرعة	٢٧٧
أبو سعيد الخدري	٩٠ ـ ١٤٨
أبو سفيان بن حرب	١٠٥ ـ ٢١٩
أبو سليمان الداراني	٢٧٥ ـ ٢٧٧ ـ ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ـ ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ـ ٢٩٥
أبو طالب بن عبد المطلب	٥٠ ـ ٢٤٦
أبو طالب المكي	٢٨٩

أبو العاص	١٥٧
أبو عبد الرحمن السلمي	٢٧٧ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤
أبو عثمان الحيري النيسابوري	٢٧١ ـ ٢٨٤
أبو القاسم القشيري	١٥٨ ـ ١٦١ ـ ١٦٣ ـ ٢٧٥ ـ ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٩ ـ ٢٩٨ ـ ٢٩٩
أبو القاسم النصر أباذي	٢٧٧ ـ ٢٨٢
أبو قتادة	٩٣
أم قيس	٢٥
أبو المعالي الجويني	٢٨٨ ـ ٢٨٩
أبو موسىٰ الأسودي	٢٠٧ ـ ٢٥١ ـ ٢٦٦ ـ ٢٨٣
أبو نعيم الأصفهاني	٢٨٢ ـ ٢٨٥
أبو هريرة	٥٣ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٥٥ ـ ٢٠٩ ـ ٢٣٤ ـ ٢٤١ ـ ٢٤٩
أبو يعلىٰ ـ القاضي ـ	٦٧ ـ ١٠٠ ـ ٢٨٩ ـ ٢٩٨

(٢) من عرف باسم أبيه

اسم العلم	رقم الصفحة
ابن جريج	١٧١
ابن الجوزي	٢٨٣
ابن أبي حاتم	٢٧٧
ابن أبي الدنيا	١٧٦ ـ ٢٤٩
ابن السائب	٩٠ ـ ٩١ ـ ١٤٦
ابن عباس	٤١ ـ ٥٤ ـ ٨٨ ـ ٩١ ـ ١٢٠ ـ ١٢٨ ـ ١٣٣ ـ ١٥٠ ـ ١٩٦ ـ ٢٠٩ ـ ٢٣٠ ـ ٢٣٥ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٩ ـ ٢٧٨ ـ ٢٩٣
ابن عطية	٩٨
ابن عقيل	١٠٠ ـ ٢٨٨
ابن أبي عمر	٢٣٧
ابن قتيبة	٨٩ ـ ٩٧
ابن ماجة	٢٨ ـ ١٧٦
ابن مسعود	٤٣ ـ ٥٨ ـ ١٢٦ ـ ١٥٤ ـ ١٨٢ ـ ١٩١ ـ ٢٨٨ ـ ٢٤٠
ابن أبي مليكة	٧٨

(٣) الألقاب

اسم العلم	رقم الصفحة
الأوزاعي	٢٢١
البلياني	٨٢
البيهقي	١٧٧
الترمذي	٤٩ ـ ١٢١ ـ ١٧٦ ـ ١٧٧ ـ ٢٣٨ ـ ٢٧١ ـ ٢٨٤
التلمساني	٨٢
الثوري	٢٢٠
الجوهري	١٤٦
الخرائطي	٨١
الزجاج	٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩١ ـ ٩٨
الزهري	٢٣٧
الشافعي	٢٦ ـ ٢٩ ـ ٣٠ ـ ١٣٠ ـ ١٨٢ ـ ٢٨٩
الشبلي	١٥٨ ـ ٢٩١
الفراء	٨٨ ـ ٨٩
القونوي	٨٢
النسائي	١٠١ ـ ٢٨٨
الوالبي	٨٨

(٤) الأسماء

اسم العلم	رقم الصفحة
آدم عليه السلام	١١٢ ـ ١١٦
إبراهيم الخليل عليه السلام	٩٦ ـ ١٠٩ ـ ١١٢ ـ ١٣٨ ـ ١٤٥ ـ ١٥١ ـ ١٦١ ـ ٢٦١ ـ ٢٨٩
إبراهيم بن فاتك	٢٨٥
إبراهيم بن المهدي	١٤٢
أحمد بن حنبل	٢٦ ـ ٢٨ ـ ٣٠ ـ ١٣٣ ـ ١٤٥ ـ ١٨٢ ـ ١٨٥ ـ ٢٢١ ـ ٢٢١ ـ ٢٤٣ ـ ٢٤٩ ـ ٢٥٩ ـ ٢٦٥ ـ ٢٨٩ ـ ٣٠٠
أحمد بن أبي الحواري	٢٨٣ ـ ٢٨٧ ـ ٣٠٤
أسماء بنت أبي بكر	١٥٥
إسماعيل عليه السلام	١٦١

إسماعيل بن إسحاق ٢٨٦
أمية بن أبي الصلت ١٧٧
أنس بن مالك ٢٤٣ ـ ٢٥٠ ـ ٢٦٢
أياس بن معاوية ١٨٢ ـ ١٨٣
أيوب عليه السلام ١٧٧ ـ ١٧٨
أيوب السختياني ٢٧٧
بشر الحافي ٢٨٢
بشر المريسي ٢٨٨
ثوبان ٢٨
جابر بن عبد الله ١٢١ ـ ٢٠٣ ـ ٢٧٧
العد بن درهم ٢٨٩
الجنيد ٢٨٢ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ـ ٣٠٤
الجهم بن صفوان ٢٨٩
الحارث بن هشام ١٠٥
الحاكم ١٢١
حسان بن ثابت ١٣٨
الحسن البصري ٤٩ ـ ٩١ ـ ١١٨ ـ ١٣٦ ـ ١٤٦ ـ ١٦٨ ـ ١٩١ ـ ١٩٥ ـ ٢٤٧ ـ ٢٧٨ ـ ٢٨٩
حذيفة بن اليمان ٥٨ ـ ٧٨
حكيم بن حزام ١١٤
حواء ١١٦
خالد بن عبد الله القسري ٢٨٩
خديجة بنت خويلد ١٥٦
داود عليه السلام ٦٤ ـ ١٣٠ ـ ٢٦١
داود الظاهري ٢٨٦
ذو النون ٣٢
ربيعة بن عبد الرحمن ١٨٣
رويم المقرئ ٢٨٥ ـ ٢٨٧
زينب (برة) ٧٨
زينب بنت جحش ٢٤٨
سراقة جعشم ٢٣٧

السري السقطي ١٥٩ ـ ١٦٣
سعد بن عبادة ٦١ ـ ١٥٤
سعد بن معاذ ٦١
سعد بن أبي وقاص ٢٦٢
سعيد بن جبير ١٣٠ ـ ١٤٦
سفيان بن عيينة ٨٨ ـ ٢٤٩
سلمان بن ربيعة ٢٠٤
سمنون ١٧٥ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٧
سهل التستري ١٤٢ ـ ٣٠٤
سهيل بن أبي صالح ١٠١
سهيل بن عمرو ١٠٦
شعيب عليه السلام ١٠٩ ـ ١١٢ ـ ٢٣٣
صالح عليه السلام ١٠٨
صفوان بن أمية ١٠٦
صفوان بن أبي يزيد ١٠١
صهيب ١٤٤ ـ ٢٨٨ ـ ٢٩٢
الضحاك ٩١ ـ ١١٨ ـ ١٤٦
ضرار بن عمر ٢٨٧
طاووس ١٣٣ ـ ٣٠٠
عائشة ١١٣ ـ ١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ٢٠٩ ـ ٢٤٨ ـ ٢٤٩
عامر ١٥١
العباس بن عبد المطلب ٢٧٦
عبد الرحمن بن عوف ١٠٠ ـ ٢٥٢
عبد القادر الجيلاني ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٩
عبد القدوس بن الحجاج ٢٢٣
عبد الله بن أبي ٦١ ـ ٢٢٢
عبد الله بن سبأ ٢٢٣
عبد الله بن عمر ٢٤٠ ـ ٢٩٢
عبد الله بن عمرو ٢٣٩
عبد الله بن مغفل ١٧١
عتاب بن أسيد ٢٦٦

عثمان بن عفان ٦٩ ـ ٢٦٦
عثمان بن مظعون ٢٦٢
عدي بن حاتم ٢٦٧
عكرمة بن أبي جهل ١٠٦ ـ ١١٨
علي بن أبي طالب ٦٩ ـ ٧٨ ـ ١٥٧ ـ ٢٣٢ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ـ ٢٦٦
عمران بن حصين ٢٣٧ ـ ٢٣٨
عمر بن الخطاب ٤٩ ـ ٦٥ ـ ٦٩ ـ ١٣٣ ـ ١٤٨ ـ ١٥٥ ـ ٢٠٤ ـ ٢٢٠ ـ ٢٤٣ ـ ٢٤٦ ـ ٢٦١ ـ ٢٦٦ ـ ٣٠٠
عمر بن عبد العزيز ٥٠ ـ ٦٥
عمرو بن العاص ١٠٦ ـ ١١٤
عوف بن مالك ١٥١
عياض بن حمار ١٤٨ ـ ٢٢٥
غيلان ١٨٣
فاطمة بنت رسول الله ﷺ ١٥٦
فاطمة بنت قيس ٢٢٠
فرعون ١٩١ ـ ١٨٧
الفضل بن عيسى الرقاشي ٢٧٧
الفضل بن غياض ٦٤ ـ ٢٨٢ ـ ٢٨٥
قابيل ٢٤٨
قارون ١٤٠
قتادة ٨٨ ـ ٩٠ ـ ١١٨ ـ ١٢١ ـ ١٧٧ ـ ١٩٠ ـ ١٩١
القعقاع بن الجلاج ١٠١
كعب بن زهير ١٣٨
لبيد ـ الشاعر ـ ٨٣
لبيد بن الأعصم ٢٤٥
لقمان ٦٦
لوط عليه السلام ١٠٨ ـ ١١٢
الليث بن سعد ٢٢٠
مالك بن أنس ٢٦ ـ ٣٠ ـ ١٨٢ ـ ٢٢٠ ـ ٢٨٩
مالك بن الحويرث ٧٢ ـ ١٧٧
المأمون ١٤٢

مجاهد بن جبر ٩٢ ـ ١١٨ ـ ١٧١ ـ ١٩١
محمد بن حسان ١٦١
محمد بن سعيد المصلوب ٢٢١
محمد بن عجلان ١٠١
محمد بن المنكدر ٢٧٧
محي الدين بن النحاس ٢٦٩
مسلم ١٣٧ ـ ١٤٤ ـ ١٥٤ ـ ٢٢٥ ـ ٢٧٦ ـ ٢٨٨
معاذ بن جبل ٦٤ ـ ٩٨ ـ ٢٦٦ ـ ٢٩٢
معاوية بن أبي سفيان ١٤٢
معاوية ٢٢٠
المغيرة بن شعبة ١٥٤
مقاتل ١٤٦
موسىٰ عليه السلام ٥٣ ـ ٩٦ ـ ١٣٢ ـ ١٤٥ ـ ١٩٢ ـ ١٩٧ ـ ٢٤٣ ـ ٢٥٩ ـ ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٩.
النعمان بن بشير ١٥١
نوح عليه السلام ٨٥ ـ ١١٢ ـ ١٤٢ ـ ١٤٥
هابيل ٢٤٨
هرقل ٢٣٠
هند زوجة أبي سفيان ٢١٩
هند بن أبي هالة ٩٩
هود عليه السلام ١٠٨
وكيع ٢١٩
وهب ٢٥٩
يحيىٰ بن سعيد ٢٢٠
يحيىٰ بن معين ٢٧٧
يزيد بن حبيب ٩١
يعقوب عليه السلام ١٣٢ ـ ١٥١ ـ ١٧٠ ـ ٢٤٥
يوسف بن أسباط ١٢٧
يوسف عليه السلام ٣٠ ـ ١١٢ ـ ١٣٤ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٤٥ ـ ١٧٠ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧
يونس بن عبيد ١٣٢

الفهرس العام

الموضوع	الصفحة
توطئة	٥
مقدمة التقيق	٩
الإمام ابن تيمية	١٣
الإخلاص والنية	٢٤
التقوىٰ	٣٥
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٥١
الحياء	٧٣
تزكية النفس	٧٦
الكرم والجود	٩٦
التوبة	١٠٣
مجاهدة النفس وذم الهوىٰ	١١٦
الحمد والشكر	١١٩
الصدق	١٢٤
الصبر	١٢٩
العفة	١٤٨
الغيرة	١٥٤
الدعاء	١٦٥
ذم الظلم	١٨٠
الخشية	١٨٩
التذكير	١٩٣
ذم البخل والجبن	٢٠٢
حسن الظن	٢٠٩

الموضوع	الصفحة
ذم الغيبة	٢١١
التواضع	٢٢٥
التوكل على الله	٢٣١
ذم الحسد	٢٤٠
الهجرة إلى الله ورسوله	٢٥٣
الصلاح	٢٥٥
الزهد	٢٥٩
الطاعة	٢٦٦
الرضا	٢٧٥
فهرس الآيات القرآنية	٣٠٥
فهرس الحديث	٣٢٧
فهرس الأعلام	٣٣٥
الفهرس العام	٣٤٢

مكارم الأخلاق

حقوق الطبع محفوظة لدار الخير

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار الخير
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - قردان - جنوب سيار الدرك - بناء الشامي
هاتف: ٨١٠٥٧١ - ٨٦٥٦٩٧ - ص.ب: ١١٣/٥٦٣٠
فاكس: ٨٦٥٦٩٧ - تلكس: ٢١٦٣٢

دمشق - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف: ٢٢٤٥٨٢٢ - ٧٥١٩١٥ - ص.ب: ١٣٤٩٢
تلكس: سامتل سي: ٤١١٣٧٣

دار الخير
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت